سلسلة المشاريع الوطنية للبحث



- طبعة خاصة
وزارة المجاهدين

كتاب مرجعي حول تاريخ الجزائر في العصر الوسيط



منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث
في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954

تصدير بقلم معالي وزير المجاهدين
السيد : محمد الشريف عباس

كثيرا ما عادت إلى ذهني عبارة قالها المؤرخ الشاعر الموسوعي الدكتور أبو القاسم سعد الله حفظه الله، مفادها أننا شعب يحسن صناعة التاريخ ولكنه لا يجيد روايته والتأريخ لما يصنعه.

وإذا كان هذا الإستنتاج المشحون بغصّة أكيدة هو وليد معاناة البحث والإستقصاء التي تحمّلها هذا العالم الفاضل، وهو يقلب دفاتر الماضي ويدقق ويغوص بخبرته وعلميته وسعة اطلاعه في ثنايا تاريخنا الوطني ويرى بأم عينيه كم هو قليل عدد الذين يخوضون معه غمار هذا اليم الواسع المليء بالأسرار والمكنونات، والمليء أيضا بالبحارة المزيفين أو المناوئين الذين لم ولن يدخروا ما في وسعهم للمضي في تزوير الحقيقة التاريخية أو تزييفها أو تغليفها بما يخدم الأهداف المعلنة وغير المعلنة للعدو، والتي ما اتسع حقلها و علا صوتها إلا بسبب ما بدر من المؤرخ الوطني من انسحاب وغياب وما ظهر فينا من سلوك غالب لا يعير التاريخ الأهمية التي تستحق والأولوية التي يجب أن يتبوأها.

ولله الحمد إذ وقعت همسة الدكتور أبو القاسم سعد الله الهادفة و معها كثير من الدعوات الواعية في سمع راعية أمينة حملت همسة الاستغاثة هذه على محمل الجد وقالت معه ومع غيره من الغيورين على التاريخ الوطني، أنه حان الوقت لعمل جاد لاستغلال هذا الفضاء الحيوي وإعادة ترتيبه ليكون من بين أهم الاهتمامات الأولوية.

والفضل في هذا المنحى يعود بالدرجة الأولى إلى فخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة الذي ما كان ليفوت مناسبة وطنية أو محلية إلا وقد حث الهمم ونبّه إلى الآثار السيئة والثقوب الخطيرة التي بدأت تبدو على هذا المستوى أو ذاك من الأعطاب التي تصيب الذاكرة الوطنية، والتي بدأت نتائجها السلبية واضحة في وعي الأجيال الجديدة وتصرفاتها.

قالها فخامته بلغة واضحة أننا وإن كنا مجبرين على التكيف مع المستجدات الحاصلة من حولنا والمشاركة كطرف فاعل في الفضاء الإنساني الجديد،

إلا أن نوعية مشاركتنا وحماية مصالحنا مرهونتان بنجاحنا في تغذية الأجيال الجديدة بالمرجعيات الذاتية ومرتكزات القوة التي تجعلهم يشاركون ولا يذوبون يتصدرون ولا يكونون تبعا لغيرهم، وليس لبلوغ هذه الغاية من خيار غير العناية بالتاريخ وتطعيم هذه الأجيال بخلاصاته.

وقد تمّ الحرص في كل هذا الجهد المتكامل على وضع الأسس لمدرسة تاريخية وطنية لا تستغني عن المناهج العلمية الموضوعية والائتمان على الحقيقة، ولا تسعى في محصلتها إلى زرع الأحقاد كما تفعل المدرسة التاريخية الكولونيالية، ولكنها مع ذلك لا تنسى أنها إزاء بحث علمي إنساني اجتماعي في المقام الأول، وأنها تخوض غمار العمل في حقل ظل مسكوناً بالمغالطات والتعصب في الكثير من المؤلفات التي صدرت عن المؤرخين الإستعماريين، وإنه من حقها أن تعيد ترتيب الحقائق كما وقعت بالفعل وبالصورة التي تبين للأجيال كفاح آبائهم، وكما قال الإمام الشافعي رحمه الله (من حفظ التاريخ زاد عقله).

في سياق هذا الجهد الذي ابتدأ منذ بضع سنوات و احتفاء بالذكرى الخامسة والأربعين لاستعادة السيادة الوطنية يقدم المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 مجموعة جديدة من البحوث العلمية التاريخية قامت بإعدادها بالتعاون مع المركز، كوكبة من الباحثين والمؤرخين والأساتذة، المعروفين بقدراتهم العلمية، وبمساهماتهم المتخصصة في هذا المجال .

وإني لأغتنم هذه الفرصة لأوجه إلى هؤلاء الأساتذة جزيل التقدير على ما تحملوه من عناء البحث والتنقيب والتدقيق ليقدموا هذا الإنتاج الذي سيكون خير عون للطلبة والباحثين والراغبين في التعرف على التاريخ الوطني من منابعه الصافية.

كما أعبر عن بالغ التقدير والشكر لجميع القطاعات التي ساهمت إلى جانب وزارة المجاهدين، في إنجاز هذا المشروع وأخص بالذكر وزارة التعليم العالي والبحث العلمي والوزارة المنتدبة للبحث العلمي اللذين وجدنا فيهما خير مساند في هذا المسعى الوطني الرفيع.

وفق الله الجميع في خدمة التاريخ الوطني، وتخليد مآثر الأمة الأزلية، ومن سار على الدرب وصل.

محمد الشريف عباس

تقديم بقلم
مدير المركز

يتشرف المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 بإصدار ثلاثين دراسة علمية، هي ثمرة عمل مشاريع البحث المنجزة في إطار البرنامج الوطني للبحث العلمي، والتي نال المركز شرف تأطيرها منذ انطلاقها إلى اليوم.

وإذ تتناول هذه الدراسات تاريخ الجزائر بكل مراحله، فإن ذلك يعتبر تأكيدا لفكرة: أن التاريخ الوطني كل لا يتجزأ على اختلاف العصور والأحداث والأزمنة التي عرفتها بلادنا، وأن هذا المكنون التاريخي، مترابطة مراحله ومتواصلة من القديم إلى الوسيط إلى الحديث والمعاصر، بما في ذلك فترتي المقاومة والثورة التحريرية.

وإذا كان الهدف البعيد في طبع ونشر هذه الأعمال هو إبراز دور المركز ومساهمته الفعالة في كتابة تاريخ الجزائر، في إطار الدور المنوط به منذ نشأته سنة 1995، فإن الهدف القريب و المباشر يتمثل في تدعيم المكتبة الوطنية بعصارة جهد ثلة من خيرة الأساتذة الجامعيين والباحثين الجزائريين المشهود لهم بالخبرة والكفاءة والاختصاص، وإثراء الرصيد العلمي والمعرفي للطلبة والمهتمين والباحثين.

ولا يفوتنا بمناسبة نشر هذه الأعمال أن نهنئ أنفسنا وشعبنا وأن نشكر وزارة المجاهدين وعلى رأسها معالي الوزير السيد محمد الشريف عباس، على رعايته واهتمامه البالغ بهذا المشروع، كما نثني على الدور الكبير الذي لعبته وزارة التعليم العالي والبحث العلمي الوزارة المنتدبة للبحث العلمي، الأساتذة والباحثون ،وكل الذين حرصوا وساهموا في إخراج هذا المشروع إلى النور.

د: جمال يحياوي

تاريخ الجزائر في العصر الوسيط

تمهيد

1. أهداف البحث:

يندرج هذا البحث في إطار المساهمة في إعادة كتابة تاريخ الجزائر، وذلك لاعتبارات عديدة. فمنها أن تاريخ الجزائر تعرّض إلى عملية تحيّز وتزوير من طرف المستشرقين ومؤرخي الاستعمار، قصد تشويه الرؤية للإسلام، والحطّ من ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، ومن أمجاد الجزائر وعظمة أبطالها، من جهة، وإخفاء جرائم الغزاة الأجانب، من جهة أخرى[1].

ويضاف إلى ذلك أن قدماء المؤرخين العرب لم يسلكوا منهجية علمية سليمة، حيث إنهم اعتمدوا في كثير من الأحيان على رواية أخبار وقصص ذات الطابع الأسطوري، مما يتطلب نقدا علميا للمصادر، عند استعمالها، وضرورة تحليل محتواها، وتعليل الأحداث، والحكم عليها وعلى رجالها، واستبعاد ما لا يقبله العقل السليم[2].

ثم إن هناك جوانب هامة من التاريخ السياسي والحضاري لم يتعرّض إليها المؤرخون القدماء، أو مرُّوا عليها مرور الكرام، فلم يذكروا تفاصيلها، ولاسيما في مجال النظم السياسية والإدارية والاجتماعية والاقتصادية، والحياة الثقافية والفنون، مما يدعو إلى الاستعانة بكتب الحسبة والنوازل والمناقب والتراجم والرحلات وغير ذلك، للتعرّف بدقة ووضوح على هذه المجالات، وعلى مدى المستوى الحضاري الذي بلغته الجزائر في مختلف العصور. كما أن هناك مجالات تمّ تهميشها، وينبغي إعادة الاعتبار لها، ومنها دور البربر في تطوّر الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية.

1. انظر: Cf. : A. Laroui, Histoire du Maghreb, Paris, 1970, pp.17-10
2. حول التعليل والحكم في تناول الأحداث، انظر: قسطنطين زريق، نحن والتاريخ، ص133-153

ومن الاعتبارات التي تتطلب إعادة كتابة تاريخ الجزائر، ضرورة مراعاة الأوضاع السياسية والحضارية لكل عصر وكل ناحية، في معالجة تاريخها. وذلك أن كل فترة تتميّز عن غيرها، لما يحدث من تحوّلات في حياة المجتمع، وما ينشأ من تطوّرات في شتى المجالات، حسبما يتطلبه مبدأ العصرنة[3]. وفي هذا الصدد، يمكن القول إن بداية الألفية الثالثة أحسن مثال لذلك، حيث إن ظاهرة العولمة أخذت تمتدّ إلى كل المجالات، وأصبحت تسيطر على حياة الشعوب، وتتحكّم في مواقف العديد من الدول، في شتى المناسبات.

ومن نتائج هذا الاتجاه نحو العولمة، ما يشاهد حاليا من العمل على تكثيف سبل الاتصال بين الشعوب، وتوثيق العلاقات بين بعضها، وتيسير طرق التعرّف على حضاراتها، مما يحتلّ مكانة ملحوظة في كثير من المواقف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، التي تتمثل بخاصة فيما يدعى بحوار الحضارات، وحوار الديانات، ويدعو إلى الاهتمام بهذه الجوانب في كتابة تاريخ الجزائر، خلال مختلف العصور.

2. الجزائر قبل العصر الوسيط:

لقد عرفت الجزائر، مثل غيرها من أقطار الحوض المتوسطي، وجود الإنسان منذ أقدم عصور ما قبل التاريخ، وظهور التجمّعات البشرية التي تأثرت بالحضارات الإنسانية القديمة، وتفاعلت معها في مختلف المجالات الفكرية والدينية والاقتصادية والاجتماعية والفنية[4].

3. حول ضرورة تناول الأحداث في حيزها الزمني، انظر: قسطنطين زريق، المرجع السابق، ص118-129.

4. انظر: محمد الطاهر العدواني، الجزائر في التاريخ، ج1، الجزائر منذ نشأة الحضارة، عصور ما قبل التاريخ وفجر التاريخ، ص37-46.

ويتضح ذلك جليا من خلال ما تمّ اكتشافه بالجزائر من الآثار التي تنتمي إلى تلك العصور[5]. ويمكن القول باختصار شديد، أن إنسان ما قبل التاريخ عرف المعتقدات الوثنية، فعبد الكواكب والجبال والأنهار والمغارات، واعتبرها مقرا للآلهة، وشيّد التماثيل والأصنام، مما أدى إلى نشأة ديانات وثنية متشابهة في بعض الجوانب الاعتقادية، ومختلفة في جوانب أخرى.

وفي العصر القديم، ازدهرت الديانات الوثنية، وعظم شأنها، وامتازت بأهمية دورها في حياة الشعوب، وسيطرتها على السلطة السياسية. ويتمثل ذلك بخاصة في تأليه الملوك وتقديسهم.

هذا ويعتبر ظهور الديانات السماوية منعرجا هاما في حياة الشعوب، ولاسيما في الحوض المتوسطي، حيث إنها انتقلت، في مجال معتقداتها، من طور عبادة الآلهة من خلال تقديس القوى الكونية وأرواح الأجداد وغير ذلك، إلى عبادة خالق الكون المنزّه عن التجسيم وعن صفات المخلوقات.

والجدير بالملاحظة أن التيارات الدينية، سواء الوثنية أو السماوية، طبعت الحضارات الإنسانية، في مختلف عصورها، بطابعها الخاص، وأن تطوّر المعتقدات كان له أثر بالغ الأهمية في نموّها الحضاري، وبخاصة في مجال الفن المعماري والثقافة والصناعات. كما أن العلاقات بين الشعوب، الناجمة عن النشاطات التجارية أو الصراعات المؤدية إلى هجرة بعض الفئات إلى أقطار أخرى، ساهمت في انتشار بعض الديانات في مختلف أنحاء الحوض المتوسطي.

وفي هذا الصدد، يبدو أن ديانة الفينيقيين حظيت بانتشار واسع النطاق في شمال إفريقيا، خلال العصر القديم، لما كان للوجود الفينيقي بها من أثر فعّال في مختلف المجالات الحضارية، ولاسيما في المجال الاعتقادي[6].

5. انظر: محمد الطاهر العدواني، المرجع السابق، ص 145–250.

6. انظر: محمد البشير شنيتي، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني، ص 257–265.

والظاهر أن الديانة اليهودية لم تحظ بإقبال ملحوظ بالقطر الجزائري، لما امتازت به من تقوقع وازدراء للشعوب الأخرى[7]. أما المسيحية، فإنها عرفت نجاحا محدودا في مدن إفريقية وبعض مدن المغرب الأوسط[8]. ومن أسباب قلة انتشارها في أغلب مناطق المغرب الأوسط، تحالف المذهب الكاثوليكي مع السلطات الاستعمارية الرومانية والبيزنطية، الأمر الذي أدّى تارة إلى انضواء مقاومة الأهالي تحت راية المذهب الدوناتي المعادي للكاثوليكيين[9]، وتارة أخرى إلى تمسّك الكثير من سكّان الأرياف وقبائل البدو بالديانات الوثنية[10].

ولما ظهر الإسلام بتعاليمه السمحة، ودعوته للمساواة بين جميع أفراد المجتمع، كان القطر الجزائري عبارة عن فئات متباينة المعتقدات والانتماءات الفكرية والثقافية، لا يجمع بينها عنصر من عناصر تأسيس الدول كالدين و اللغة والتاريخ المشترك. فكان من فضائل الإسلام على هذه البلاد أن يقطع بها خطى بعيدة نحو الوحدة والازدهار.

3. الجزائر قبيْل الفتح الإسلامي:

كان البيزنطيون قد بسطوا نفوذهم على المناطق الشمالية بإفريقية، وكانت عاصمتهم بها مدينة قرطاجة. وكانت بلاد إفريقية تشمل أيضا الشرق الجزائري، الذي عرف كذلك باسم نوميديا. أما الجزائر الوسطى والغربية، التي كانت تمتدُّ غربا إلى وادي مَلْوِيَة، فإنها كانت تعرف باسم موريطانيا القيصرية. وكانت موريطانيا الطنجية تضمّ بلاد المغرب الأقصى.

7. حول اليهود في بلاد المغرب قبل الفتح الإسلامي، انظر: مسعود كواتي، اليهود في المغرب الإسلامي، ص 10-45.
8. حول ظهور المسيحية في إفريقيا الرومانية وعوامل انتشارها، انظر: محمد البشير شنيتي، المرجع السابق، ص 265-283.
9. انظر: محمد البشير شنيتي، المرجع السابق، ص 285-317.
10. انظر: Ch.-A. julien. Histoire de l'Afrique du Nord. I. pp. 263 - 76.

والجدير بالملاحظة أن نفوذ السلطة البيزنطية لم يفتأ يتقلص ويضعف، ولاسيما في نواحي موريطانيا القيصرية، حيث إن قبائل البربر البتر وزناتة أصبحت تسيطر على كثير من المناطق، مما جعل بعض المدن تفقد صلتها بقرطاجة، بينما حظيت مدن أخرى، مثل أجادير (تلمسان)، على البقاء في نفوذها، والحصول على وسائل حصانتها، وعلى حامية للدفاع عنها وردّ غارات القبائل البدو. ويبدو أن هذه المدن الأخيرة هي التي كانت تأوي جالية، قد يتفاوت عددها حسب المناطق، من الأفارقة، وهم أحفاد الأهالي الذين شملتهم حركة الرومنة، والعجم النصارى. ويشهد على ذلك ما رواه البكري من تواجد كنيسة للنصارى بتلمسان إلى بداية عهد المرابطين، في أواسط القرن الخامس الهجري، الحادي عشر للميلاد[11].

هذا ويصعب تحديد الانتماء الديني والعرقي لسكّان المدن والقرى بالجزائر قبيل الفتح الإسلامي. أما سكّان الأرياف فإنهم كانوا ينتمون إلى عناصر البربر البتر وزناتة، وبخاصة في موريطانيا القيصرية، والبرانس في نوميديا، وصنهاجة في منطقة القبائل الصغرى والكبرى، وفي الصحراء.

أما الأوضاع السياسية، فإنها كانت تمتاز بتضاؤل نفوذ السلطة البيزنطية في أغلب المناطق، وصعوبة حماية المدن من غارات قبائل البدو، وتفاقم الفتن بين المذاهب الدينية بالنسبة للنصارى، وتطاول قبائل البربر إلى تأسيس إمارات في بعض المناطق، مثل ناحية السرسو، التي لا تزال تشهد على ازدهارها آثار الجدّار قرب بلدة فرندة[12].

ويبدو أن بروز العديد من قبائل البتر وغيرهم إلى الساحة السياسية يعدّ أهمّ ميزة لهذه الفترة من تاريخ الجزائر، وأن ذلك سيكون له أثر بالغ الأهمية في أحداث الفتح الإسلامي.

11. انظر: البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، الجزائر، 1983، ص 76.

12. انظر: إبراهيم أحمد العدوي، الأمويون والبيزنطيون، القاهرة، 1963، ص 224–227.

الفتح الإسلامي وعصر الولاة

مشكل المصادر

يسود فترة الفتح الإسلامي لبلاد المغرب غموض كثير يرجع إلى أسباب عديدة. وأغلبها يدور حول نوعية المصادر المتوفرة لدينا وطريقة عرض الحوادث. ثم إن تدوين التاريخ، مثل غيره من العلوم، بدأ بعد هذه الفترة بحوالي قرن[13]، مما جعل جامعي الأخبار التاريخيـة، في القرن الثاني والثالث للهجرة، يعتمدون على روايات شفاهية. ولا شك أن الرواية الشفاهية معرضة للمبالغة في التقدير، ولوضع الأخبار لأغراض مذهبية. وقد نتج عن ذلك تضخم الحديث بصفة خاصة، مما أدّى إلى قيام حركة نقد الحديث ابتداء من القرن الثالث للهجرة. وبما أن التاريخ، في بداية تدوينه، كان يندرج ضمن الحديث، ويشكل بابًا من كتب الحديث يدعى باب المغازي والسير، فليس من الغريب أن يكون قد أصابه ما أصاب الحديث عامة من وضع وتضخم.

ويضاف إلى ذلك أن نظرية الناس للتاريخ في فترة نشأة هذا العلم، لم تكن علمية بأتم معنى الكلمة. وذلك أن الناس كانوا يولعون بالأخبار العجيبة، التي تثير انتباههم وتسليهم، وتتجاوب مع عواطفهم وميولهم، و لا يتحرجون من خلط التـاريخ بالقصص[14]، و من المبالغة والإسراف في تقدير أعداد الجنود والقتلى والأسرى وغير ذلك[15]. وقد نتج عن كل ذلك أن ما روي من الأخبـار حول الفتوح يحمل أحيانًا طابعًا أسطوريا أو قصصيا، ينبغي التفطن إلى ما قد يتضمنه من غلوّ ومبالغـة، واستبعاد كل ما وضع لأغراض مذهبية أو سياسية[16].

13. انظر: شاكر مصطفى، التاريخ العربي والمؤرخون، بيروت، 1979، ج1، ص 74–112.
14. ويلاحظ هذا، مثلاً، في كتاب فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم. انظر: شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج1، ص 361.
15. انظر: ابن خلدون، المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي، ج1، ص 362–367.
16. انظر: شاكر مصطفى، المرجع السابق، ج1، ص 375–376.

المرحلة الاستطلاعية

لم يمض أكثر من عشر سنوات على وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم حتى فتح المسلمون بلاد الشام والعراق ومصر وبرقة، وأصبحت الدولة العربية الإسلامية الفتية من أعظم دول العالم آنذاك. ولم يجد المسلمون أمامهم عدوًا أخطر من الأمبراطورية البيزنطية، التي كانت لا تزال تسيطر على مناطق واسعة من حوض البحر المتوسط، من بينها بلاد آسيا الصغرى واليونان وإسبانيا والمغرب وغيرها.

وكانت الفتوح الكبرى، التي حققها المسلمون في خلافتي أبي بكر وعمر، تتطلب الالتفات إلى تنظيم شؤون البلاد المفتوحة، وحل المشاكل الناجمة عن الوضع الجديد. فكان من الطبيعي أن يدخل نشاط الفتوح في مرحلة جديدة، تتمثل في الانتقال من عملية التوسع إلى عملية تدعيم السلطة الإسلامية وإرسائها على أسس قوية، واستيعاب حضارات الشعوب المفتوحة، ونشر الإسلام بينها. وعندئذ اقتصر نشاط المسلمين في مجال الفتوحات، على إرسال غارات استطلاعية في الناحية الجنوبية من بلاد إفريقية، قصد التعرف على تلك المناطق وعلى سكانها، والاطلاع على قوة الروم فيها.

أ. حملة العبادلة:

ويبدو أن انتصار المسلمين على الروم في الشام و مصر وبرقة، الذي أسفر عن طرد المحتلين من هذه المناطق وتحرير الأهالي وإسلام العديد من هؤلاء، قد قوبل بارتياح بربر إفريقية، وأثار قلق الروم ونصارى الأفارقة، وأن علاقات حسن الجوار قد عقدت مع بعض قبائل جنوب إفريقية. بل لا يستبعد أن الدعوة الإسلامية وجدت أنصارًا لها في تلك المناطق، وأعوانا يمهدون الطريق لفتح بلاد إفريقية، وتخليص الأهالي البربر من تعسف الروم. كما لا يستبعد أن بعض رجال قبائل البربر المجاورة، قد شجعوا فكرة امتداد الفتح الإسلامي إلى بلاد إفريقية، وتوجيه الغارات في اتجاه قرطاجة.

فكانت أولى الغارات الإسلامية، سنة 27 هـ / 647 م، تحت قيادة عبد الله بن سعد ابن أبي سرح، أخي الخليفة عثمان بن عفان من الرضاعة، في اتجاه قاعدة عسكرية تدعى سبيطلة، فتصدى لها جيش للروم يقوده البطريق جرجير. وكان اللقاء بين الجيشين قرب سبيطلة، فانتصر المسلمون في هذه المعركة وأصابوا كثيرا من الغنائم. وتعرف هذه الغارة بحملة العبادلة، لأن العديد من الصحابة وأبناء الصحابة شاركوا فيها، ومن أشهرهم عبد الله بن مسعود وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر، وكلهم يحملون اسم عبد الله.

ويبدو أن عبد الله بن سعد تردد في شأن مواصلة الزحف أو العودة إلى منطلق حركته بمصر، ولاسيما أن فتنة دبّتْ بين الجنود حول توزيع الغنائم. وقد استغلت بعض قبائل البربر بتلك المنطقة توقف الحملة بطلب الصلح مقابل دفع مقدار معيّن من المال سنويا[17]، فأجابهم عبد الله بن سعد بالقبول، وغادر منطقة سبيطلة بجيشه عائدا إلى مصر، وقد اتضح أن غزو بلاد إفريقية أمر هيّن، لضعف جيش الروم بها، نتيجة الأزمات السياسية والمذهبية المستمرة، كما اتضح أن الروم كانوا يعتمدون في مواجهة الجيش الإسلامي على عناصر أجنبية من المرتزقة، وأن البربر لم يساهموا مساهمة فعّالة في ذلك[18].

ب. معاوية بن حديْج:

ويبدو أن حركة الفتح في اتجاه إفريقية فترت بعض السنوات بسبب الهدنة التي عقدت إثر معركة سبيطلة. ثم كانت الفتنة الكبرى بعد مقتل عثمان، ونشبت الحرب بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، فركدت حركة الفتوحات إلى أن تمت البيعة لمعاوية. ولما عيّن معاوية بن حديْج واليًا على مصر، غزا إفريقية سنة 45 هـ / 665 م، وانتهت هذه الغارة

17. ويذكر ابن خلدون أن الروم لاذوا بالصلح «وشرطوا لابن أبي سرح ثلاثمائة قنطار من الذهب على أن يرحل عنهم بالعرب». انظر: العبر، ج.6، ص 216.

18. للمزيد من التفاصيل، راجع: إبراهيم أحمد العدوي، المرجع السابق، ص 229–231.

بالاستيلاء على بعض الحصون أهمها حصن جَلولا.

وتعدُّ هذه الغارة بمثابة انطلاق جديد للفتح، غير أنها لم تحقق توسعا ملحوظا للنفوذ الإسلامي في اتجاه شمال إفريقية. وفي سنة 50 هـ، رأى معاوية تعيين عقبة بن نافع قائدًا للجيش بإفريقية، وأقرّ معاوية بن حديج على ولاية مصر[19].

ج. عقبـة بن نافع:

لقد تـمّ تعيين عقبة قائدًا للجند الإسلامي بإفريقية، وأسندت إليه مهمـة مواصلـة العمليات الممهّدة للفتح. وفي هذا الصدد، يلاحظ فتـور حركـة الفتوحات الإسلامية شرقًا وغربًا، من أواخر خلافة عثمان إلى نهاية الفتنة الكبرى وبداية عهد معاوية، كان قد سمح للأمبراطورية البيزنطية باسترجاع عزيمة الصمود أمام غارات المسلمين، وجمع قواهم للدفاع عن أراضيها وعاصمتها بيزنطا. فكان على معاوية أن يعمل على جمع كلمة المسلمين والقضاء على الفتن وتنظيم شؤون الدولة وتجهيز الجند والأسطول. وفي سنة 50 هـ / 670 م، تـمّ إرسال حملـة لحصار بيزنطا برا وبحرا. غير أن هذا الحصار الأول باء بالفشل، فكان تعيين عقبة في تلك الظروف يهدف إلى نفس الغرض الرامي إلى إعـادة الكرّة من أجل استئناف الفتوحات شرقًا وغربًا.

والظاهر أن تعيين عقبة، الذي كان له قبل ذلك دور ملحوظ في فتح بلاد برقة، وإسناد مهمة تكثيف عمليات الاستطلاعات إليه بإفريقية، كان يندرج في إطار استراتيجية ترمي إلى هدف تحقيق انتصارات جديدة من جهة، وفتح جبهة قتال بالمغرب بهدف إرغام البيزنطيين على إرسال قوات برية وبحرية للدفاع عن قرطاجة وممتلكاتهم في شمال إفريقيا وجزيرة إيبيريا، وتخفيف ضغط قواتهم في منطقة بيزنطا، من جهة أخرى.

وقد أدرك عقبة أن الغارات الاستطلاعية قد أصبحت غير مجدية، لعدم استقرار

19. حول حملة معاوية بن حديج، انظر: إبراهيم أحمد العدوي، نفس المرجع، ص232–235.

الجند في قاعدة قريبة من مكان عمليات الفتح، و اضطرارها بعد كل حملة إلى العودة إلى مصر، وأن أول عمل ينبغي القيام به لإعطائها مزيدًا من النجاعة، هو تأسيس قاعدة عسكرية بإفريقية، تسمح باستقرار الجند، وتشكل مقرا لقيادته، ومنطلقًا للعمليات. فأمر بتخطيط مدينة القيروان، في إقليم قمونية، وتشييد مبانيها، فكان لهذا الإنجاز المعماري، الذي دام بضعة أعوام، أثر هامّ في تطور حركة الفتح[20].

والجدير بالملاحظة أن الخلافة الأموية كانت، في تلك الأثناء، تخوض حربًا كبرى في الجبهة الشرقية الشمالية. وذلك أن الجيش الإسلامي كان، بعد فشل حصاره لبيزنطا، عاصمة الأمبراطورية (50 هـ / 670 م)، يستعدّ لإعادة الكرة في اتجاه القسطنطينية. فكانت الجهود المبذولة في إفريقية تمهّد للقيام بحركة الفتح بها[21]. وفي سنة 55 هـ / 675 م، عزل عقبة بن نافع، وعوّض بأبي المهاجر دينار.

د. أبو المهاجر دينار:

كان أبو المهاجر دينار أحد موالي والي مصر مَسْلمَة بن مُخَلد الأنصاري، الذي عينه قائدًا لجند إفريقية لثقته به وبكفاءته السياسية. والظاهر أن معاوية راجع سياسته تجاه البربر، ورأى انتهاج سياسة جديدة، تهدف إلى العمل على مسالمة البربر البرانس، و وضع حد للعلاقات التي كانت قائمة بين هؤلاء والحكّام البيزنطيين. فكان على أبي المهاجر أن ينتهج سياسة مسالمة تجاه البرانس الأمر الذي كان يتطلب إقامة علاقات تتسم باللين والمداراة مع هؤلاء، والاستعداد لمواصلة عمليات الفتح حينما تسمح به الظروف.

ويبدو أن عقبة لم يرتض هذه الإستراتيجية الجديدة ولم يتفهمها، ولاسيما أن حركة الفتح بإفريقية كانت لا تزال في مرحلتها الاستطلاعية، و أن وضعيّة الجند بها لم تكن تشعر بالاطمئنان على أمنه.

20. حول تأسيس مدينة القيروان، انظر: إبراهيم أحمد العدوي، نفس المرجع، ص 236–238.
21. نفسه، ص 162–172.

والجدير بالملاحظة أن هذه الإستراتيجية الجديدة كانت تأخذ بعين الاعتبار ما استجدّ من التحولات السياسية في الصراع القائم بين المسلمين والبيزنطيين، وضرورة تكثيف الجهود في اتجاه فتح القسطنطينية، من جهة، و بين الخلافة الأموية والمذاهب السياسية الإسلامية المناهضة لها و بخاصة الشيعة والخوارج، من جهة أخرى. وكان من شأن فشل حصار القسطنطينية الأول، أنه ساهم في رفع معنويات الروم، وجعلهم يبذلون المزيد من الجهود من أجل تعزيز قواهم، والصمود أمام الفتح الإسلامي[22].

ثم إن البيزنطيين كانوا يعتمدون على طاعة أهالي ممتلكاتهم في شمال إفريقية، وبخاصة النصارى الروم والعجم والأفارقة وبعض قبائل البرانس، ويحاولون التقرب من هؤلاء وتحريضهم على التصدي للمسلمين، ويَعِدونهم بإمدادهم بالرجال والأسلحة والمال. أما قبائل البتر التي كانت ترتاد المناطق الجنوبية، سواء بإفريقية أو المغرب الأوسط، فإن كثيرًا منها كانت قد اضطرّت، منذ العهد الروماني إلى مغادرة الأراضي الشمالية الخصبة، وتجشم متاعب الحياة بفيافي شمال الصحراء والهضاب العليا، ومنها قبائل كانت تكِنُّ عداوة قديمة للبيزنطيين وحلفائهم. ويمكن القول إن انتصار المسلمين على البيزنطيين في معركة سبيطلة كان له صدى عميق بين كثير من تلك القبائل البربرية التي عانت من تعسّف الرومان والوندال والبيزنطيين، وأحيى في نفوسهم أمل استرجاع أراضي أجدادهم، وممتلكاتهم السالفة. ويبدو أن إستراتيجية عقبة كانت ترمي إلى العمل على توثيق علاقات الصداقة والتحالف مع هذه العناصر، بينما كانت سياسة أبي المهاجر تميل إلى كسب صداقة بعض حلفاء البيزنطيين من البربر البرانس، والاعتماد عليهم لتدعيم نفوذ المسلمين بإفريقية، والتصدي لعدوان البيزنطيين، واستئناف الغارات في ممتلكاتهم. فسلك هذا المسلك، وعامل البرانس معاملة حسنة، فاستمال بعضهم، من بينهم كسيلة، رئيس قبيلة أوربة، الذي اعتنق الإسلام، ومنح لأبي المهاجر ثقته وصداقته[23].

22. نفسه، ص 172–175.
23. نفسه، ص 239–242.

هذا وقد ورد في كثير من المصادر أن الفتح الإسلامي عرف توسعًا كبيرًا على يد أبي المهاجر، وأن هذا الأخير وصل بجيشه إلى ناحية تلمسان[24].

وقد سبقت الإشارة إلى ما في أخبار هذه الفترة من مبالغة وإسراف، و هذا الخبر من جملة ما يستبعد صحته، لأن مثل هذه العملية تتطلب إخضاع كثير من القبائل أو اعتناقها للإسلام، ولم ترد تفاصيل في كتب التاريخ، تثبت حصول ذلك فعلاً. والظاهر أن منطقة نفوذ المسلمين، في آخر ولاية أبي المهاجر، لم تتجاوز ناحية أوراس[25].

أما عقبة، فلم يهدأ له بال حتى تمكّن من إقناع يزيد بن معاوية بإعادته إلى إفريقية، وعزل أبي المهاجر، وذلك في سنة 62 هـ / 681 م.

هـ. عقبة بن نافع (ثانيا):

عاد عقبة إلى إفريقية وهو أشد ما يكون حنقا على أبي المهاجر، وعزما على الانتقام منه. وكان عقبة شديد الرغبة في منصب قيادة الجند، فلما عزل وعوض بأبي المهاجر، وهو من الموالي، اعتبر ذلك مذلة له بعد ما حققه من إنجازات وبذل من مجهودات. وسرعان ما أمر بتثقيف أبي المهاجر وكسيلة بالحديد، وأبقاهما في القيود يصحبهما معه أينما انتقل.كما أنه لم يرتض السياسة التي سلكها أبو المهاجر تجاه البربر البرانس، ونبذ كل ما أقامه هذا معهم من علاقات طيبة.

ثم قام عقبة بحركته الشهيرة قاصدا فتح المناطق الجنوبية من بلاد إفريقية، وتوسيع النفوذ الإسلامي في باقي أقطار المغرب، غير مكترث بقلة جنوده وكثرة البربر، أهل تلك المناطق، وغير آبه بخطر محاولات الروم المنتظرة لإثارة عداء البربر للمسلمين.

24. انظر: ابن عذاري، البيان المغرب، بيروت، دار الثقافة، ج.1، ص 28–29، ابن خلدون، العبر، ج6، ص 297.

25. لم يرد ذكر غارة أبي المهاجر إلى تلمسان وأسر كسيلة ثم إسلامه على يد أبي المهاجر في كتاب فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم، ص 265–267.

وقد تحدث قدماء المؤرخين والقصاص عن هذه الحركة، فذكروا تفاصيل عديدة، وتفننوا في تزيينها بالأخبار العجيبة والحكايات البطولية، التي تدعو إلى دراسة جديدة تعتمد على التفرقة بين ما هو تاريخي من الأخبار، وما هو أسطوري وأدبي، لا قيمة له من ناحية التاريخ ولا يعتدّ به في هذا المجال.

وذلك أن كثيرا من المصادر أوردت أن عقبة بدأ حركته بفتح بعض مناطق إفريقية، فأذلّ الروم في باغاية والمنستير وغيرهما من المدن والحصون. ثم توجه إلى المغرب الأوسط، ففتح تاهرت وغيرها، ثم توغل في بلاد المغرب الأقصى، فاستولى على طنجة، وفتح بلاد السوس الأدنى، حيث وصل إلى شاطئ المحيط، ثم ناحية السوس الأقصى وبلاد مسّوفة، ثم كرّ راجعا إلى إفريقية، بعد أن دوّخ مختلف أقطار المغرب، وقاتل من تعرض له من الأهالي وأباد كثيرا منهم[26].

ويعتقد بعض الباحثين أن هذه الروايات مبالغ فيها، وأن عقبة لم يجل في سائر هذه المناطق. فشك الكثير منهم، اعتمادًا على رواية ابن عبد الحكم، في وصول عقبة إلى منطقة طنجة، وكذلك السوس الأقصى، بل ذهب البعض إلى أنه من الصعب الجزم بامتداد حركة عقبة إلى ما وراء حدود المغرب الأوسط[27]. وعلى كل، فالذي لا مجال للشك فيه، هو أن عقبة غزا بعض المناطق في الأوراس والحضنة والزاب، و أنه، عند عودته من حركته هذه، مرّ بناحية بسكرة، حيث اصطدم بجموع من البربر والروم، فلقيهم بشجاعة نادرة، رغم قلة من كان معه من الجند وكثرة المهاجمين، وقتل بموضع يدعى تاهودة مع من كان معه، وذلك في سنة 64 هـ / 683 م.

ويروى أن كسيلة كان قد فرّ من أسره قبل المعركة، و حشد الجموع من قومه، واستعان بالروم، وقاد العملية التي أسفرت عن استشهاد عقبة ورفاقه. وقد ترتب عن هذه الكارثة نتائج خطيرة حيث إن كسيلة استولى على القيروان،

26. انظر: ابن عبد الحكم، نفس المصدر، ص 267–269، ابن عذاري، المصدر السابق، ج.1، ص 23–30، ابن خلدون، العبر، ج6، ص 297–299.

27. Cf A.Laroui, op. cit., p. 78; Ch.-A. Julien, op. cit., 1, p. 17

وامتدّ نفوذه إلى كل المناطق التي فتحها المسلمون قبل ذلك بإفريقية، وأصبح يرأس دولة محالفة للروم، تقوم مقام حاجز بين هؤلاء والمسلمين. كما أن الجيش الإسلامي تقهقر إلى حدود ليبيا، حيث أخذ يجمع قواه من جديد وينتظر المدد من دمشق[28].

و. زهير بن قيس البلوي:

لما حدثت كارثة تاهودة، كان يزيد بن معاوية مشغولا بإخماد ثورة الحجاز، التي قامت عقب مقتل الحسين بن علي بكربلاء، سنة 61 هـ/680 م، وتوفي وجيشه لا يزال يحاصر مكة المكرمة، سنة 64 هـ/ 683 م. ثم كانت الفتنة الصغرى، وثورة عبد الله بن الزبير، فانشغل مروان بن الحكم بالعمل على مواجهة خطرها، واسترجاع المناطق المؤيدة لابن الزبير، وبدأ بمصر لأهمية موقعها في إستراتيجية الصراع بين الخلافة الأموية والأمبراطورية البيزنطية، وكذلك في الصراع الداخلي بين الأمويين والزبيريين. وحاول والي مصر الجديد، عبد العزيز بن مروان، أن يعالج مشاكل إفريقية بما توفر لديه من إمكانيات، فأمر زهير بن قيس بضبط الأمور في برقة، وأمدّه بما أمكن من الرجال والعتاد للتوجه إلى إفريقية.

ثم زحف زهير بن قيس، بما اجتمع لديه من جنود، إلى إفريقية. فلقي كسيلة وقومه بقرية ممس، قرب القيروان، فقتل كسيلة أثناء المعركة وانهزم أتباعه، وذلك سنة 67 هـ / 680 م. ويبدو أن زهير ابن قيس لم يكن لديه قوات كافية للتصدي لما كان يتوقع حدوثه من هجمات الروم وحلفائهم من الأفارقة والبربر. فرأى من الحكمة، بعد أن حقق الانتقام لمقتل عقبة ورفاقه، أن يغادر القيروان ويعود إلى برقة أو مصر.

28. انظر: ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 229؛ ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص 30–31؛ إبراهيم أحمد العدوي، المرجع السابق، ص 244–248؛
A Laroui, op. cit., p. 78 ; Ch.-A; Julien, op. cit., II, pp. 17-20

وكانت ثورة عبد الله بن الزبير، آنذاك، لا تزال قائمة بالحجاز والعراق، فكانت الأوضاع تقتضي التعجيل بالتصدي لها، وإرجاء شؤون إفريقية إلى أجل لاحق[29].

وكان خطر الروم لا يزال مخيما على ما بقي تحت سلطة المسلمين من بلاد المغرب. ففي تلك الأثناء قدم أسطول بيزنطي من صقلية، وشنّ غارة بحرية على ساحل برقة. فنهب الروم وسبوا، وحملوا الغنائم والسبي إلى مراكبهم. و يبدو أن خبر هذه الغارة وصل إلى زهير بن قيس و هو على أهبة العودة إلى المشرق، فسلك طريق البحر آملاً إدراك سبي المسلمين، و لحق بالروم قرب درنة، ومعه حوالي سبعين فارسًا، فلم يراع كثرة الأعداء، ودفعه حماسه إلى مهاجمتهم، فقتل وكل من كان معه[30].

وهكذا يتضح أن البيزنطيين كانوا على علم بصعوبة موقف الأمويين بعد وفاة يزيد، واغتنموا الفرصة، فأخذوا يغيرون على سواحل مصر وبرقة وغيرها من البلاد التي فتحها المسلمون، قصد استرجاع ما أمكن من ممتلكاتهم السابقة.

وكانوا قد قاموا قبل ذلك بدور حاسم في حوادث إفريقية، و قدموا للبربر المساعدة الفعالة في حادثة تاهودة، ثم عملوا على حماية إفريقية بمهاجمة برقة وصدّ المسلمين عنها، راجين تثبيط عزائم هؤلاء وإبعادهم نهائيا عن المغرب. ولم يتمكن الأمويون، آنذاك، من التصدي لهذا العداء لانشغالهم بثورة ابن الزبير. فركنوا إلى مداهنة البيزنطيين ومسالمتهم. ولم يتحقق ذلك إلا سنة 73 هـ / 692 م، حيث قتل عبد الله بن الزبير بمكة، وانتهت حركته.

وعندئذ قرّر عبد الملك بن مروان التفرغ لشؤون إفريقية، و العمل على فتحها وطرد الروم منها. فعيّن حسّان بن النعمان الغسّاني قائدًا على الجند الإسلامي الذي عزم على إرساله إليها[31].

29. للمزيد من التفاصيل، راجع: إبراهيم أحمد العدوي، المرجع السابق، ص 248–249.
30. انظر: ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص 33.
31. انظر: ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 269، إبراهيم أحمد العدوي، ص 250–251.

فتح المغرب

تمتاز المرحلة الاستطلاعية، التي سبق عرضها، بأن نشاط المسلمين فيها كان عبارة عن عمليات محدودة، سواء من حيث الزمان أو من حيث المكان، وكذلك فيما يخص أعداد الجنود المشاركة في كل منها. والظاهر أن كل ما ورد في شأن ذلك مما يوهم مزيدًا من الأهمية في هذه المجالات مبالغ فيه، وينبغي إعادة النظر في تقديره.

وذلك أن الغرض من تلك العمليات لم يكن، خلال هذه الفترة كلها، تنظيم حركة شاملة تستهدف فتح بلاد إفريقية كلها أو المغرب بأسره. وإنما كان ينحصر في إرسال سرايا استكشافية، يعهّد إليها بالتسرب في المناطق المجاورة للحدود، ومحاولة التمركز فيها لتوسيع رقعة البلاد الإسلامية. والدليل على ذلك أن الجيوش الإسلامية لم تستغل انتصاراتها في سبيطلة وجالولا وغيرهما، بمواصلة الزحف وطرد الروم من إفريقية، ولم توجّهْ نشاطا مكثفا ضد الروم، أيام ولاية أبي المهاجر وعقبة وزهير بن قيس، لما سبق شرحه من خلال دراسة الأوضاع السياسية العامّة للعالم الإسلامي، وتطور صراعه مع الأمبراطورية البيزنطية. فكان نشاط المسلمين، في هذه الفترة كلها، عبارة عن حركة مَدّ وجزر، لم تتجاوز بلاد الأوراس والزاب غربًا، ولم تتوغل في المناطق الشمالية بإفريقية. والظاهر أن كل ما أورده المؤرخون القدماء من امتداد إلى قرطاجة شمالاً، أو إلى المغرب الأقصى غربًا، لا يمكن الأخذ به، لما يترتب عن ذلك من تناقضات وغموض في عرض تاريخ المغرب، ولما تكتسيه تلك الروايات من طابع قصصي وأسطوري يتنافى مع المنهجية العلمية في معالجة التاريخ.

ويتضح أيضا مما سبق ذكره أن المسلمين واجهوا، أثناء الفترة الاستطلاعية هذه، مقاومة من طرف البيزنطيين و الأفارقة وحلفائهم من البربر، زادت عنفا كلما قويت الفتن الداخلية في الدولة الإسلامية. فلم يتمكن المسلمون من القضاء عل تلك المقاومة لضعف إمكانياتهم وقلة جنودهم، وبعْدِ مركز تموينهم في مصر أو برقة، ولترددهم في انتهاج سياسة واضحة المعالم تجاه البربر.

هذا، وتذكر بعض الروايات أن عناصر من البتر قد اعتنقت الإسلام وانضمت إلى الجند الإسلامي، وبخاصة أثناء حركة زهير بن قيس إلى إفريقية، مما يسمح بالتفكير في وجود صراع قديم بين البتر والبرانس، واستعداد أحد العنصرين على مساعدة المسلمين لمواجهة العنصر الآخر[32].

وعلى كل، فيبدو أن أنجع سياسة في فتح المغرب كانت تقتضي القضاء على مقاومة الروم وحلفائهم، واستمالة معظم الأهالي من البربر إلى الإسلام، بانتهاج سياسة مرنة تجاههم. وهذه السياسة هي التي سلكها أبو المهاجر، فيما قبل، وحسّان بن لنعمان، فيما بعد.

أ. حسّان بن النعمان:

لقد عنيَ عبد الملك بن مروان بشؤون إفريقية، فعيّن قائدا ماهرًا من أهل الشام، وهو حسّان ابن النعمان الغسّاني، وأرسله على رأس جيش وافر العدد، وطلب من أخيه عبد العزيز بن مروان، والي مصر، أن يزوده بكل ما يحتاج إليه من عتاد ومؤن ومال.

فقدم حسان إلى إفريقية سنة 73 هـ / 692 م، ونزل طرابلس حيث اجتمع إليه كل من غادر بلاد إفريقية من المسلمين ومن انضمّ إليهم من البربر. و واصل سيره نحو الشمال، فاسترجع المناطق التي فتحها المسلمون من قبل. ثم توجه نحو قرطاجة، فحاول الروم أن يصدوه عنها، ولكنهم فشلوا في محاولتهم، واضطرّوا إلى تسليم المدينة صلحًا، سنة 75 هـ / 694 م[33].

ثم أرسل حسّان السرايا لفتح الحصون والمدن الواقعة على الساحل، وتابع إخضاع مناطق إفريقية التي كان يوجد فيها الروم والأفارقة و البربر البرانس.

ثم واصل حسّان سيره في اتجاه منطقة أوراس، وكان انهزام كسيلة وجماعته من البرانس، أثناء حركة زهير بن قيس، قد فسح المجال لقبيلة

32 انظر: إبراهيم أحمد العدوي، المصدر السابق، ص 245.

33 انظر: إبراهيم أحمد العدوي، نفس المصدر، ص 251–252.

من بدو زناتة، تدعى جراوة، فبسطت نفوذها في المنطقة تحت قيادة امرأة تعرف باسم الكاهنة، التي نجهل الكثير عنها. وقد ذكر البعض أنها كانت على الديانة اليهودية. غير أن ما ورد في أغلب المصادر يرجح الاعتقاد أنها كانت تدين بطقوس الديانة الوثنية، المتمثلة في أعمال التكهّن والسحر، وأن علاقات وثيقة كانت تربط بين قومها وبعض العناصر من الروم والأفارقة التي قاومت الفتح الإسلامي[34].

ولما علمت الكاهنة بتوجّه جيش حسّان إلى منطقتها، لم تنتظر قدومه بل بادرت باقتحام مدينة باغاية، وطردت أهلها من الروم ومن لم تثق بهم من الأفارقة، وخرّبت المدينة لئلاّ يعتصم بها حسّان. ثم واصلت سيرها تجاه الشرق، ولما قربت من وادي مسكيانة، التقى جيشها بجيش حسّان، وكان اللقاء شديدًا، فانهزم المسلمون، وتراجع حسّان ومن معه إلى ما وراء طرابلس من بلاد برقة[35].

وكان الروم قد تأثروا كثيرًا بسقوط قرطاجة بين أيدي المسلمين. فأرسلوا، في تلك الأثناء، أسطولاً قويا تحت رئاسة البطريق يوحنا، فلم يلاق أية صعوبة في استرجاع المدينة، إذ أن حسّانا كان قد تراجع بجيشه إلى برقة بعد هزيمته على وادي مسكيانة. فلم يجد الروم بقرطاجة إلا حامية لا طاقة لها بمدافعتهم، فاحتلوا المدينة سنة 76 هـ / 695 م، وعاملوا من كان بها من المسلمين معاملة قاسية. وهكذا، كانت مقاومة الكاهنة لحسّان قد أفادت البيزنطيين، إذ أنها مكنتهم من العودة إلى قرطاجة، واسترجاع سلطتهم على معظم مناطق إفريقية الشمالية[36].

34. انظر: ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 270–271؛ ابن خلدون، العبر، ج7، ص 17؛ إبراهيم أحمد العدوي، المرجع السابق، ص 253–254.

35. انظر: ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص 35–36؛ إبراهيم أحمد العدوي، المرجع السابق، ص 254–255.

36. انظر: إبراهيم أحمد العدوي، نفس المرجع، ص 256.

وعندئذ، أدرك المسلمون أن فتح إفريقية كان مرتبطا ارتباطا وثيقا بالصراع الكبير القائم بينهم و بين الأمبراطورية البيزنطية، و أن لا راحة لهم، سواء في برقة أم في إفريقية أو غيرها من الأقطار المفتوحة، إلا بالتغلب على الروم في البحر، مثلما تغلبوا عليهم في البرّ. فأمر عبد الملك بن مروان بتدعيم الأسطول الإسلامي، و عهد إليه بالتصدي للأسطول البيزنطي. ثم كانت المعركة الحاسمة بين الأسطولين، وكان النصر للمسلمين، فبسطوا نفوذهم على البحر المتوسط[37].

وكذلك أمر الخليفة الأموي بإرسال المساعدات إلى حسّان، الذي كان مستقرا ببرقة، ولما استكمل هذا الأخير عدته، أعاد الكرّة نحو إفريقية، وكانت الأوضاع فيها قد تغيرت تغيرًا كبيرًا لصالح المسلمين. وذلك أن الكاهنة كانت قد أمرت أتباعها بإحراق الغابات وإفساد المزارع وتخريب القرى، في نواحي إفريقية الجنوبية الخاضعة لسلطتها، ظنّا منها أن ذلك من شأنه أن يثبّط عزيمة المسلمين، ويضع حدا لرغبتهم في الاستيلاء على إفريقية. وكانت تلك الأراضي كثيرة الغابات، غنية بحبوبها وأشجار الزيتون وغير ذلك. ولا شك أن سياسة تخريب الزراعة هذه بعثت الرعب والهلع في نفوس الأهالي من البرانس والأفارقة وغيرهم، وجعلتهم ينظرون إلى الجند الإسلامي نظرة جديدة، ويرغبون في قدومه لإنقاذ البلاد من الدمار والخراب.

وهكذا، كان استقبال أهالي جنوب إفريقية لحسّان وجنده يختلف تماما عن ذي قبل، فأطاعه أهل قابس من الأفارقة، وكانوا قبل ذلك يتحصنون من الجند الإسلامي. كما أطاعته قفصة وبلاد الجريد، ودخلت في حمايته.

ثم قصد إلى قرطاجة وحاصرها حصارًا شديدًا، وعندما أراد المسلمون اقتحامها، فاوضهم الروم في تسليم المدينة، ووافقوا على ذلك، ولكنهم غادروها ليلاً، حاملين أموالهم ونفائسهم. ولما دخلها المسلمون لم يجدوا فيها إلا قليلاً من سكانها الفقراء والعجزة (سنة 78 هـ / 697 م).

37 انظر: إبراهيم أحمد العدوي، نفس المرجع، ص 258، Ch.-A. Julien, op. cit.pp. 21

فأمر حسّان بتخريب المدينة لئلاّ يعود إليها الروم، ووجه عنايته إلى توسيع مدينة تونس، وأنشأ بها دار صناعة لبناء السفن[38].

ثم واصل حسّان نشاطه، فتوجّه إلى المناطق التي عاث فيها أتباع الكاهنة فسادًا، ففتحها. وكانت الكاهنة قد ضعف شأنها، و انفضّ الناس من حولها، فألحق بها هزائم كبرى، ولقيت حتفها أخيرًا في جبال أوراس (أواخر سنة 81 هـ / 700 م – 82 هـ / 701 م). وكان لأعمالها التخريبية، التي دامت خمس سنوات، نتائج وخيمة في المجال الاقتصادي، إذ أنها جعلت من تلك لمناطق الخضراء أراضي جرداء، لا ينبت فيها شجر، ولا تنتج شيئًا[39].

وبهذا، تمّ فتح معظم مناطق إفريقية بصفة نهائية، وانتهت المقاومة التي تعرّض لها الفتح الإسلامي في هذه البلاد. واستقرّ حسان بعد ذلك بالقيروان، فبذل جهودًا كبرى لتنظيم شؤون البلاد، وأقام الدواوين، وضرب السكة، وفرض الخراج على أهل الذمة[40]. فانتظمت الأمور، وانتشر الأمن بعد أن كانت الفوضى ضاربة أطنابها في كل مكان.وفي أواخر سنة 85 هـ / 704 م، عزل حسان، فعاد إلى دمشق، ونصب مكانه موسى بن نصير.

ب. موسى بن نُصَيْر:

كان لحسّان بن النعمان الفضل في تحقيق فتح إفريقية، و إرساء قواعدها الإدارية والاقتصادية، وبعث الطمأنينة بين السكان. وقد اقتنع الأهالي، من مختلف الفئات الاجتماعية، بضرورة احترام النظام الجديد لما تعهّد به من حماية أهل الذمة، وضمان كرامة الإنسان، وإقامة العدل، و إقرار المساواة في الحقوق و الواجبات بين المسلمين في مختلف الأجناس.

38. انظر: إبراهيم أحمد العدوي، المرجع السابق، ص258–260.

39. انظر: إبراهيم أحمد العدوي، المرجع السابق، ص254–257.

40. انظر: ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص38؛ عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 219–220؛ إبراهيم أحمد العدوي، المرجع السابق، ص260–261.

وكان حسّان قد سوّى بين العرب والبربر في الجند، وأسند بعض المناصب السامية إلى البربر،كما ضمّ إلى الجند عددًا كبيرًا منهم. فأصبحوا يساهمون أيضًا في فتح المغرب[41].

والجدير بالملاحظة أن فتح إفريقية قد أحدث تحولات هامّة في المجالات الاجتماعية والاقتصادية. وذلك أن ما نتج عن ذلك من انهيار سلطة الروم وأنصارهم وحلفائهم بها، وهجرة الكثير منهم إلى أقطار أخرى، قد ترك فراغا سياسيا فتح الباب لكل ما كان ساكنًا من ضغائن وأحقاد قديمة بين مختلف الفئات الاجتماعية.

ويبدو أن جانباً كبيرًا من هذا الصراع كان يدور حول الأراضي الخصبة التي كان يملكها العجم منذ عهد الرومان، بعد أن طردوا منها الأهالي الأصليين. والظاهر أن حياة أولئك العجم أصبحت مهددة في بوادي إفريقية، وأنهم اضطروا إلى الالتجاء في الحصون والمدن.وقد أشار ابن خلدون أن موسى بن نصير أمر بنقل العجم من الأقاصي إلى الأداني[42]. وقد يكون هذا الإجراء نتيجة لما تعرّض له كبار الملاّك، من هؤلاء العجم، من خطر هجوم فئات من البربر على مزارعهم وطردهم منها ونهبها. كما تشير كثير من المصدر إلى اعتناق بعض قبائل البربر للإسلام منذ أول الفتح، وانضمامها إلى الجيش الإسلامي.

والغالب على الظن أن تلك القبائل نالت حظا وافرًا من المزارع التي تركها العجم. أضف إلى ذلك أن قبائل أخرى نزعت إلى الغرب فراراً من المسلمين، مما جعل التوزيع السكاني يتغير بصورة محسوسة في هذه الفترة.

فلما قدم موسى بن نصير إلى إفريقية كانت المقاومة قد انتهت في هذه المنطقة. وكانت الأوضاع الاجتماعية قد عرفت تحوّلاً كبيرًا، إذ أن معظم قبائل البربر لم تتخذ موقفًا عدائيا ضد المسلمين، فصالحهم بعضها، وأسلم البعض الآخر.

41. انظر: إبراهيم أحمد العدوي، المرجع السابق، ص 260–261.
42. عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 220.

وواصل موسى بن نصير نشاط الفتح في اتجاه المغرب الأوسط، فلم يتعرّضْ لأية مقاومة، بل صالحه أهل المدن، راغبين في مسالمته وحمايته. كما أن قبائل البدو قدمت له طاعتها، وأسلم الكثير منهم، وبخاصة مَنْ كانوا على دين الوثنية، فأخذ منهم الرهائن وضمها إلى الجند.

ثم فتح موسى بن نصير المغرب الأقصى بنفس الطريقة، و استولى على طنجة، عاصمة المنطقة، وترك فيها حامية قوية، تشمل ما اجتمع لديه من رهائن البربر، ثم عاد إلى إفريقية[43].

هذا وقد أفاضت المصادر التاريخية في ذكر السبي و وفرة الغنائم التي عاد بـها موسى بن نصير، وبالغت في تقدير عددها[44]. ولا شك أن ذلك الغلوّ في التقدير راجع إلى ما سبق ذكره من ميل الرواة إلى حشو أحاديثهم بالغرائب والأخبار المثيرة للإعجاب.

ولم تـأت سنـة 92 هـ / 711 م حتى تـمّ فتح المغربيْن الأوسط والأقصى، وشرع المسلمون في فتح الأندلس، فساهم البربر مساهمة كبرى في ذلك. ويلاحظ أن المسلمين اكتفوا، في هذه الفترة، ببسط سلطتهم على المدن والقواعد العسكرية الهامّة، وتركوا للبوادي وقبائل البدو نظمها التقليدية. فنتج عن هذه السياسة المرنة، التي وفرت على المسلمين كثيرًا من المتاعب والمشاقّ، انتشار الأمن والطمأنينة في البلاد.

43. انظر: ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص 42.
44. انظر: ابن عذاري، نفس المصدر، ج1، ص 42-43.

عصر الولاة

عصر الولاة

أ. انتشار الإسلام في المغرب:

لقد كان الفتح الإسلامي لبلاد المغرب يكتسي، بالدرجة الأولى، طابعًا دينيًا، بينما كان قدوم الفنيقيين، قبلهم، يمتاز بطابعه التجاري، واحتلال الرومان ومن خلفهم من الوندال والبيزنطيين، يحمل طابعًا عسكريا واستيطانيا. وبعبارة أخرى فإن المسلمين، عندما فتحوا المغرب، كانوا يهدفون، قبل كل شيء، إلى نشر الإسلام وقيمه السامية بين الأهالي، والقضاء على الديانات الوثنية، فكانوا لا يحاربون إلا من كان كافرًا ورفض الدخول في الإسلام، أو من أبى مصالحتهم، إذا كان على دين اليهودية أو النصرانية.

وكان قادة الجند الإسلامي يعهدون إلى بعض العلماء، ومن كان لهم علم بالدين، بتعليم الأهالي مبادئ الإسلام وأحكامه الأساسية. ويلاحظ أن هذا التعليم كان له أثر محدود، لما كان يواجه من عوائق ترجع إلى صعوبة الاتصال بسكان القرى والمناطق الجبلية والنائية، بالإضافة إلى العائق اللغوي. غير أن أثر هذه العوائق كان أخفّ في المدن والقرى المجاورة لها لما كان يقع فيها من اتصال بين الأهالي والعرب، من جند وتجار ورجال العلم.

ومن العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام بين البربر، بساطة العقيدة الإسلامية، ودعوته إلى القيم السامية، من مساواة وعدل وإحسان وتضامن وعطف على الفقراء والعبيد. فلا غرابة أن يعتنق هؤلاء الدين الجديد لأول اتصال به، وإن كان انتسابهم إليه، في الأول، سطحيا وغير قائم على معرفة قوية، في كثير من الأحيان. إلا أن الشعور الديني لم يفتأ يزداد قوة وعمقا، بقدر ما تعددت فرص الاحتكاك بالمسلمين العرب، وبقدر ما انتشر بينهم تعليم الدين واللغة العربية.

ومن أهمّ عوامل سرعة انتشار الإسلام بالمغرب ما عرفته المسيحية، قبل ذلك، من فتن وحروب دينية، واضطهاد لبعض المذاهب من طرف الحكام، الأمر الذي جعل كثيرًا من الأهالي يعرضون عن المسيحية أو يكتفون بانتماء رمزي إليها، من دون أن يمارسوا طقوسها بصفة منتظمة، ومن دون أن يتفهّموا أسرارها. ثم إن الإسلام لم يُلغ ما ورد في الديانات السماوية السابقة، بل جاء مصححًا ومتمما لها. فكان اعتراف الإسلام بصحة هذه الديانات في نصوصها الأصلية، واشتمال القرآن على كثير من قصص الرسل والأنبياء، وتعرُّضه لكثير من المسائل الاعتقادية، وتناوله إياها بطريقة منطقية سليمة، مما يفسّر دخول معظم الأهالي في الإسلام، خلال هذه الفترة، طوعًا وعن قناعة ورغبة صادقة.

هذا وقد تمسك بعض النصارى واليهود بديانتهم، ولاسيما في المدن، فلم يصبهم أذى، بل كانوا يتمتعون بحماية المسلمين، مقابل أدائهم لضريبتي الجزية والخراج. وبقيت هذه الفئات متواجدة في كثير من أنحاء المغرب، مما يدل على روح التسامح التي سادت هذه البلاد خلال الحكم الإسلامي[45].

ب. التنظيم الإداري والمالي:

بدأ التنظيم الإداري والمالي في عهد حسان بن النعمان، الذي أنشأ الدواوين، وبخاصة ديوان الجند وديوان الخراج. والظاهر أنه أبقى استعمال اللغة اللاتينية في الشؤون الإدارية، لانتشارها آنذاك في المدن، ولكنه أضاف إلى جانبها اللغة العربية، ولاسيما في القيروان، حيث كانت الجالية العربية وافرة العدد.

وبعد حسان أصبحت بلاد المغرب ولاية مستقلة عن مصر، فكان موسى بن نصير أول والٍ على إفريقية وأقطار المغرب الأخرى التي تمّ فتحها في عهده. وعيّن موسى بن نصير في المدن الرئيسية عمّالا تنحصر مهمتهم في جباية الضرائب، والسهر على أمن السكان.

45. انظر: Laroui, L'histoire du Maghreb, un essai de synthèse pp. 79- 80.

فكان له عمّال في كل من تونس وقابس وطرابلس وطبنة وتلمسان وطنجة. والغالب على الظن أن سلطة الوالي وعماله كانت أنفذ في المدن منها في القرى والأرياف، وأنها كانت لا تتجاوز تقريبا المناطق التي كانت من قبل تحت سلطة البيزنطيين. أما المناطق الأخرى، فيبدو أنها بقيت تتمتع بنظمها التقليدية، وتشمل بلاد السهوب والنواحي الجنوبية بالمغرب الأوسط، ومعظم نواحي المغرب الأقصى.

وقد أقبل البربر بصفة جماعية على الإسلام أثناء خلافة عمر بن عبد العزيز (99-101 هـ)، التي ساد فيها العدل والتسامح والمساواة. غير أن نجاح الدعوة الإسلامية قد أدى، من جهة أخرى، إلى نقص ملحوظ في موارد بيت المال، حيث إن عدد أهل الذمة تضاءل بصفة ملحوظة وأصبحت ضريبة الخراج لا تشكل مصدرًا هامًا لأموال الدولة، الأمر الذي دفع بعض ولاة بني أمية إلى إجراء إصلاح على النظام الجبائي، بفرض ضريبة الخراج على الأهالي المسلمين في البلاد المفتوحة. ويبدو أن هؤلاء قد استاؤوا من هذا الإجراء، واعتبروه إهانة لهم، إذ أنه جعلهم في منزلة أهل الذمة. والظاهر أن ما حدث من محاولة تعميم توظيف الخراج على الأهالي المسلمين، ابتداء من ولاية يزيد بن أبي مسلم، كان على نطاق محدود، حيث إن ولاية إفريقية شهدت، منذ بدايتها، أزمة اجتماعية وسياسية، شملت الجند العربي، وتتمثل في ظهور الصراع القديم بين اليمنية والمضرية، الذي عمّ أرجاء العالم الإسلامي آنذاك، وكان من أهم عوامل سقوط الدولة الأموية[46].

ج. مظاهر الصراع بين اليمنية والمضرية بالمغرب:

لقد دعا الإسلام العرب إلى جعل حدّ لما كان فرّق بينهم، منذ عهد بعيد، من عصبية وأحقاد، فاجتمعت كلمتهم خلال عصر النبوة والخلافة الراشدة. غير أن تحوّل الخلافة الإسلامية إلى نظام وراثي، على يد بني أمية، وما نتج عن ذلك من اضطرابات وفتن، قد أعاد العصبيات القبلية إلى الوجود، وأحيى

46 انظر: A. Laroui, op. cit., pp.87-88.

التكتلات القديمة، وبخاصة بعد مقتل الحسين بن علي، وسخط أهل الحجاز على يزيد بن معاوية، وقيام ثورة عبد الله بن الزبير. فانقسم جند بني أمية إلى يمنية، مؤيدة لبني أمية، ومضرية، مناهضة لهم. وقوي العداء بين الطرفين، مما كاد يؤدي آنذاك إلى سقوط الدولة الأموية، ولم ينقذها إلا ما أوتي مروان بن الحكم وذووه من دهاء وكفاءة سياسية.

غير أن بذور الشقاق والعصبية بقيت كامنة في صدور أفراد وزعماء كل فئة. واشتدت الضغائن والأحقاد لما صدر عن الخلفاء والولاة من تفضيل بعضها بتعيين قادة الجند والولاة من بين رجالها. فنشأ العداء مثلا بين قريش والأنصار، وشمل حتى الموالي من الشعوب المنتسبة بالولاء إلى قبائل العرب. ولما فشا الترف بين خلفاء بني أمية وغيرهم من الأمراء وكبار رجال الدولة، وعمّ حب الإكثار من العبيد وتشييد القصور، أصبح بنو أمية يعمدون إلى تعيين ولاة من صنائعهم، ويطلبون منهم تزويدهم بالتحف والأموال والجواري، وكان موسى بن نصير من هؤلاء، فعمل على إرضاء الأمراء الأمويين بما قدم لهم من هدايا نفيسة، وأبقى لنفسه ثروة ضخمة، وحاول تأسيس إمارة من بيته، فعيّن أبناءه على مناطق المغرب والأندلس.

وبعد نكبة موسى بن نصير، تعرّض أبناؤه إلى غضب سليمان بن عبد الملك، فأمر والي إفريقية، محمد بن يزيد القرشي، بمطاردتهم وقتلهم، ففعل. ثم كانت ولاية إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر، أيام عمر بن عبد العزيز، عهد عدل ومساواة، توقفت فيها محنة آل موسى بن نصير، وعادت الأمور إلى مجراها. ولكن سرعان ما تغيّر الوضع، إثر وفاة عمر بن عبد العزيز، فقام خلفه يزيد بن عبد الملك بعزل والي إفريقية، وعيّن مكانه يزيد ابن أبي مسلم، مولى الحجاج بن يوسف، وعهد له بمطاردة آل موسى بن نصير واستصفاء أموالهم. وما رواه ابن عبد الحكم من أنه قتل بتدبير من عبد الله بن موسى بن نصير[47] يدعو إلى التساؤل عن السبب الحقيقي لقتل يزيد بن أبي مسلم، ويحث على

47. انظر، ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص. 290.

الاعتقاد أن إرجاع مقتله إلى غضب البربر مجرّد افتراض لا يستند على دليل قاطع، والغرض من الحكاية قد يكمن في إبعاد التهمة عن عناصر الجند الموالية لآل موسى بن نصير، المناهضة للوالي المقتول. ومما يؤيد هذا الرأي أن سياسة ولاة بني أمية تجاه أهل المغرب لم تعرف تغيُّرًا ملحوظا في عهد الوالي الجديد، بشر بن صفوان الكلبي، الذي انحصرت جهوده في القضاء نهائيًا على نفوذ آل موسى بن نصير، وتعيين عمّال ينتمون مثله إلى اليمنية على المناطق[48].

وتوفي بشر بن صفوان في أواخر سنة 109 هـ، فعيّن هشام بن عبد الملك واليًا من المضرية، هو عبَيْدة بن عبد الرحمن القيسي. فقدم إلى إفريقية في ربيع الأول سنة 110 هـ. فأخذ عمّال بشر بن صفوان وأصحابه، وحبسهم وأغرمهم، وعذب بعضهم. ويروى أن هشام بن عبد الملك، لما بلغه هذا الخبر، عزل عبيدة بن عبد الرحمن، وعيّن مكانه عبيد الله بن الحبحاب، مولى بني سلول، وعهد إليه بتهيئة الجوّ في أوسا ط الجند.

وكان عبيد الله بن الحبحاب رجل علم ونبل وفصاحة، فلم ير وسيلة لحلّ المشكل القائم بين عناصر الجند أحسن من إبعاد بعضهم عن مقرّ ولايته، وتكليفهم بمهمة إتمام الفتح في مناطق المغرب التي لم يتوغل فيها المسلمون إلى ذلك العهد. فأسند مهمة فتح بلاد السوس إلى حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع، فغزاها وأخضعها، وعاد منها بالغنائم والسبي[49]. ولم يمض بعد ذلك زمن طويل حتى اندلعت ثورة ميسرة المشهورة، في شمال المغرب الأقصى، تحت شعار مذهب الخوارج الصفرية.

48. انظر: ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 290–291.

49. ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 293. والمقصود بالسوس ناحية السوس الأدنى، ومقر عمالها مدينة وليلي.

د. حركة الخوارج بالمغرب قبل تأسيس الدولة الرستمية:

يبدو مما سبق أن المشاكل التي تعرض لها معظم ولاة إفريقية من جراء الصراع القائم آنذاك بين فئات الجند قد شغلتهم عن إرساء نفوذهم على أسس متينة في مناطق عديدة من بلاد المغرب الأوسط والأقصى، وجعلت جهودهم في نشر تعاليم الإسلام بين أهاليها محدودة جدا.

والجدير بالملاحظة أن الصراع المذهبي، الذي قام إبّان الفتنة الكبرى، وأدّى إلى نشأة أهمّ الفرق الإسلامية السياسية، من شيعة وخوارج وسنيين، كان عاملاً هامًا من عوامل انتشار الإسلام بين أهالي المغرب، إذ أن بثّ المذاهب السياسية بينها، الناتج عن منافسة الفرق على كسب الأنصار، كان يقتضي تعميق الشعور الديني لدى السكان، وتعليمهم مبادئ الإسلام، ومن بينها نظرية نظام الحكم.

وبينما كان تعليم الأهالي دينهم الجديد في المناطق الخاضعة لسلطة الدولة الأموية يجري بصورة طبيعية، مع الإلحاح على ضرورة طاعة أولي الأمر، أي الخلفاء الأمويين و ولاتهم وعمّالهم، فإن دعاة الفرق المعادية لهم كانوا يتوغلون في المناطق التي لم تكن خاضعة لهم أو التي كان نفوذهم فيها ضعيفا، وينشرون فيها تعاليم الإسلام، مع شرح نظريتهم السياسية وإثبات شرعية معارضتهم للأمويين[50].

وكانت الأسبقية في ذلك بالمغرب للخوارج الصفرية، الذين قدموا إليه في أوائل القرن الثاني الهجري، وبخاصة أثناء ولاية عبيد الله بن الحبحاب (114-123 هـ). وكانت الأوضاع السياسية آنذاك، في مختلف أقطار العالم الإسلامي، تمتاز بتزايد سخط الشعوب المفتوحة على ولاة بني أمية، وسياستهم الموجهة أساسًا نحو إرضاء الخلفاء بما كانوا يرغبون فيه من الأموال والتحف وغير ذلك، والاعتماد على العنصر العربي ومَنْ التحق به من الموالي في تسيير شؤون المناطق الخاضعة لسلطتهم.

50 انظر: A. Laroui, op. cit., pp 88 – 89

وقد شعر زعماء الفرق المناهضة لبني أمية بتدهور الأوضاع في سائر الأنحاء، و لا سيما في أطراف الدولة الغربية والشرقية. فراحوا يبثون دعوتهم فيها، و يؤلبون شعوبها ضد بني أمية. وفي هذا الإطار تندرج دعوة الخوارج بالمغرب.

وفعلاً فإن هذه الدعوة وجدت ميدانا خصبًا في بلاد المغرب، وبخاصة في المناطق الجبلية وأراضي البدو التي كان نفوذ السلطة المركزية فيها ضئيلا منذ عهد الوندال، وكانت لها تقاليد اجتماعية وسياسية تحمل صبغة نظام الشورى والحكم الجماعي المتمثل في تعيين مشيخة القبيلة لتسيير شؤونها. ومما ساعد على انتشار مذهب الخوارج في هذه المناطق، تقارب نظريته في مسألة الإمامة، المبنية على أساس مبدإ اختيار الإمام من بين سائر المسلمين، وتقاليد البربر البدو الاجتماعية والسياسية فيها[51].

ويضاف إلى ذلك تراجع ولاة بني أمية بإفريقية والمغرب منذ ولاية يزيد بن أبي مسلم، بعد وفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز، سنة 101 هـ، عن تطبيق مبدإ المساواة بين سائر الفئات الإسلامية، وتطبيق توظيف الخراج على الأهالي المسلمين، مما سبب غضب هؤلاء وسخطهم. فكان لتحريض دعاة الخوارج صدى عميق في كثير من المناطق، وخصوصًا في جبل نفوسة وناحية قابس ومنطقة أوراس وبعض أنحاء المغربين الأوسط والأقصى. وكان ظهور حركتهم وبداية نشاطها على يد فرقة الصفرية، وذلك انطلاقا من ثورة ميسرة، سنة 122 هـ / 740 م، بناحية طنجة.

والجدير بالملاحظة أن ثورة الخوارج بالمغرب لم تكن ردة وخروجًا عن الإسلام، بل الحقيقة أنها قامت باسم الإسلام، وأنها تنتمي إلى مذهب من مذاهبه السياسية. فهي، قبل كل شيء، تشكل امتدادًا لحركة الخوارج المنبثقة من المشرق، ونزعة استقلالية لبعض الفئات من أهالي المغرب، التي أثبتت استقلالها منذ تقلص ظل الأمبراطورية الرومانية، ووجدت في هذا المذهب حلاً يمكنها من التوفيق بين تمسكها بالدين الإسلامي وأنفتها من الخضوع لسلطة ولاة بني أمية.

51 انظر: A. Laroui, op. cit., pp 82–83.

وقد نجحت مهمة دعاة الخوارج بين هذه الفئات إلى حدّ بعيد، لأنها كانت تعتمد على الإشادة بمبدإ المساواة في الحكم، وفي الحقوق والواجبات وتحريض الأهالي ضد الحكام الأمويين وعمّالهم[52].

ومن دعاة الصفرية الذين ذاع صيتهم ميسرة المطغري، الذي قدم من القيروان إلى طنجة، فقاد الثورة ضد عاملها لبني أمية عمر بن عبد الله المرادي، فقتله وبايع لعبد الأعلى ابن جُرَيْج الإفريقي «وكان أصله روميا، وهو مولى لابن نصير، ثم سار إلى السوس، وعليها إسماعيل بن عبيد الله (بن الحبحاب) فقتله»[53].

ثم أرسل عبيد الله بن الحبحاب جيشا تحت قيادة خالد بن أبي حبيب الفهري، لقمع هذه الثورة، فلقي ميسرة وجموعه دون طنجة، سنة 123 هـ / 741 م، وانتهت المعركة بهزيمة جيش والي إفريقية، وقتل قائده وأغلب جنوده، وكانوا من وجوه أهل إفريقية من قريش والأنصار وغيرهم، فسميت تلك الغزوة غزوة الأشراف[54]. ولما عاد ميسرة إلى طنجة انتصب إمامًا على مذهب الصفرية، «فنقم عليه البربر ما جاء به، فقتلوه وقدموا على أنفسهم خالد بن حميد الزناتي»[55].

وعندئذ عزل الخليفة هشام بن عبد الملك الأموي عبيدَ الله بن الحبحاب، وعين كلثوم بن عياض واليًا على إفريقية، في جمادى الآخرة سنة 123 هـ، وكلفه بإخماد حركة الخوارج في بلاد إفريقية والمغرب. فنهض كلثوم بجيش قوي في اتجاه المغرب الأقصى، حتى بلغ وادي سبو، في أواخر سنة 123 أو أوائل سنة 124 هـ، «فزحف إليه خالد بن حميد الزناتي فيمن معه من البربر...

---

52 انظر: Laroui, op. cit., pp 88-89.

53 ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص293؛ انظر أيضا: عبد الرحمن بن خلدون، العبر، ج6، ص221.

54 انظر: ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 293-294؛ عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص221-222.

55 انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص221.

ولقوا كلثوم بن عياض من بعد أن هزموا مقدمته، فاشتد القتال بينهم، وقتل كلثوم وانهزمت العساكر، فمضى أهل الشام إلى الأندلس مع بلج بن بشر القشيري، ومضى أهل مصر وإفريقية إلى القيروان»[56].

ثم سكنت عاصفة ثورة الصفرية في شمال المغرب الأقصى بانشغال ولاة إفريقية عن شؤون المغرب الأقصى، وانصرافهم إلى مواجهة خطر خوارج إفريقية. ولم يرد بعد ذلك ذكر لصفرية شمال المغرب الأقصى، فلم يشاركوا في مختلف الحروب التي خاضها الخوارج، إثر ذلك، ضد ولاة إفريقية. والظاهر أن مقتل ميسرة، لما أظهره بعد غزوة الأشراف من تشدد وقساوة في معاملة الأفارقة وأهل الذمة من سكان طنجة، قد أدى إلى تحول هذه الثورة إلى حركة ذات نزعة استقلالية لا غير، انحصرت في صد جيش إفريقية الذي قدم به كلثوم بن عياض القشيري، وإلحاق الهزيمة به.

وكان لغزوة الأشراف صدى عميق في بعض مناطق المغرب الأوسط وإفريقية التي انتشر فيها مذهب الخوارج. فثارت جماعة الصفرية في ناحية قابس، بزعامة عكاشة بن أيوب الفزاري وعبد الواحد بن يزيد الهواري. ودارت معارك عديدة بينهم وبين جيوش القيروان، انهزمت هذه في بعضها. ثم كان اللقاء الحاسم بينها وبين والي إفريقية الجديد، حنظلة بن صفوان، قرب القيروان، في معركتي القرن والأصنام، سنة 125 هـ / 743 م، فهزم فيها الصفرية هزيمة كبرى، أضعفت من شأنهم، وكسرت من شوكتهم[57].

وفي هذه الأثناء، بلغ الصراع بين اليمنية والمضرية أشده في الشام، وأصبح أمراء بني أمية المتنافسون على الخلافة يعتمدون على أحد الفريقين في طلبهم للعرش.

56. نفسه، ج6، ص 222.

57. انظر: ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 298-300؛ عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 222-223.

فقامت خلافة الوليد بن يزيد (125-126 هـ / 743-744 م) على سواعد المضرية، وحاربها اليمنية، وأيدوا منافسه يزيد بن الوليد، فقضوا على خلافة الوليد.

وعندما وصل نبأ مقتل هذا الأخير إلى إفريقية في جمادى الآخرة سنة 126 هـ، غادرها معظم قادة أهل الشام متوجهين إلى المشرق[58].

ثم قدم عبد الرحمن بن حبيب الفهري من الأندلس، فنزل تونس والتفتْ حوله المضرية، وطلب من حنظلة بن صفوان، في جمادى الأولى سنة 127 هـ، أن يخرج من القيروان ويغادر إفريقية، فرأى هذا الأخير أن يستجيب لطلبه، وأن يتجنب مواجهته حقنا للدماء. وبتغلب عبد الرحمن بن حبيب على إفريقية انتهت سلطة بني أمية عليها. وأصبح من الصعب على أسرة الفهريين أن تقضي على حركة الخوارج في سائر مناطق المغرب، فبذلت ما أمكن من الجهود لإبعاد خطرهم عن القيروان وبلاد إفريقية. وتمكن عبد الرحمن ابن حبيب من إخماد ثورة الإباضية في ناحية طرابلس وقابس سنة 131 هـ / 749 م. ثم قصد إلى نواحي تلمسان سنة 135 هـ / 753 م، وشتت جموع بني يفرن ومغيلة، الثائرة بها تحت شعار الصفرية[59].

وقد أكسب هذا الاستقرار النسبي عبد الرحمن بن حبيب شيئا من الغرور، فرجع عن البيعة لأبي جعفر المنصور، الخليفة العباسي، معربًا بذلك عن عزمه على تأسيس إمارة مستقلة، على غرار الإمارة الأموية بالأندلس. ولكن سرعان ما تأزم الوضع السياسي بالقيروان بين عبد الرحمن بن حبيب وأخويه إلياس وعبد الوارث، فدبّر هاذان مقتل أخيهما في سنة 137 هـ / 755 م، ثم قام حبيب بن عبد الرحمن يطالب بثأر أبيه، وقتل عمه إلياس سنة 138 هـ / 756 م.

58 انظر: ابنعبد الحكم، المصدر السابق، ص 300.

59 انظر: ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص 300-302؛ عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 223-224.

أما عبد الوارث فإنه التجأ إلى ناحية أوراس، حيث أجاره عاصم بن جميل، شيخ ورفجومة، وهم بطن من قبيلة نفزاوة، وكانوا على مذهب الصفرية.

وعندئذ رأى عاصم بن جميل وقومه أن الفرصة سنحت لهم في شأن السيطرة على الموقف بإفريقية، والحصول على ما لم تتمكن من تحقيقه الثورات الصفرية السابقة من الانتصار. فتظاهروا بحماية عبد الوارث ومن كان معه من أنصار أخيه إلياس، وبالحركة من أجل مواجهة حبيب بن عبد الرحمن وصدّه عنهم وعن أهل القيروان. ولكنهم، بعد أن هزموا حبيبًا، توجهوا صوب القيروان واستولوا عليها، وساموا أهلها الذل، وانتهكوا الحرمات[60].

ثم توجه عاصم بن جميل إلى قتال حبيب، بعد أن استخلف على القيروان عبد الملك ابن أبي الجعد اليفرني، فهزمه قرب قابس، ثم انتصر عليه حبيب، وقتل عاصم. فتوجه حبيب إلى القيروان، وخرج عبد الملك بن أبي الجعد للقائه، في محرم 140 هـ / مايو 747 م، فهزمه وقتل حبيب. وتمادت ورفجومة في عيثها وتعسفها بالقيروان، لكن سيطرتها لم تدم إلا حوالي سنة وبضعة أشهر. وذلك أنها تعرضت إلى هجوم إباضية طرابلس من هوارة وزناتة، بقيادة أبي الخطاب عبد الأعلى المعافري، في صفر 141 هـ فانهزمت ورفجومة، وقتل عبد الملك بن أبي الجعد وكثير من أتباعه، واستولى أبو الخطاب على القيروان، جاعلا حدا لنشاط الصفرية بإفريقية. ثم عيّن عبد الرحمن بن رستم عاملاً عليها، وعاد إلى ناحية طرابلس لمواجهة الجيوش العباسية، فهزمت مرّتين[61].

وكان تدخل إباضية جبل نفوسة وطرابلس في هذه الحوادث فاتحة عهد جديد في نشاط الخوارج بإفريقية والمغرب الأوسط، إذ أصبح نفوذ الإباضية يتزايد بهما، بينما أخذت حركة الصفرية تضعف شيئا فشيئا.

60. انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 224.
61. نفسه، ج6، ص 224-225.

وكان انتشار الإباضية في كثير من المناطق، بعد هذا التاريخ، راجعًا إلى اعتدال آرائها، وميلها إلى مساهمة الطوائف الأخرى.

ثم قدم محمد بن الأشعث، والي مصر، إلى إفريقية بجيش قوي، لإخماد الثورة، فهزم أبا الخطاب وجموعه. ثم قصد إلى القيروان، فغادرها عبد الرحمن بن رستم متوجهًا إلى المغرب الأوسط حيث أخذ يبث دعوة الإباضية، وأسس مدينة تاهرت. ورغم بقاء عناصر كثيرة من جماعات الإباضية في جبل نفوسة، فإن ضغط ولاة إفريقية جعل حركة الخوارج تحوّل جهودها إلى المغرب الأوسط، وتزداد فيه قوة وتدعيمًا، الأمر الذي دعا ابن الأشعث إلى تعيين الأغلب بن سالم التميمي عاملا على طبنة ليقف في وجه الخوارج ويردّ هجماتهم، كما أنه أمر ببناء سور القيروان[62].

* * *

62. نفسه، ج6، ص 225.

الدولة الرستمية

الدولة الرستمية

مقدمة:

لمّا سقطت الدولة الإباضية الأولى في المغرب الإسلامي بقيادة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري سنة 144 هـ، تشتت جموع الإباضية في كلّ أنحاء المغربين الأدنى والأوسط، وكانت هناك محاولات من قبل الإباضيين لاسترجاع الملك في طرابلس، لكنهم لم يفلحوا في ذلك، وكان عليهم انتظار مدّة طويلة (144–160 هـ) لتأسيس دولة إباضية قوية أخذت اسم الدولة الرستمية من اسم مؤسسها عبد الرحمن بن رستم.

I- ظروف تأسيس الدولة الرستمية:

لم يكن اختيار عبد الرحمن بن رستم الفارسي لجبل سوفجج عشوائيا، بل كان يدرك بفضل فراسته الحربية مناعة وحصانة المكان الطبيعية ضدّ الغزاة، وكان على علم بملاحقة الجيش العباسي بقيادة محمد بن الأشعث له، ويبدو أنّ فلول الإباضية كانت تتجمع و تلتفّ حول عبد الرحمن وهو في طريقه نحو جبل سوفجج الذي لم يستطع ابن الأشعث من اقتحامه رغم الحصار الذي ضربه على المنطقة لوقت طويل[1]. ولمّا يئس وخاف من انقلاب الوضع عليه في المغرب الأدنى فكّ الحصار وعاد إلى القيروان[2] دون أن يحقّق مآربه.

وبمجرد انتشار أخبار نجاح ابن رستم على خصمه العباسي بدأت تتوافد جموع الإباضية إلى المنطقة وخاصّة بعد القضاء على الإمامة الإباضية بالمغرب الأدنى تحت قيادة أبي حاتم الملزوزي سنة 155 هـ[3].

1. إبراهيم بحاز: الدولة الرستمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، ، ط: 2 المطبعة العربية، غرداية 1993، ص. 82
2. أبو زكرياء يحي بن أبي بكر: كتاب السيرة وأخبار الأئمة، تح عبد الرحمن أيوب، الدار التونسية للنشر تونس 1985، ص47
3. ابن عذارى المراكشي أبو عبد الله محمد: البيان المغرب في أخبار إفريقية والمغرب، تح: ج. س. كولان و أ. ليفي بروفنصال، ج: 1، دار الثقافة، بيروت 1984، ص79.

ولمّا تكاثر عددهم ورأوا ضرورة البحث عن كيان جغرافي وسياسي يأويهم ويلمّ جمعهم، ومن هنا جاءت ضرورة التفكير في بناء مدينة جديدة، فعلى هذا الأساس نشأت مدينة تيهرت التي ستصبح فيما بعد العاصمة السياسية والاقتصادية لدولتهم الجديدة، وقبلة لكل التجار والعلماء من كلّ بقاع العالم الإسلامي.

1. بناء مدينة تيهرت:

لا يعرف بالتحديد تاريخ انتقال ابن رستم إلى موقع تيهرت، لكن من المرجح أنّ ذلك كان خلال الفترة الممتدّة بين 155 هـ و 160 هـ، إذ تشير بعض المصادر إلى مشاركة عبد الرحمن بن رستم في حصار طبنة سنة 153 هـ دون أن تطلق عليه لقب الإمام[4]. و لا شكّ أنّ قرا ر تأسيس مدينة تكون عاصمة لدولة إباضية جديدة لم يُتّخذ إلاّ بعد سقوط إمامة أبي الحاتم سنة 155 هـ بعد أن تجمّع عدد هائل من الأنصار حول عبد الرحمن فرارا من ملاحقة يزيد بن حاتم لهم[5].

لمّا علم عبد الرحمن بن رستم بمقتل إمام الدولة الإباضية بطرابلس أبي الخطّاب عبد الأعلى بن السمح المعافري على يد محمد بن الشعث سنة 144 هـ / 761 م أثناء مسيره لنجدته قفل راجعا بجيشه الذي كان يقوده نحو القيروان، فوجد الأمور قد انقلبت على عامله، عندئذ قرّر النجاة بنفسه وأهله، فاختار وجهة المغرب الأوسط لعدم تغلغل النفوذ العباسي بعد إلى المنطقة[6].

4. الجنحاني الحبيب: «تيهرت عاصمة الدولة الرستمية» المجلة التونسية ع: 40-43، الشركة التونسية لفنون الرسم تونس أفريل 1975، ص11

5. ابن عذارى المراكشي: المصدر نفسه، ص79.

6. الباروني سليمان بن عبد الله النفوسي: الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، ج 1، مطبعة الأزهار البارونية، د. ت، ص2.

تقصّ المصادر الإباضية رواية فرار ابن رستم والمأساة التي عاشها في طريقه نحو جبل سوفجج، فتشير إلى وقوعه في يد عبد لرحمن بن حبيب قبل فراره من القيروان ثمّ إطلاق سراحه بعد تدخّل أحد القرويين المقربين إلى ابن حبيب[7]، كما تواصل تفاصيل الرواية قصّة وفاة فرس عبد الرحمن بن رستم وتداول ابنه وخادمه على حمله[8].

لقد سلك ابن رستم طريقا جنوبيا صعبا متنقلا بين القبائل البربرية التي دخلت تحت راية الإباضية. فمن قسطيليلية جنوب البلاد التونسية ثمّ الصحراء الجزائرية مرورا بمنطقة الزاب إلى أن وصل إلى جبل سوفجج[9] حيث موطن قبائل لماية ولواتة وهوارة الباضية [10].

بعد حصول اتفاق بين الإباضية على بناء مدينة جديدة وقع اختيارهم على موقع تيهرت التميّز، فالمكان بعيدا عن الخطر العباسي وفي منآى عن الضربات البيزنطية ويعدّ همزة وصل بين التلال والصحراء كما يمتاز بأراضيه الخصبة ومياهه الوافرة [11]، وقد نضيف عاملا آخر يعدّ في نظرنا مهما فالمدينة تقع في قلب منطقة تقطنها قبائل تنتمي إلى المذهب الإباضي. كانت كلّ هذه الخصائص سببا في اختيار هذا الموقع دون غيره.

يروي أبو زكرياء قصّة حول بناء مدينة تيهرت تشبه الرواية التي نُسجت حول بناء مدينة القيروان، فتذكر الرواية أنّ عبد الرحمن بن رستم نادى سباع المنطقة ووحوشها يدعوها للرحيل وترك المكان، فرحلت[12].

---

7. الشماخي أبو العباس أحمد بن سعيد: كتاب السير، طبعة حجرية، قسنطينة 1301هـ، ص133.

8. الباروني سليمان بن عبد الله النفوسي: المصدر السابق، ج 2، ص6.

9. منيع وحصين ضمن سلسلة الجبال التي تمتدّ من مدينة السوقر في الجنوب الغربي لمدينة تيهرت وجنوب شرقي مدينة شلالة.

10. محمد عيسى الحريري: الدولة الرستمية بالمغرب الأوسط، ط: 3، دار القلم، بيروت 1987، ص85–86.

11. المرجع نفسه، ص96–97.

12. أبو زكرياء: المصدر السابق، ص86.

كانت المنطقة حسب البكري لقوم مستضعفين من قبيلة مراسة وصنهاجة البربريتين، فاتّفق ابن رستم معهم على أن تؤدّى لهم خراجا من الأسواق بسبب امتناعهم من بيعها له، ثمّ شرعوا في الحين ببناء المسجد الجامع[13].

وينفرد البكري برواية حول كيفية اختيار الموقع فيذكر أنّ الإباضية اختاروا في بداية الأمر تيهرت القديمة، فكلما بنوا عمارة في الليل وجدوها قد تهدّمت في الصباح، فعزفوا عن ذلك الموضع وانتقلوا إلى موضع تيهرت الحديثة وتقع على خمسة أميال من تيهرت القديمة[14].

شرع الإباضيون بتشييد مبانيهم بدءا بالمسجد الجامع كما جرت العادة من قبل في بناء المدن الإسلامية ثمّ بنوا من حولها العمائر الأخرى. واستمرت المدينة في النمو والتطور وقصدها الإباضية من كلّ أنحاء المغرب الإسلامي، وهكذا رأى رؤساء الإباضية أنّ لهم من القوة ما يمكّنهم من إعلان إمامة الظهور[15]، فصار من الضروري عليهم اختيار إمام يسيّر شؤون دولتهم.

انعقد مجلس يضمّ رؤساء القبائل الإباضية وفقهائها لاختيار إمام يحكم بينهم وينصف المظلوم ويقيم الصلاة وتُؤدّى إليه الزكاة ويقسّم الفيء، فتمّت البيعة لعبد الرحمن بن رستم الفارسي بالرغم من وجود رأس أو رئيسان من كلّ قبيلة في المجلس، وكلّهم أهل للإمامة، وقد تمّ هذا الاختيار حسب مؤرّخ الدولة الرستمية ابن الصغير انطلاقا من كون ابن رستم كان غريبا بين البربر وليس لديه قبيلة تحميه ليسهل عزله في حالة انحرافه عن الدين[16].

---

13. البكري أبو عبيد الله: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب مطبعة الحكومة، الجزائر 1857، ص67–68.

14. البكري: المصدر السابق، ص67.

15. الإمامة عند الإباضية أربعة : إمامة الظهور وهي واجبة عندما تتوفر شروطها لتأسيس دولة إباضية المذهب ومن شروطها أن يكونوا بقوة بحيث يستطيعون اختيار حاكم عليهم علنا. وإمامة الدفاع وهي مرحلة بين الظهور والكتمان وتعلن هذه الإمامة عندما يُداهم الإباضية من قبل عدو، فيعقدوا الإمامة لمن يمتلك الشجاعة والخبرة العسكرية وتكون له كلّ الصلاحيات التي يمارسها الإمام في حالة الظهور، أمّا إمامة الشراء فتكون عندما يخرج ُمام بأربعين رجلا فما فوق ويبايعونه على الجهاد في سبيل الله، فأمّا إمامة الكتمان وتعبّر عن مرحلة الضعف، وفي هذه المرحلة يركن الإباضية إلى السرية وينتخبون إماما عليهم يكو عادة أعلمهم وأفقههم ويجوزون هنا البقاء تحت حكم غيرهم دون دعوة لثورة. ينظر إبراهيم بحاز: المرجع السابق، ص79–80.

16. ابن الصغير: المصدر السابق، ص 26.

ولم يكن هذا العامل الوحيد في عملية اختيار ابن رستم إماما، ففضلا عن ما ذكرناه كان عبد الرحمن من بين حملة العلم الخمسة الذين توجهوا إلى المشرق للتفقه في المذهب الإباضي على يد شيخ الإباضية الثاني أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، كما لا ننسى أنه كان قبل ذلك عاملا لأبي الخطاب على القيروان[17]، أي أنّ الإباضية قد تعرّفوا على عدله وسيرته عن قرب قبل مبايعته، وقد تمّت البيعة لعبد الرحمن سنة 161 هـ وكانت هذه البيعة بمثابة إعلان بقيام دولة إباضية بالمغرب الأوسط أطلق عليها اسم أسرة مؤسّسها الدولة الرستمية.

2- الحدود الجغرافية:

لم تعرف الدولة الرستمية حدودا ثابتة ومستقرة، لذلك فإنّ أيّة محاولة لوضع حدود لها إنّما يكون من باب التقريب فقط.

يرى أغلب المؤرخين[18]، أنّ الدولة الرستمية بسطت نفوذها في كلّ المغرب الأوسط ماعدا تلمسان التي كانت تابعة لدولة الأدارسة و منطقة الزاب التي كان أمراء الأغالبة يسيطرون عليها. و تنضوي تحت حكم الرستميين كلّ من جزيرة جربة وبلاد الجريد و جبل نفوسة و جنوب طرابلس[19]، وهكذا امتدّت الدولة الرستمية إلى مناطق شاسعة من المغرب الإسلامي.

17. الشماخي: المصدر السابق، ص140.

18. هناك عدد كبير من المؤرخين الذين يؤيّدون هذا الرأي نذكر منهم: إبراهيم فخار: «دور الرستميين في وحدة مغرب الشعوب» الأصالة ع: 42–43، مطبعة البعث، قسنطينة 1977، ص 41، وكذلك عثمان الكعاك: موجز التاريخ العام للجزائر منذ العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، مطبعة العرب، تونس 1925، ص189 وكذا Tadeusz Lewicki Etudes Ibadhites Nord Africaines. Partie I. Tasmiya Suyuh Gabal Nafusa. Wa- : Qorahum. Contenue dans le Siyar Al-machaikh VI-XII S Warszawa 1955. p. 544.

19. إبراهيم بحاز: المرجع السابق، ص99.

II- الأوضاع السياسية:

امتازت أوضاع الدولة الرستمية الداخلية بالاستقرار والأمن أحيانا ولا سيّما في بداية عمرها، وبالفوضى وعدم الاستقرار في أحيان أخرى بسبب تعدد الانقسامات والانتماءات التي أدّت إلى الانشقاقات الداخلية.

1. إمامة عبد الرحمن بن رستم:

لمّا أسّست مدينة تيهرت و بويع عبد الرحمن بن رستم بالإمامة بدأ بالقضاء على الفوضى التي كانت تعاني منها الإباضية بالمغرب الأوسط و الأدنى، فجمع شتات الإباضية ثمّ انكبّ على توطيد أركان دولته و استمرت الدولة الرستمية في النمو و الازدهار في ظلّ إمامها الأول الذي تحدث عنه ابن الصغير مشيدا بسيرته وعدله في رعيته دون تمييز بين الإباضيين وغيرهم وبين المهاجرين والقاطنين فيقول: «لمّا ولي عبد الرحمن بن رستم ما ولي من أمور الناس شمّر مئزره و أحسن سيرته و جلس في المسجد للأرملة و الضعيف و لا يخاف في الله لومه لائم فطار ذلك في أطراف الأرض مشارقها و مغاربها حتى اتّصل ذلك من أدل البصرة و غيرها... و قال بعضهم لبعض قد ظهر بالمغرب إمام ملأه عدلا و سوف يملك المشرق و يملأه عدلا»[20].

فمن هو عبد الرحمن بن رستم؟ تتّفق المصادر التاريخية في قضية انتماء عبد الرحمن إلى الجنس فارس[21] لكن الاختلاف كان يدور حول نسبه، فابن خلدون يجعله من ولد رستم قائد الفرس بالقادسية[22] وابن حزم يجعله في كتابه جمهرة أنساب العرب من بنو رستم بن الملك الفارسي جامسب بن فيروز بن يزد جرد بن بهرام جور[23].

20. ابن الصغير: المصدر السابق، ص28.

21. ينظر: المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج 1، ط4، دار الأندلس للطباعة والنشر بيروت 1981، ص 186، 157–158. و اليعقوبي: البلدان، ط 3، النجف 1957، ص104.

22. عبد الرحمن بن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر.... ، ج 6، دار الكتابي اللبناني للطباعة والنشر، بيروت 1968، ص225.

23. ابن حزم علي بن سعيد: جمهرة أنساب العرب، تح ليفي بروفانسال، دار المعارف، القاهرة 1948، ص511.

أمّا البكري فيذكر أنّ بهرام جدّ عبد الرحمن كان مولى للخليفة عثمان بن عفّان[24].

ويخبرنا أبو زكرياء أنّ والد عبد الرحمن خرج من العراق قاصدا بلاد المغرب فأدركته المنية في أرض الحجاز[25]، في حين يذكر الشماخي أنّ وجهة رستم كانت نحو مكّة المكرمة لأداء فريضة الحج فتوفي بها[26]. وما نستنتجه من خلال القولين السابقين أنّ والد عبد الرحمن خرج من العراق وتوفي في الحجاز.

ولا تختلف المصادر الإباضية في أنّ أمّ عبد الرحمن تزوجت بمغربي ثمّ انتقلت معه رفقة ابنها إلى القيروان[27]. وهناك ترعرع وأخذ قسطا من العلم والتقى حسب ما ورده الدرجيني بالداعية الإباضي سلمة بن سعد، وقد انتقل عبد الرحمن في سنة 135 هـ إلى البصرة للتفقّه في المذهب الإباضي على يد أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، وبعد خمس سنوات عاد إلى بلاد المغرب رفقة أربعة من أصحابه وكانوا يلقّبون بحملة العلم[28].

لقد اعتمد ابن رستم في وضع أسس دولته على التبرعات التي جاء بها وفد من إباضية المشرق إثر انتشار أخبار سيرته في رعيته، فأتّفق عبد الرحمن مع رعيته بتقسيمها على ثلاث ثلث في الكراع و ثلث في السلاح و ثلث يفرّق على الفقراء و المحتاجين من الناس و بذلك قوي الضعيف و انتعش الفقير و تحسنت أحوالهم و قويت الدولة الرستمية حتّى خافهم جميع من اتّصل بهم و آمنوا ممّن كان يغزوهم من الأعداء[29].

24. البكري: المصدر السابق.
25. أبو زكرياء: المصدر السابق، ص 58.
26. الشماخي: المصدر السابق، ص 123.
27. أبو زكرياء: المرجع نفسه، ص 58.
28. إبراهيم بحاز: المرجع السابق، ص 94.
29. ابن الصغير المصدر السابق، ص 30-31.

فلو سلّمنا بما جاء به ابن الصغير فإنّ العاصمة في عهد عبد الرحمن بن رستم انتقلت في ظرف زمني قصير من قرية صغيرة تتقبّل التبرّعات إلى مدينة كبيرة مزدهرة، فبعد ثلاث سنوات فقط رفض عبد الرحمن بن رستم استلام التبرّعات القادمة من المشرق و ذلك لما وصلت إليه الرعية من مستوى معيشي راق[30]، حيث شيّدت القصور و غُرست البساتين وأقيمت الرحاء، ولكن هذه الرفاهية لم تبدّل شيئا من حال عبد الرحمن بن رستم فيقول ابن الصغير: 'فسألوهم عن أحوال عبدالرحمن هل تغيّرت و عن أحكامه هل تبدّلت فقالوا: بل هو على ما عاينتموه عليه، ما تغيّر و ما تبدّل' [31].

لقد مال عبد الرحمن إلى أسلوب المهادنة و حسن الجوار مع جيرانه فعقد معاهدة مع روح بن حاتم أو مع أخيه يزيد سنة 171 هـ / 737 م[32].

كما وطّد علاقاته مع جيرانه الصفريين بسجلماسة بمصاهرة بين مدرار بن الإمام الصفري اليسع بن أبي القاسم وابنته أروى [33]. وما ربط هذه العلاقات مع الدول المجاورة إلاّ دليل على سعي عبد الرحمن في تهيئة أسباب الاستقرار و الأمن لدولته الجديدة.

تذكر المصادر الإباضية أنّ عبد الرحمن بن رستم لما حضرته المنية جعل الإمامة شورى بين سبعة نفر و ذلك اقتداء بعمر بن الخطاب رضي الله عنه[34] يبدو أن في هذا شيء من المبالغة فعمر بن الخطاب لمّا ترك الحكم شورى بين ستة نفر جعل ابنه مستشارا لا غير، في حين جعل ابن رستم ابنه ضمن المرشحين للإمامة و كأنّما يريد من ذلك دعوتهم إلى تزكية ابنه من بعده،

30. المصدر نفسه، ص 33–34.
31. المصدر نفسه، ص 33.
32. جودت عبد الكريم يوسف: العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص 76.
33. المرجع نفسه، ص 114–115.
34. أبوزكرياء : المصدر السابق، ص 89.

و لعلّ ما أورده ابن الصغير بقيد ذلك فيقول: "و كان قد أنشأ له في أيامه ولد يعرف بعبد الوهاب و كان محمود الأفعال وكان قد رشحه للقيام بعده، فلمّا انقضت أيامه صيّرت الإباضية إليه الأمر بعده"[35].

2. إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن:

تولّى عبد الوهاب بن عبد الرحمن الإمامة بعد مبايعته سنة 171 هـ / 787 م، ولقد اكتسب هذا الإمام خبرة في السياسة و الإدارة و الحرب بعد أن شارك والده في تأسيس الدولة و تسييرها. لقد كان على عبد الوهاب مجابهة الجبهة الدّاخلية التي تكاد تنفجر فسارع إلى تجديد الاتفاقية مع روح بن حاتم أمير القيروان[36].

واجه عبد الوهاب بعد اعتلائه العرش مباشرة حركة النكار بزعامة يزيد بن فندين[37] التي أدّت إلى انقسام الإباضيين إلى فرقتين النكارية من جهة، والوهبية أتباع الإمام من جهة أخرى واستطاع النكّر الاستيلاء على العاصمة في غياب الإمام عنها، ولمّا عاد إليها صلّى بالناس جميعا رغبة منه في لمّ شمل الإباضية، واتّخذ الإمام هذه حادثة مقتل ابنه ميمون، ذريعة للقضاء على حركة النكّار وكسر شوكتهم[38] و قد سمحت هذه الحركة للواصلية[39] لمناقشة

35. ابن الصغير: المصدر السابق، ص36

36. محمد عيسى الحريري: المرجع السابق، ص112.

37. يزيد بن فندين الملقب بأي قدامة ينتمي إلى فرع قوي من قبيلة زناتة وتعود أسباب حركته إلى إنكاره لإمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن، إذ في رأيه لا تجوز الخلافة للمفضول مع وجود الأفضل، كما لم يسند إليه الإمام عبد الوهاب بعد توليه الحكم أي منصب من مناصب الدولة. ينظر علي يحي معمر: الإباضية مذهب إسلامي معتدل، ط:3، المطبعة العربية، غرداية 1994، ص 42-43.

38. محمد عيسى الحريري: المرجع نفسه، ص 113-119.

39. الواصلية هم أصحاب أبي حديفة واصل بن عطاء الغزّال الألثغ كان تلميذا للحسن البصري، وفي بلاد المغرب شردمة منهم ويقال لهم الواصلية وهم فرقة من المعتزلة يدور اعتزالهم حول أربع قواعد: القول بنفي صفات الباري تعالى من العلم والقدرة والقول بالقدر، والمنزلة بين المنزلتين. ينظر أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني: الملل والنحل، تح أمير علي مهنا و علي حسن فاعود، ط:6، ج: 1، دار المعرفة، بيروت 1997، ص 59-63.

مسألة الإمامة باعتبارهم من رعايا هذه الدولة وخاصّة بعد انضمام بقايا النكّار إليهم فخرجوا على الإمام وبفضل إمدادات جبل نفوسة تمكّن من إخضاعهم[40] و ثورة مزاته وسدراته بتأليب من النكّار كذلك فتمكن من إخضاعهم بفضل حنكته و قوة شخصيته[41]. كما انتفضت قبيلة هوارة ضدّ عبد الوهاب فحاربها حتى قضى على جذور الفتنة[42] وهكذا يتّضح لنا أنّ عبد الوهاب عمل كلّ ما في وسعه للاحتفاظ بوحدة لدولة الرستمية وحرص على ترك دولة قوية لخليفته أفلح و يعبر ابن الصغير عن هذه القوة في قوله: "ثمّ اشتدّ أمر عبد الوهاب و قوي عليه و انتقل من حال الإمامة إلى حال الملك"[43].

تعرّضت منطقة جبل نفوسة إلى حصار من قبل أبي العباس عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب أثناء تواجد عبد الوهاب فيها، و انتهى الحصار بعقد صلح بين الطرفين على أن تكون المدينة و البحر للأغالبة و ما كان خارجا عنها للرستميين[44].

و بهذا الشكل دعّم عبد الوهاب نفوذ دولته الدّاخلي و الخارجي، إذ بعد اطمأنّ لشؤون عاصمته تيهرت و نصّب ابنه خليفة عليها و توجّه نحو المشرق حيث بقي مدّة طويلة في جبل نفوسة فعيّن ولاّته على إقليم الجبل و سرت و بلاد الجريد و جزيرة جربة ثم قفل راجعا إلى تيهرت و في أواخر أيامه ظهرت حركة عصيان ضدّه بقيادة الخلف بن السمح الذي حاول الاستئثار بولاية جبل نفوسة فادّعى الإمامة على الجزء الشرقي من الدولة الرستمية و حاول عبد الوهاب إدراجه باللّين و الحكمة حتّى وافته المنيّة سنة 208 هـ[45].

40. الشماخي: المصدر السابق، ص 155-157.
41. محمد عيسى الحريري: المرجع السابق، ص 123-126.
42. المرجع نفسه، ص 126-127.
43. ابن الصغير: المصدر السابق، ص 44.
44. جودت عبد الكريم: المرجع السابق، ص 84-85.
45. أبو زكرياء: المصدر السابق، ص 127-128.

3. إمامة أفلح بن عبد الوهاب:

بُويع أفلح بن عبد الوهاب بالإمامة بعد وفاة أبيه سنة 208 هـ لما رأوا فيه من حسن السيرة و العلم و اتّسم عصره بالقوّة و الازدهار وبلغت الدولة أوجّ ذروتها، ولكنه عانى من بعض الحركات الانفصالية فقامت الحركة الخلفية[46] بزعامة خلف بن السمح الذي نظّم جيشا كبيرا يريد بواسطته السيطرة على قسم من الدولة فحاربه الإمام أفلح سنة 221 هـ وقضى على كثير من أتباعه وتمكّن خلف من الفرار[47]. و لم تستقم الأمور للإمام أفلح فقد خرج عن طاعته فرج النفوسي المعروف بالنفاث بن نصر الذي قاد حركة النفاثية[48] ولم تدم حركته طويلا فخاف على نفسه من بطش الإمام وفرّ إلى بغداد[49] و يشير ابن الصغير إلى تبني أفلح سياسة زرع بذور الشقاف و الخلاق بين القبائل لإضعافها و منع تحالفها ضدّه[50]، و هكذا أقام أفلح بن عبد الوهاب في إمامته خمسين عاما ابتنى خلالها القصور و بنى الجفان و أطعم فيها وعاشت الرعية كلّها في ترف و رخاء مدّة حكمه[51] وتوف سنة 258 هـ.

46. حركة انفصالية يتزعمها خلف بن السمح بن أبي الخطاب المعافري الذي استولى على ولاية الجناح الغربي لليبيا بعد وفاة والده، ولمّا بلغ الخبر إلى الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن أمره بالاعتزال وعين واليا مكانه، ولكن خلفا لم يستجب للأمر وأعلن استقلال منطقته عن الدولة الرستمية وجمع عددا كبيرا من أتباعه. ينظر علي يحي معمر: المرجع السابق، ص46-47.

47. محمد عيسى الحريري: المرجع السابق، ص 143-145.

48. يتزعّم حركة النفاثية فرج بن نصر النفاثي الذي كان نت العلماء، و تتلمذ على يد الأئمة الرستميين أنفسهم، ولمّا لم تسند إليه ولاية جبل نفوسة، أخذ ينتقد سياسة الإمام أفلح، فأغضبه، ثم أرسل إليه يتوعّده بالعقاب في حالة ما إذا استمرّ في خروجه عن صفّ المسلمين أي الإباضيين، ففرّ إلى بغداد ومن آرائه إنكار خطبة الجمعة.
ينظر علي يحي معمر: المرجع السابق، ص 45.

49. المرجع نفسه، ص: 145-147.

50. ابن الصغير: المصدر السابق، ص54-55.

51. المصدر نفسه، ص 54.

4. إمامة أبي بكر بن أفلح:

نعمت الدولة الرستمية بالرفاهية التّامة في عهد الإمام أفلح لكن الأمور بدأت تتغير بمجرد وفاته تمت مبايعة ابنه أبو بكر بن أفلح الذي لم يكن في درجة أبيه في القوة والعزم بل كان ضعيفا و ميالا إلى حياة اللهو و الترف[52]، و هذا ما جعل صهره محمد بن عرفة يتدخّل في شؤون الإمارة، فتدهورت أحوال الدولة الداخلية، إذ ظهرت خلافات بين القبائل أدّت في كثير من الأحيان إلى الاصطدام. و في تلك الأثناء عاد أبو اليقظان بن أفلح من العراق و أخذ يدبّر شؤون الدولة في حين بقي أخوه منغمسا في شهواته و ملذاته[53]. لكن الأمر لم يدم على هذا الشكل طويلا فبعدما رأى أبو بكر تزايد نفوذ ابن عرفة أمر بقتله و قد أدّت عملية الاغتيال إلى اشتعال نار الفتنة داخل تيهرت بين أنصار ابن عرفة و من انضم إليهم من جهة، و الإمام أبي بكر وحاشيته من جهة أخرى ثمّ عمّت الفوضى و تقاتلت القبائل فيما بينها فاعتزل أبو بكر الإمامة وخرج من تيهرت لتصبح العاصمة في يد القبائل و الطوائف المختلفة[54].

5. إمامة أبي اليقظان بن أفلح:

و لمّا استرجع الرستميون قوّتهم بايعوا أبا اليقظان بن أفلح سنة 261 هـ / 875 م، ولكن أحوال تيهرت لم تستقم إلاّ بعد سبع سنين قضاها في محاربة ابن مسالة أحد الأطراف البارزين في الفتنة، و استطاع أن ينقذ البلاد من الفوضى و عمل على استتباب الأمن و الاستقرار من جديد، و استمرّ أبو اليقظان في حكمه مدّة عشرين سنة (261-281هـ / 875 894م)[55]، وخلال فترة حكمه تعرّضت الحدود الشرقية لدولته إلى الغزو من قبل أبي العباس بن أحمد بن طولون[56].

52. محمد عيسى الحريري: المرجع نفسه، ص1551–156.
53. ابن الصغير: المصدر نفسه، ص62–64.
54. المصدر نفسه، ص56–74.
55. إبراهيم بحاز: المرجع السابق، ص125–126.
56. الباروني سليمان: المرجع السابق، ج :2، ص255–257.

6. إمامة أبي حاتم بن أبي اليقظان:

لمّا توفي أبو اليقظان سنة 281 هـ / 894 م خلفه ابنه أبو حاتم و بتوليه الإمامة دخلت الدولة الرستمية في مرحلة الشيخوخة، فبدأ التنافس و النزاع على الملك، حيث قضى أبو حاتم اثنا عشر عاما في صراع مع عمّه يعقوب و مع الطوائف المتواجدة في تيهرت، وبعد سنة واحدة من مبايعته أُرغم على مغادرة تيهرت، ولكنه لم يبق مكتوف الأيدي بل حاصرها واسترجعها من أعدائه الذين استقدموا عمّه يعقوب، ثمّ حكم البلاد لمدّة أربع سنوات فاشتعلت نار الحرب بين أفراد الأسرة الحاكمة[57].

7. إمامة اليقظان بن أبي اليقظان:

و في سنة 286 هـ / 899 م عاد أبو حاتم إلى سدّة عرشه، ورغم محاولته اليائسة في استعادة الأمن و الاستقرار لدولته إلاّ أنّ الفساد كان قد تغلغل بشكل كبير داخل الأسرة الرستمية، فقُتل على يد أحد أبناء أخيه اليقظان بن أبي اليقظان سنة 294 هـ / 907 م الذي تولى الحكم من بعده لمدّة عامين قضاها في خوف من أبناء أخيه المقتول و من الخطر الشيعي و قد بلغت الدولة في أيامه من الفساد مبلغا عظيما[58].

و قبل أن يدخل أبو عبد الله الشيعي إلى تيهرت أمر إمامها اليقظان بالتوجه إليه مع أسرته لمقابلته في أحواز تيهرت، فامتثل أمامه ضعيفا، فأمر قتله و أسرته جميعا، ثم دخل تيهرت بجيوشه سنة 296 هـ / 909 م[59].

لقد تضافرت عدّة عوامل في سقوط الدولة الرستمية نذكر منها:

- كثرة العناصر المهاجرة وتعدّد انتماءاتها.

57. ابن الصغير: المصدر السابق، ص97-99.
58. إبراهيم بحاز: المرجع نفسه، ص: 127.
59. محمد عيسى الحريري: المرجع السابق، ص185.

– الانقسامات الداخلية ذات التوجهات العديدة حتى بين الإباضيي أنفسهم، وبروز عدّة فرق جديدة مثل: النكارية والخلفية والنفاثية الخ...

– نشوء طبقة عريضة من الأثرياء تمثل قوّة ضغط سياسي اقتصادي.

III- نظام الحكم:

يبدو من خلال الحوار الذي دار بين فقهاء و رؤساء القبائل الإباضية اختاروا لقب الإمام لرئيس دولتهم، وتدلّ الطريقة التي تمّ بها اختيار عبد الرحمن بن رستم إماما على تطبيق مبدأ الشورى و المنهج الانتخابي في عملية الانتقاء، فكان النظام إذا جمهوري ديمقراطي من حيث المبدأ، لكن هذا النظام تغيّر بمجرد وفاة عبد الرحمن الذي عين لخلافته سبعة من فقهاء الإباضية ومن بينهم ابنه عبد الوهاب وقد أثارت هذه القضية جدلا بين المؤرّخين باعتبار أنّ عبد الرحمن كان يريد بترشيح ابنه تزكيته من المرشحين الآخرين[60]، في حين شبّه المؤرخون الإباضيون ابن رستم في هذه العملية بعمر بن الخطاب رضي الله عنه[61] الرغم من أنّ هذا الأخير لم يجعل ابنه ضمن المرشحين بل عينه مستشارا فقط، وبعد عبد الوهاب أصبح الحكم وراثيا.

لقد قسّم الرستميون دولتهم إلى عمالات ومن أهمّها قفصة، وسرت، ونفزاوة، وقنطرارة، وجبل نفوسة، وقابس، وجبل دمر. وأسندوا جمع الجباية وتحصيل بيت المال إلى عمالهم بالأقاليم[62].

اتبع الرستميون التنظيم الإداري المعروف في المشرق، ويأتي القضاة في الطبقة الأولى في جهاز الدولة ويأتي من بعدهم لشرطة الذين يقومون بأعمال الحراسة والمحافظة على الأمن والحسبة[63].

وإلى جانب هؤلاء اتّخذ الرستميون الوزراء والكتاب والحراس و الدواوين.

60. المرجع نفسه، ص226.
61. أبو زكرياء: المصدر السابق، ص88—89.
62. البارُوني: المصدر السابق، ص165.
63. محمد عيسى الحريري: المرجع السابق، ص230.

IV- الأوضاع الاجتماعية:

إنّ الروح السمحة التي امتاز بها إباضيو تيهرت كفلت نوعا من التضامن بين أفراد المجتمع الرستمي عامّة والتيهرتي خاصّة وسمحت في التآم الجراح التي كانت تسببها الانقسامات وعلى الرغم من تعدد الاتجاهات الدينية والعرقية إلاّ أنّ المجتمع كان يعيش في سلم وأمان وينقل لنا ابن الصغير صورة عن ذلك التسامح الديني والتعايش السلمي حتّى في أواخر أيام الدولة الرستمية في قوله: "ومن بالبلد من فقهاء الإباضية وغيرهم لم يطالب بعضهم بعضا ولا سعى بعضهم بعضا، وكنت مساجدهم عامرة وجامعهم يجتمعون فيه، وخطيبهم لا ينكرون عليه شيئا، إلاّ أنّ الفقهاء تناجت المسائل فيما بينهم... ومن أتى إلى حلق الإباضية من غيرهم قربوه وناظروه ألطف مناظرة، وكذلك من من أتى من الإباضية إلى حلق غيرهم كان سبيله كذلك."[64]

إنّ هذا التسامح المذهبي والنمو السريع لمدينة تيهرت وسيرة عبد الرحمن بن رستم وعدله بين المواطنين دون تمييز كانت عوامل أساسية شجّعت العديد من التجار للهجرة إلى العاصمة فتوافد الناس من كلّ الأمصار و أقاصي الأقطار، فما من أحد ينزل بها من الغرباء إلاّ استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم[65].

مع مرور الزمن تعقّدت البنية الاجتماعية وأصبحت تتركّب من خليط من الأجناس القبائل البربرية والعرب والعجم، أمّا القبائل البربرية من لماية ونفوسة ومزاتة وسدراتة ولواتة فكانت تمثّل العصب الأساسي للدولة منذ نشأتها، ولكن كانت للماية ونفوسة منزلة متميزة عند الأئمة الرستميين نظير ما قدمتاه في خدمة مصالح الدولة. فلماية تعدّ الحجر الأساس لتأسيس الدولة، ونفوسة كانت تقوم بتسيير شؤون الدولة. وأمّا العرب فيبدو أنّهم وفدوا من أقطار مختلفة فمنهم الحنفية والمالكية. فأمّا العجم فأغلب الظنّ كانوا من الفرس، و ربّما كان انتساب الدولة إلى الرستميين عاملا مشجعا لهجرتهم إلى تيهرت[66].

64. ابن الصغير: المصدر السابق، ص: 102.

65. المصدر نفسه، ص31.

66. احسان عباس: المجتمع التاهرتي في عهد الرستميين، الأصالة ع: 45، مطبعة البعث، قسنطينة 1977، ص26.

ومع ازدياد الثروات ونمو التجارة الخارجية ولا سيّما مع بلاد السودان الغربي ظهرت طبقة كبيرة من العبيد والخدم، وكان أغلب هؤلاء يشتغلون في المزارع والبسـاتين[67].

ويفهم من كتاب أخبار الأئمة الرستميين أنّ المجتمع التيهرتي كان ينقسم إلى طبقتين هما:

<u>وجوه البلد أو الخاصّة:</u> ربّما كانت في البداية تعتمد في تمييزها على النسب أو العلم، لكن نمو الملكيات و تزايد موارد الثروة خلق طبقة يُعتمد في تمييزها على الثراء، وغالبا ما تجتمع العوامل الثلاثة في تمييز أفراد هذه الفئة. وينتمي إلى هذه الفئة مشايخ من الإباضيين أو غيرهم و العجم والعرب[68].

<u>العامّة:</u> كانت تمثّل الأغلبية من السكّان ومعظم هذه الطبقة من أصحاب الدخل المتوسط أو من ذوي الملكيات الصغيرة وكثير من أفرادها لم يكتسبوا علما ولا فقها، ولا شكّ أنّ الفقراء والمحتاجين كانوا ينتمون إلى طبقة العامّة، ولكننا نعلم أنّ عبد الرحمن بن رستم قد وفّر أسباب التكفّل بهذه الفئة ممّا جعل عددها ينقص باستمرار لاسيما مع ازدهار الاقتصاد وتوفر فرص العمل، ولا بدّ أنّ بروز طبقة من الأغنياء ذات الثراء الفاحش وتعدّد الفتن الداخلية جعل هذه الفئة تتكاثر من جديد[69].

باستطاعة الباحث أن يميّز ثلاثة أنواع من الاستيطان في المدن الرستمية و لا سيما في العاصمة:

- فهناك الاستيطان الحضري ويشمل سكان المدينة على اختلاف انتماءاتهم وأجناسهم.
- وهناك الاستيطان القبلي المستقر وتدخل تحت هذا الإطار كلّ القبائل المحيطة بالمدينة من جهاتها المختلفة ومنها لواتة ومطماطة وزناتة وهوارة.

67. المرجع نفسه، ص27.
68. المرجع نفسه، ص28–30.
69. المرجع نفسه، ص29.

– وأخيرا الاستيطان القبلي المتنقل وتمثله القبائل التي تقصد أحواز المدينة في فصل الربيع طلبا للمرعى والكلأ ومنها مزاتة وسدراتة[70].

V- العلاقات مع الدول المجاورة:

لقد فضل الرستميون انتهاج سياسة حسن الجوار مع كل الدول المجاورة لها سواء كانت جدودها متاخمة لأراضيها (الدولة الأغالبة، ودولة الأدارسة) أو كانت قريبة من أراضيها ولديها مصالح مشتركة معها (ودولة بني مدرار، ودولة الأمويين بقرطبة). وعلى الرغم من الاختلاف المذهبي بين تلك الدول المتجاورة فالأغالبة سنيون، والرستميون إباضيون، والأدارسة شيعيون، والمدراريون صفرية، إلاّ أنّ العلاقات السائدة فيما بينها كانت في أغلب الأحيان حسنة، ولم تشر المصادر التاريخية إلى اعتداء دولة على جارتها.

1. العلاقة مع الأغالبة :

لم يستثني الرستميون من هذه السياسية حتى دولة الأغالبة التي كانت تمثل الخلافة العباسية في بلاد المغرب، فلقد برزت بوادر تلك السياسة منذ تولي عبد الرحمن بن رستم كرسي الإمامة، وجسّد فعلا تلك الإرادة القوية لضمان الاستقرار للمنطقة بعقد اتفاق مع أبي حاتم بن قبيصة بن المهلب سنة 171 هـ / 737 م[71]، ولقد واصل خليفته عبد الوهاب بن عبد الرحمن نفس السياسة الخارجية مع جيرانه الأغالبة، وذلك بتجديد نفس المعاهدة[72].

وما يؤيّد تلك العلاقة الحسنة التي كانت تربط تيهرت بالقيروان ذلك الموقف الإيجابي الذي وقفه عمال الإمام أفلح بن عبد الوهاب فيّ بلاد الجرد مع زيادة الله الأول ضدّ خصمه ومعارضه منصور الطنبدي[73].

70. احسان عباس: المرجع السابق، ص25.
71. ابن خلدون: العبر، ج: 6، ص 228.
72. السلاوي: الاستقصاء، ج: 1، ص120
73. جودت عبد الكريم: المرجع السابق، ص78.

وتتعدى سياسة حسن الجوار التي انتهجتها الدولتان المتجاورتان من عدم التدخل في الشؤون الداخلية لكل دولة إلى الدفاع المشترك، فقد تحالف عامل الإمام الرستمي أبي اليقظان على جبل نفوسة أبو منصور مع الأغالبة لمواجهة العباس بن أحمد بن طولون عندما أراد الزحف نحو بلاد المغرب سنة 267 هـ / 880 م فتمكنوا من إلحاق الهزيمة به[74].

ولكن إبراهيم بن الأغلب (261-289 هـ / 874-904م) لم يحافظ على ذلك الصفاء الذي ساد العلاقة بين الدولتين طيلة قرن من الزمن، فقام بمحاربة الإباضيين بقيادة عامل الرستميين على جبل نفوسة أفلح بن عباس في واقعة مانو التاريخية سنة 283 هـ / 896 م[75].

يبدو أنّ الحادثة التي أوردها البلاذري[76] ونقلها عنه العديد من المؤرخين، والتي تتعلق بحادثة بناء مدينة العباسية بالقرب من تيهرت من قبل محمد بن الأغلب سنة 239 هـ / 853 م، وقيام أفلح بن عبد الوهاب بتخريبها وتدميرها، ليس فيها شيء من الحقيقة باعتبار أن المصادر الإباضية لم تشر لا من قريب ولا من بعيد إلى هذه الواقعة رغم أهميتها التاريخية بالنسبة للتاريخ الإباضي، وحتى مؤرّخ الدولة الرستمية ابن الصغير لم يتعرض إليها ولو بإشارة خفيفة، كما أن العلاقات السائدة بين الدولتين الأغالبة والرستمية كانت جدّ حسنة إلى حدّ أنّ معارض الإمام أفلح بن عبد الوهاب نفاث بن نصر–حسب ما نقله الشماخي–اتهم الإمام أفلح بالعيش في رفاهية وبالتقاعس في محاربة المسوّدة[77].

وانطلاقا مما ذكرناه يبدو لنا أنّ الأمر قد اختلط على البلادري.

74. الشماخي: المصدر السابق، ص225.
75. الدرجيني: المصدر السابق، ج :1، ص89.
76. البلادري: فتوح البلدان، تحقيق محمد رضوان، ط:1، المطبعة الرستمية القاهرة 1932، ص 236.
77. الشماخي: المصدر نفسه، ص193

2. العلاقة مع بني مدرار:

إنّ التاريخ المشترك بين الإباضية والصفرية في صراعهما ضدّ الولاة الأمويين في إفريقية سيؤدّي بالضرورة إلى رسم علاقات جيدة بين الدولتين الناشئتين الدولة الرستمية من جهة والدولة بني مدرار من جهة ثانية، وقد زاد في توطيد تلك العلاقة زواج اليسع بن مدرار بابنة عبد الرحمن بن رستم أروى[78]. ولا بدّ أنّ العلاقات الاقتصادية والتبادلات التجارية كانت مشجعة لاستمرار سياسة حسن الجوار بين الدولتين.

3. العلاقة مع الأدارسة:

لقد ساد جو من الهدوء والطمأنينة والتعايش السلمي بين العاصمتين تيهرت وفاس، ولعل السبب المباشر في رغبة الجارين على تشجيع تلك العلاقة القائمة على جسن الجوار العامل السياسي المشترك المتمثل في الوقوف في صفّ المعارض أمام العدو المشترك الخلافة العباسية، كما تعدّ الدولة الرستمية حاجزا مانعا أمام أي هجوم محتمل على أراضي الأدارسة من قبل أمراء الأغالبة الذين يعدّون ممثلين للخلافة العباسية في بلاد المغرب بغية القضاء عليهم[79]. وقد زاد في إعطاء نفس لتلك العلاقة الحسنة التواصل التجاري بين الدولتين الجارتين.

ولكن Cheikh Bekri يشير إلى تدهور العلاقات بين الرستميين والأدارسة، وذلك إثر حادثة عسكرية بين الرستميين وقبائل زناتة الخاضعة للحكم الإدريسي سنة 173 هـ / 789 م[80]، التي لم يخضع فيها الرستميون. وقد أكّد ذلك ابن تاويت حيث أشار إلى أنّ بعض جيوب قبيلة زناتة سئمت تلك الحروب العديدة التي كان يخوضها الإمام الرستمي الثاني عبد الوهاب ضدّ خصومه، فعرضت عليه الانضمام إلى إمارة الأدارسة فأبى[81].

78. ابن خلدون: المصدر السابق، ج: 6، ص268.
79. محمد عيسى الحريري: المرجع السابق، ص203.
80. Cheikh Bekri Le Kharidjisme .... p: 103
81. ابن تاويت: دولة الرستميين، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد 1957، ص117.

ويفهم من قول ابن تاويت أنّ تلك القبائل الزناتية كانت خاضعة للسلطان الإد ريسي.

4. علاقة الرستميين بدولة الأمويين بالأندلس:

تعود العلاقات الأولى بين الطرفين إلى واقعة فرار عبد الرحمن الداخل بنفسه اتجاه بلاد المغرب ن ويبدو أن قبائل المغرب الأوسط قدّمت له يد المساعدة في أحلك الظروف وقد أسار إلى ذلك بوضوح المقري نقلا عن ابن عبد الحكم في قوله: «وآل أمره في سفره إلى أن استاجر ببني رستم ملوك تيهرت من المغرب الأوسط.»[82] وبالرغم من أنّ الدولة الرستمية لم تتأسس بعد في هذه الفترة، لكن ما يفهم من قول المقري أنّ عبد الرحمن الداخل تلقى مساعدة من قبل القبائل التي اعتنقت المذهب الإباضي.

بسبب الحروب المتواصلة بين الأخوة في سبيل اعتلاء العرش الأموي في الأندلس، لجأ عبد الله إلى تيهرت طالبا يد المساعدة من عبد الوهاب بن رستم الذي يبدو أنه لم يستجيب لطلبه وذلك حفاظا على العلاقة الطيبة التي تربط إمارته بأمويي قرطبة، فلم يشأ التورط في الشؤون الداخلية، وربما كان صراعه مع خصومه سببا في عدم الاستجابة. وقد ظل عبد الله مقيما في تيهرت[83].

لقد أرسل عبد الوهاب وفدا رسميا يضمّ أبناءه الثلاثة: دحيون وعبد الغني وبهرام لمقابلة الخليفة الأموي عبد الرحمن بن الحكم الذي استقبلهم بحفاوة كبيرة مما يدلّ على العلاقات الحميمية التي تربط البلدين، ويشير ابن تاويت إلى أنّ الهدف من الزيارة كان سياسيا والقصد منه تجديد العلاقة الودية مع حكام قرطبة[84]، وقد اختلف المؤرخون حول تاريخ وصول الوفد إلى قرطبة،

82. المقري (شهاب الدين أبو العباس): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب تحقيق محي الدين عبد الحميد، القاهرة، ج: 4، ص 28.

83. جودت عبد الكريم: المرجع السابق، ص131.

84. ابن تاويت: المرجع السابق، ص116.

ولكن من المرجح أنّ تلك الزيارة تمّت في الأيام الأخيرة لحياة الإمام عبد الوهاب أي في سنة 207 هـ / 822 م حيث ينقل إلينا بعض المؤرخين خبر وصول عبد الغني الذي نجى من الغرق إلى تيهرت بعد وفاة أبيه[85].

وتؤكّد تلك التهانئ التي أرسلها الإمام أفلح بن عبد الوهاب إلى عبد الرحمن بن الحكم بمناسبة انتصاره على النورمانديين سنة 230 هـ / 844 م[86] على تلك العلاقة الودية التي كانت تربط الدولتين.

85. ماريا خيسوس: «محمد وعبد الرحمن بن رستم في قركبة»، مجلة الأصالة، ع: 45، مطبعة البعث، قسنطينة 1975، ص16.

86. Cheikh Bekri: Le Kharidjisme p. 99.

الحياة الاقتصادية

الحياة الاقتصادية

لقد كان اختيار الموقع الجغرافي الذي شيدت فيه العاصمة الرستمية تيهرت صائبا من الناحية الاستراتيجية، حيث ساعد هذا الموقع كثيرا في دفع وتطوير عجلة الاقتصاد الرستمي، فهي تقع في منطقة تمتاز أراضيها بالخصوبة وبوفرة مياهها، كما تتربّع المدينة في مكان يتوسط التل والصحراء، وعلى هذا أصبحت تيهرت همزة وصل بين المنطقتين ونقطة تقاطع الطرق التجارية التي تمتدّ شرقا وغربا وجنوبا وشمالا.

كما سمحت سياسة حسن الجوار التي كرسها الأئمة الرستميون مع جيرانهم دولة بني مدرار والأغالبة والأدارسة والدولة الأموية بالأندلس وحتى مع أهالي السودان الغربي بإقامة علاقات اقتصادية طيبة وتفعيل الحركة التجارية في بلاد المغرب الإسلامي كله، لتصبح بذلك العاصمة تيهرت قطبا ومركزا اقتصاديا هاما ابتداء من النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة إلى غاية نهاية القرن الرابع الهجري حيث أخذ فلول تيهرت ينطفئ. وبفضل تلك الحركة التجارية الكبيرة صار المغرب الإسلامي يؤدي دورا رياديا في الحركة التجارية العالمية وذلك إلى غاية القرن الرابع عشر الميلادي حيث تمكن الأوربيون من اكتشاف طريق الأطلس من جهة، والمماليك الذين تمكنوا من جهة أخرى الاتصال بموارد الذهب عن طريق إفريقيا الوسطى[1].

وتشير كل المصادر التاريخية من جهة إلى الازدهار الاقتصادي الذي عمّ بلاد المغرب الإسلامي خلال النصف الثاني من القرن الثاني والقرن الثالث الهجري وبالخصوص في ربوع الدولة الرستمية، ولكنها من جهة أخرى تسكت عن تفاصيل ذلك النمو الاقتصادي لتبقى غير معروفة لدينا.

1. عبد القادر جغلول : مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم والوسيط، تر فضيلة الحكيم، دار الحداثة، بيروت 1982، ص 82-88.

و نتصوّر من خلال ما نقله ابن الصغير[2] أنّ ذلك الازدهار الذي عاشته الدولة الرستمية كان سريعا جدًا إلى درجة أنّ العاصمة تيهرت انتقلت في ظرف زمني قصير قدّره بنحو ثلاث سنوات أو أكثر بقليل من قرية صغيرة تتقبّل التبرعات من إخوانهم الإباضية بالمشرق إلى مدينة غنية ومزدهرة وقوية يهابها الأعداء، وهذا لا يتأتى بطبيعة الحال إلاّ بالرخاء الاقتصادي الذي جاء بفضل تنشيط الزراعة وإعطاء دفع للحركة الصناعية وتفعيل الحركة التجارة الداخلية والخارجية.

1. الزراعة :

يبدو أنّ الرستميين بدأوا يشتغلون بالزراعة بمجرد استقبالهم لتلك التبرعات التي قدمت إليهم من إخوانهم الإباضية بالبصرة، فيشير ابن الصغير إلى تلك الحيوية التي مسّت المجال الزراعي بشكل كبير فيقول : «فشرع الناس في إحياء الموات وغرس البساتين وإجراء الأنهر واتخاذ الرحى والمستغلاّت.»[3]، ولا بدّ أنّ خصوبة أراضي المنطقة قد ساهمت بشكل كبير في دفع الفلاحين إلى الاستثمار في الزراعة.

واشتهرت تيهرت العاصمة الرستمية بمراعيها الواسعة وبأراضيها الخصبة، ويعود ذلك لكثرة مصادر مياهها وتنوعها، إذ تجري فيها أنهار نذكر منها على سبيل المثال نهر مينة، ولا شك أنّ لهذا لعامل الطبيعي أثر كبير في النهوض بالقطاع الزراعي و تنميته.

وممّا يدلّ على وفرة الإنتاج الزراعي وخاصة الحبوب تلك الرواية التي ساقها الدرجيني في كتابه طبقات المشايخ حول أبي مرداس مهاصر أحد العلماء الإباضية في جبل نفوسة والذي كان ينتقل في كلّ موسم حصاد إلى تيهرت، حيث يقوم بجمع ما تبقى في الأراضي المزروعة من حبوب ويجمع ما مقداره نفقة سنة كاملة، وكان يقوم بهذا العمل بعد أن يحصد الناس زرعهم، ويجمع اللاقطون السنابل وترعى مواشي الرعاة[4].

2. ابن الصغير : المصدر السابق، ص

3. المصدر نفسه، ص 31.

4. الدرجيني : المصدر السابق، ج : 2، ص 293.

ومما يدل أيضا على غزارة الانتاج إنتاج الحبوب تلك المجموعة الكبيرة من الرحى التي نصبت حسب ابن الصغير في تلونت عند منبع نهر مينة[5].

ويتّضح من هنا أنّ زراعة الحبوب شملت أراضي واسعة من حوالي تيهرت وأحوازها وكان الإنتاج جدّ وافرا.

وإلى جانب الحبوب امتازت تيهرت بغرس الأشجار المثمرة فابن حوقل يشير إلى أنّ المنطقة تنتج ضروبا من الغلاّت[6]، وأمّا البكري فيذكر أنّ بها جميع الثمار ويشير إلى أنّ سفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسنا وطعما ويسمّى بالفارس[7].

لم تكن الزراعة مقتصرة على أراضي العاصمة فقط، بل اشتهرت مناطق أخرى مثل جبل نفوسة وورجلان ووادي ريغ بإنتاجها للحبوب والكروم والتين والزيتون والنخيل وغيرها من الثمار، كما امتازت المناطق الغربية من البلاد بإنتاج الحبوب والكروم والزيتون[8].

وفيما يخصّ نوع ملكية الأراضي الذي كان سائدا في ربوع الدولة الرستمية فالمصادر التاريخية كانت شحيحة ولم تشر لا من قريب ولا بعيد إلى هذا الموضوع، ولكن ما يمكن فهمه من تلك المصادر أنّ ملكية الخاصّة أو العائلية كانت هي السائدة[9].

2. الصناعة :

لا بدّ أنّ العاصمة تيهرت كان بها عدد هائل من الحرفيين والصناعيين، فبناء القصور الذي يشير إليه ابن الصغير[10] يستلزم تظافر جهود عدد كبير من الحرفيين ؛ من النجارين والحدادين والبنائين المهرة والنقّاشين.

5. ابن الصغير: المصدر نفسه، ص 74.
6. ابن حوقل: أبو القاسم النصيبي: صورة الأرض، ط:2، مطبعة بريل: ليدن 1938، ص87.
7. البكري المصدر السابق، ص67.
8. إبراهيم بحاز : المرجع السابق، ص 146–155.
9. المرجع نفسه، ص 155.
10. ابن الصغير : المصدر السابق، ص 53.

واستنادا إلى ما تمّ العثور عليه من قطع فخارية في الحفرية التي أجراها الباحثان G. Marçais و D. Lamarre في تيهرت في سبتمبر 1941 م ونشرت نتائجها سنة 1946 م[11] يتّضح أنّ صناعة الفخار كانت من بين أبرز الصناعات وهذه القطع تقودنا إلى الجزم بوجود أفران بالمدينة. ويبدو أنّ هذه الصناعة كانت منتشرة في العديد من الأقاليم التابعة للدولة الرستمية.

كما أنّ الاهتمام بالزراعة وتربية المواشي يستدعي إنشاء صناعة خاصة بالأدوات الزراعية. وتؤدّي زيادة الإنتاج الزراعي والحيواني أيضا إلى فتح المجال لبروز عدد من الحرف كالطحن والدباغة وصناعة النسيج والخياطة، ولا نستبعد أيضا وجود صناعة تحويلية مثل إنتاج زيت الزيتون.

3. التجارة :

نشطت التجارة بشكل ملفت للانتباه فابن الصغير يشير إلى أنّ تيهرت أصبحت قبلة للتجار من كل أقطار العالم الإسلامي بعد بضع سنوات تقريبا من تأسيسها فيقول في هذا الصدد : «... فأقاموا على ذلك سنتين أو أقل من ذلك أو أكثر والعمارة زائدة والناس والتجار من كل الأقطار تاجرون.»[12]

ويُفهم أيضا من ابن الصغير[13] أنّ الرخاء الذي كان قد عمّ تيهرت بخاصة والدولة الرستمية بعامة وجلب العديد من الأثرياء كان نتيجة ذلك الاستقرار السياسي الذي سعى الأئمة الرستميون على توفيره بنشر سياسة التسامح بين أفراد المجتمع، وعدل الإمام في رعيته والعمل على المساواة بين أفرادها، واتباع سياسة حسن الجوار مع الدول المجاورة وعلى هذا أصبح المرء يأمن على ماله أثناء تنقله للتجارة. كلّ هذه العناصر شجعت لممارسة التجارة في جو ملائم.

11. Marçais et D. Lamarre Tihert Tagdemt, in R. Africaine, T : XI, Alger 1946, pp 56-26

12. ابن الصغير : المصدر السابق، ص 31-32.

13. المصدر نفسه، ص 32

أ- التجارة الداخلية :

قد نشطت التجارة الداخلية وشارك فيها كل الرعايا بمختلف اتجاهاتهم وانتماءاتهم سواء كأفراد مثل أبو محمد الصيرفي وابن الواسطي وتشير المصادر التاريخية إلى امتلاك أحد أثرياء البلد ابن وردة مقدّم العجم بمفرده سوقا بأكملها، الذي ابتنى سوقا سمّاه باسمه[14]، أو كجماعات مثل النفوسيون والعرب والفرس، وهكذا كانت تيهرت مركزا هاما للمبادلات التجارية التي كانت تتمّ بين منتجات التل والهضاب العليا والصحراء، وسوقا كبيرة لتبادل السلع المختلفة القادمة من كلّ البلدان.

وتستلزم المبادلات التجارية بطبيعة الحال التعامل بالنقود التي كانت بمثابة السفير الذي يحمل الشعار السياسي للدولة. ولكن إلى حدّ الآن لم يتمّ العثور على أي نقد يؤكّد ضرب الدولة الرستمية للسكّة، كما جاءت الإشارات حول العملة المتداولة في المصادر التاريخية قليلة جدّا فبفضل ابن الصغير[15] عرفنا أنّ الدينار والدرهم كانا العملتان الرئيسيتان في الدولة الرستمية.

ومما لا شك فيه أنّ الرستميين قد ضربوا سكة خاصة بهم على غرار الإمارات المجاورة لها مثل الأغالبة ودولة بني مدرار، وبما أنّ الإباضية قد ضربوا سكّتهم في عهد أبي الخطاب عندما أسّس الدولة الإباضية الأولى في طرابلس سنة 140 هـ / 757 م[16].

وعلى هذا فلا يعقل إذا أن تستغني الدولة الرستمية القوية اقتصاديا والتي قامت في الأصل لجمع شتات الإباضية بعد سقوط دولة ابن الخطاب من سك عملة تحمل شعارها السياسي.

14. المصدر نفسه، ص 54.

15. المصدر نفسه، ص 35، 98.

16. يوجد ضمن مجموعة نقود إفريقية العربية بتونس دينار لأبي الخطاب يعود إلى سنة 141 هـ، وفلس لعبد الرحمن بن رستم يعود إلى سنة 142 هـ.
ينظر صالح بن قربة: المسكوكات المغربية منذ الفتح الإسلامي الى سقوط دولة بني حماد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص 130–132.

ب- التجارة الخارجية :

كانت تربط الدولة الرستمية بكلّ الدول المجاورة لها علاقات اقتصادية وتجارية هامّة ولكن علاقاتها التجارية مع بلاد السودان الغربيي كانت أقوى وأمتن[17]. فموقع مدينة تيهرت الاستراتيجي سمح للدولة الرستمية من أن تؤدّي دورا بارزا في التجارة العالمية فتحكمت في تجارة الذهب والعبيد، ونشط بفضل ذلك المحورين جنوب–شمال، وغرب–شرق. وقد جلبت شهرة تيهرت الاقتصادية العديد من التجار من كلّ بقاع العالم الإسلامي، فيقول ابن الصغير : «واستعملت السبل إلى بلد السودان وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة»[18].

وتربط تيهرت بالعواصم المغربية الأخرى طرق تجارية برية فأمّا القوافل التي تتجه نحو القيروان فكانت تمر عبر الأوراس والزاب أو تأخذ طريقا صحراويا في اتجاه ورقلة عبر جبال عمّور ثم إلى القيروان، وأمّا القوافل المتجهة نحو فاس فتأخذ طريقا يمر على مملكة ابن مسالة الهواري ومنها إلى مدينة يقال لها يلل ومنها إلى يزرج ثم إلى مدينة تلمسان، وتستمر القوافل مسيرتها همو نمالته، وأمّا طريق تيهرت سجلماسة فتمر عبر مدينة أوزكا. ولا بدّ أنّ طريقا بحريا كان يربط أيضا تيهرت، عن طريق الموانئ الثلاثة المعروفة لدى المؤرخين، ويتعلق الأمر بموانئ تنس ومرسى فروخ (مرسى الدجاج) ومرسى الخرز وربما استعمل أيضا مرسى مدينة وهران بعاصمة الدولة الأموية بالأندلس قرطبة بموانئها المشهورة مثل إشبيلية والجزيرة الخضراء وبلنسية وطرطوشة[19].

17. ينظر جودت عبد الكريم : المرجع السابق، ص 292.
18. ابن الصغير : المصدر نفسه، ص 32.
19. حول موضوع العلاقات التجارية بين الدولة الرستمية والدول المجاورة لها يرجى لعودة إلى: جودت عبد الكريم : المرجع السابق.

ولعل أهمّ تجارة خارجية كانت باتجاه بلاد السودان الغربي وكانت القوافل تسلك ثلاثة طرق أحدهما غربيا يمرّ بسجلماسة في اتجاه اودغست[20] التي يصف البكري سكانها بأنهم من إفريقية ويتكوّن غالبيتهم من قبائل برقجانة ونفوسة ولواتة وزناتة ونفزاوة البربرية[21]، وهي القبائل التي كانت تشكل المجتمع الرستمي وغانا، وهكذا كان تجار تيهرت يتنقلون بسلعهم المختلفة بين اودغست وغانا، واستفادوا كذلك ممّا تقدمه الحركة التجارية بين المنطقتين. وأما الطريقان الآخران فشرقيان ؛ يمرّ الأول على مدينة وارجلان (ورقلة) في اتجاه كوكو، والثاني ينطلق من جبل نفوسة في اتجاه كوكو أيضا مرورا بغدامس وتادمكة و في اتجاه كوار كانم مرورا بزويلة[22]، وهكذا ساهم تجار تيهرت بشكل كبير في تفعيل الحركة التجارية نحو أودغست وتنقلوا بينها وبين غانة وكوكو وجاو.

لقد كان ملوك بلاد السودان الغربي في حاجة ماسّة إلى مادّة الملح، لذا كانت هذه المادّة هي الأساس في المبادلات التجارية إذ يتمّ بيعها بالمقايضة بالذهب أو العبيد[23].

وإضافة إلى الذهب كان الرستميون يستوردون من بلاد السودان الغربي الأحجار الثمينة والشبّ والعنبر وريش النعام وغير ذلك من المواد[24].

---

20. لقد كان الغموض يسطر على تحديد موقع اودغست إلى أن اكتشف لآفورغ La Forgue آثارها سنة 1939 م ويرى أنها تقع إما جنوب ركيز أو في أفولي، ويرى دولافوس Delafosse أنها تقع على بعد 60 كلم شمال شرق كيفا ويحدّد بارت Barthe موقعها على خط طول 10–11 غربا خط عرض 18–19 شمالا.
ينظر جودت عبد الكريم : المرجع السابق، ص 260.
21. البكري : المصدر السابق، ص 158.
22. إبراهيم بحاز : المرجع السابق، ص 210–223.
23. جودت عبد الكريم : المرجع السابق، ص 261–263.
24. إبراهيم بحاز : المرجع نفسه، ص 226.

ولقد أولى التجار الرستميون اهتماما بالغا لتجارة العبيد فجلبوا عددا كبيرا منهم إلى درجة أنهم صاروا يشكلّون طبقة لا بأس بها في المجتمع التيهرتي[25]، كما لا نستبعد قيام هؤلاء التجار بتوزيع هذه البضاعة في الحواضر الإسلامية الأخرى خارج التراب الرستمي.

ثالثا – الإنتاج الفكري

لا شك أنّ المجهودات التي بذلها الأئمة الرستميون في سبيل تنشيط الحركة الفكرية في ربوع دولتهم من تشييد للمساجد والدور العلمية وجلب الكتب من المشرق واهتمامهم بالعلم وأهله كان له أثره الكبير في تفعيل المجال العلمي، وهذا لا يدهشنا كثيرا إذا ما علمنا أنّ من بين الشروط التي تؤخذ بعين الاعتبار عند اختيار الإمام ومبايعته أن يكون عالما ورعا، وهذا ما لمسناه حقيقة عند أغلب الأئمة الرستميين الذين تداولوا على العرش ولا سيّما الأوائل منهم، فالإمام عبد الرحمن بن رستم (160–171 هـ / 776 -787) كان ضمن حملة العلم الذين أخذوا العلم عن شيخ الإباضية الثاني في البصرة أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة الذي أجاز لعبد الرحمن الاجتهاد دون غيره ممن كانوا معه[26].

ولكن ابن الصغير لم يشر إلى أي كتاب قام بتأليفه الإمام الرستمي الأوّل عبد الرحمن بن رستم، إلاّ أنّ المصادر الإباضية نسبت إليه تصنيفين أحدهما في التفسير[27]، والثاني يشمل خطبه[28].

وقد سار الإمام الثاني عبد الوهاب بن عبد الرحمن (171–208 هـ / 787-823 م) على خطى أبيه فكان عالما ورعا ومصلحا، وينسب إليه ابن الصغير كتابا بعنوان «مسائل نفوسة الجبل»، حيث كتبت إليه نفوسة في مسائل

25. إحسان عباس : المرجع السابق : ص 27.
26. الشماخي أبو العباس أحمد بن سعيد :المصدر السابق، ص 144.
27. الرجيني أبو العباس أحمد بن سعيد المصدر السابق، ص 471.
28. إبراهيم بحاز : المرجع السابق، ص 266.

أشكلت عليها فأجابها[29]، وكان هذا الكتاب مشهورا عند معشر الإباضية ومتداولا بينهم. وقد كان شغف عبد الوهاب كبيرا بالعلم و الاستزادة منه إلى درجة أنه صرف مبلغا عظيما يقدر حسب أبي زكرياء بألف دينار في سبيل جلب الكتب من المشرق[30].

وتشير المصادر الإباضية إلى أنّ الإمام الثالث أفلح بن عبد الوهاب (208-258 هـ / 823-871 م) كان قبل توليه عرش الإمامة يجلس بين يديه ثلاث حلقات في علم الفقه والكلام واللغة[31] وقد ترك جوابات حول مسائل فقهية، وقد نقل الوارجلاني[32] عن هذا الإمام روايات في الحديث وهذا دليل آخر على الدرجة التي بلغها في علم الحديث كما ضلع في الشعر.

وقد سار على درب الأئمة السابقين الإمام اليقظان بن افلح (261-281 هـ / 874-894 م) الذي تنسب إليه المصادر الإباضية كتابا في الاستطاعة يقع في أربعين مجلدا[33]، ولكن إلى حدّ اليوم لم يصل إلينا شيئا من هذا الكتاب، ولعل الاكتشافات الأثرية المستقبلية ستفاجئنا بإحدى هذه الذخائر المفقودة. ويُعدّ ما نقله ابن الصغير عن هذا الإمام دليلا واضحا على اهتمام أبي اليقظان البالغ بالعلم والعلماء فيقول : «أنّ أبا اليقظان بن أفلح ضرب سرادقه مرّة خارج المدينة فلمّا علم الناس بذلك خرج إليه الفقهاء والقراء وضربوا أبنيتهم حول سرادقه»[34].

إنّ هذا الجو العلمي السائد في الأسرة الرستمية الحاكمة لا بدّ أن يكون له تجاوبا من قبل أفراد المجتمع فبرز علماء أجلاء في مختلف مجالات العلوم النقلية والعقلية.

---

29. ابن الصغير المصدر السابق، ص 39.
30. أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر : المصدر السابق، ص 102-103.
31. الشماخي المصدر السابق، ص 193-222.
32. إبراهيم بحاز : المرجع نفسه، ص 269.
33. الباروني سليمان بن عبد الله : المرجع السابق، ص 315.
34. ابن الصغير : المصدر نفسه، ص 83.

وفي ظلّ هؤلاء الأئمة العلماء الذين ساهموا بقسط كبير في تفعيل النشاط الثقافي بفكرهم واجتهادهم في جلب أسباب التطور العلمي، برزت داخل المجتمع التيهرتي مجموعة لا بأس بها من العلماء الفطاحل في مختلف العلوم والمعارف فحتى بعض الأئمة الرستميين حسبما يُفهم من المصادر الإباضية كانت لهم مساهمات علمية أغنت مكتبة تيهرت المعروفة باسم المعصومة.

وسنحاول هنا الوقوف عند بعض المجالات العلمية لتبيين ذلك النشاط الفكري السائد في ظلّ الدولة الرستمية والتعرّف على أولئك العلماء الذين حملوا مشعل العلم والنور والدور الضي كانوا يؤدّونه لتفعيل الجو الثقافي.

1. التفسير :

كان اهتمام العلماء المسلمين كبيرا بالقرآن الكريم كونه المصدر الأساسي للتشريع الإسلامي، ومن هنا فقد تفرّغ بعضهم لتفسيره قصد تيسير وتسهيل فهمه على العرب. وبما أنّ المجتمع الرستمي كانت معظم تركيبته البشرية من الجنس البربري فقد كان احتياجه أكبر إلى فهم ما جاء في القرآن الكريم لذا فقد انصرف اهتمام بعض العلماء إلى هذا العلم فبرز فيهم محمد بن يانس الذي أرسلته قبيلة نفوسة بدعوة من الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن ليناظر المعتزلة في تيهرت[35].

وقد قام لواب بن سلام بتفسير جزء من سورة الشورى في كتاب شرائع الدين ويبدو أنّه اعتمد في تفسيره على الحسن البصري وابن عباس[36].

وتنسب المصادر الإباضية كما ذكرنا ذلك سابقا لعبد الرحمن بن رستم تأليفا في علم التفسير كان متداولا في قلعة بني حماد وقد تنافس على اقتنائه الإباضية من الوهبية والنكارية[37]، ولكن يبقى هذا الكتاب إلى حدّ الساعة من المصادر المفقودة.

35. الدرجيني : المصدر السابق، ج : 1، ص 57-58.
36. إبراهيم بحاز : المرجع السابق، ص 299-300.
37. أبو زكرياء : المصدر السابق، ج : 2، ص 471.

ويعدّ كتاب هود بن محكم الهواري[38] الكتاب الإباضي الوحيد الذي وصل إلينا في علم التفسير، والذي يعود إلى القرن الثالث الهجري، وقد قام الأستاذ شريفي بلحاج بتحقيق هذا المؤلف الذي لا بد أنه أمدنا بمعلومات عن المنهج التفسيري المتبع لدى العلماء في تلك الفترة[39].

2. الحديث :

لم نجد إشارة في المصادر الإباضية إلى مؤلفات إباضية في مجال علم الحديث تعود إلى الفترة التاريخية التي نحن بصدد البحث فيها، ويبدو أنّ الإباضية لم يعطوا اهتماما كبيرا لهذا العلم ولكن يمكن أن نستشف بعض أسماء رواة الحديث من خلال السلسلة التي نقلها الشماخي صاحب السير فيذكر مثلا الشيخ أبي المنيب محمد بن يانس الذي روى عن حملة العلم[40].

وأمّا علماء الحديث من غير الإباضية فقد قدّمت تيهرت العديد من حفاظ الحديث وروّاته، نذكر منهم أبو عبد الرحمن بكر بن حماد بن سمك بن إسماعيل الزناتي التيهرتي الذي ولد بتيهرت سنة 200 هـ / 815 م وتوفي بها سنة 296 هـ / 909 م، وقد روى عنه القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن، ولا شك أنّ بعض العلماء الذين أخذوا العلم عن هذا العالم كانوا من المحدّثين ومنهم ولده عبد الرحمن وقاسم بن إصبع الذي ألّف مسند مسدد بن مسرهد عن بكر وأبو عبد الله محمد بن صالح القحطاني المعافري الأندلسي وقاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد التيهرتي التميمي الذي كان من جلساء بكر بن حماد وقد رحل إلى الأندلس سنة 317 هـ / 929 م، وأقام بها حتى وافته المنية.

38. هود بن محكم عالم عاش في القرن الثالث الهجري، وأخذ لعلم عن أبيه الذي كان قاضيا في عهد الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم. ينظر : جمعية التراث : معجم أعلام الإباضية، مج : 4، المطبعة العربية، غرداية 1999، ص 926-927.

39. هود بن محكم الهواري : تفسير كتاب الله العزيز، تح : شريفي بلحاج، 4 ج، دار الغرب الإسلامي، ط:1، بيروت 1990.

40. الشماخي : المصدر السابق، ص 580.

ومن علماء الحديث كذلك أبو سعيد بحيج بن خداش توزري الذي انتقل إلى نفزوة وتوفي بها سنة 296 هـ / 909 م، وقد روى الحديث عن محمد بن سحنون وروى عنه أبو العرب محمد بن أحمد بن محمد بن تميم صاحب طبقات علماء إفريقية[41].

3. الفقـه :

يبدو أنّ التنافس كان على أشدّه بين المذاهب الإسلامية داخل تيهرت حسبما أشار إلي ذلك ابن الصغير في قوله: «ومن البلد من فقهاء الإباضية وغيره لم يطالب بعضهم بعضا ولا سعى بعضهم ببعض.. إلى أنّ الفقهاء تناحبت المسائل فيهم»[42]، فذلك التنافس كان على شكل مناظرات بين الإباضية والمالكية والحنفية والمعتزلة والصفرية، ولا شك أنّ هدا الجو التنافسي كان له أثره في توجيه اهتمام العديد من العلماء إلى هذا العلم فبرز منهم الكثير.

لقد كان من بين المهتمين بالفقه الإمام الثاني عبد الوهاب بن عبد الرحمن الذي ألّف كتابا سماه مسائل نفوسة يجيب فيه على أسئلة النفوسيين التي جاءت في حوالي ثلاثمائة سؤال وقد كان هذا الكتاب مشهورا لدى الإباضيين ومتداولا بينهم[43].

وعلى نفس المنهج ألّف الإمام أفلح بن عبد الوهاب كتاب الجوابات الذي يجيب فيه كذلك على أسئلة فقهية وما زال هذا الكتاب عبارة عن مخطوط يشتمل على ثمانين ورقة[44] ولا زال ينتظر أن تمد إليه أيادي الباحثين لتحقيقه.

41. إبراهيم بحاز : المرجع السابق، ص 309-310.
42. ابن الصغير : المصدر السابق، ص 102.
43. ينظر عبد الوهاب بن عبد الرحمن : كتاب مسائل نفوسة، تح : إبراهيم طلاي، المطبعة العربية، غرداية 1991
44. مخطوط لم يحقق بعد موجود في مكتبة الحاج صالح لعلي ببني يزقن

وبفضل ابن الصغير مؤرّخ الدولة الرستمية استطعنا التعرف على مجموعة من الفقهاء الإباضيين ويأتي في مقدمتهم الفقيه أبو عبيدة الأعرج الذي قال عنه أنّه كان عالما بالفقه والكلام و الوثاق و النحو واللغة ويفهم منه أنّه كان معاصرا للإمام أبي اليقظان (261–281 هـ / 874-894 م)[45].

وقد نبغ في مجال الفقه أيضا حسب ابن الصغير العالم الإباضي عبد العزيز بن الأوز وعيسى بن فرناس النفوسي وأبو الربيع سليمان الذي جرت بينه وبين ابن الصغير مناظرات كلامية وفقهية وعثمان بن أحمد بن يحياج[46].

ولا يمكن أن ننسى في هذا المقام جهود الفقهاء الذين عاصروا الدولة الرستمية في بداية ظهورها مثل الفقيه محمد بن عبد الحميد بن مغيطر الجناوني الذي يعدّ أوّل من رحل من إباضية المغرب نحو المشرق للتفقه في المذهب الإباضي ليصبح مرجعا أساسيا للفتوى في المغرب، ومن بعده كان دور حملة العلم كبيرا مثل إسماعيل بن درار الغدامسي الذي أدّى دورا هاما في التعليم ونشر الفقه الإباضي، وأيضا أبو داوود القبلي النفزاوي الذي أخذ عنه الإمام عبدالوهاب العلم[47].

لم تكن تيهرت المدينة الرستمية الوحيدة التي كانت تحتضن الفقهاء فقد ظهر في جبل نفوسة عدد من الفقهاء كأبي زكرياء التوكيتي[48] الذي عرّف من قبل الدرجيني بقوله 'الجبل هو أبو زكرياء وأبو زكرياء هو الجبل، وقال عنه أنه كان عالما لكل الفضائل ومعلما لكل ناهل[49]، وكان من علماء الخمسين الأولى

45. ابن الصغير : المصدر نفسه، ص 84.

46. ينظر المصدر نفسه، ص 81–110.

47. الشماخي : المصدر السابق، ص141–144

48. أبو زكرياء التوبكيت نسبة إلى توكيت خربة جنوب تمزدة بالرحيبات بليبيا وبها ضريحه وقد ذكره الدرجيني ضمن علماء الطبقة الخامسة (200–250 هـ).
ينظر أبو القاسم عمرو بن مسعود الكباوي : الربيع بن حبيب محدثا وفقيها، رسالة ماجستير، المطبعة العربية، غرداية 1994، ص 179.

49. الدرجيني : المصدر السابق، ج 2، ص 179.

من المائة الثانية للهجرة، وقد عاصر هذا الفقيه أبو مرداس بن مهاصر السدراتي العالم في أحكام الدماء. ومن فقهاء جبل نفوسة أيضا نجد أبا ميمون الجيطالي وأبا محمد بن الخير الونوريفي[50] الذي اشتهر بعلمه حتى صار يضرب به المثل فقيل : «من ضيع كتابا كمن ضيع خمسة عشر عالما مثل عبد الله بن الخير»[51]. ويعدّ أبو حفص عمروس بن فتح المساكني النفوسي[52] من أبرز فقهاء جبل نفوسة في القرن الثالث الهجري، وقد قام بنسخ مدونة أبي غانم الخرساني، وله عدّة تصانيف في الفقه والعقيدة وخاصة في الأصول ولفروع منها «الدينونة الصافية» و «رسالة الرد على الناكثة وأحمد بن حسين»[53].

كما برز في وارجلان (ورقلة) فقهاء آخرون نخصّ بالذكر هنا الفقيه يعقوب بن سيلوس بن سهلون السدراتي المعروف بالطرفي الذي عاش خلال القرن الثالث الهجري، ووصفه الدرجيني بذي الجهادين الأكبر والأصغر وذكره كذلك بقوله «العالم الفقيه الفطن النبيه ن اليقظان الذكي ن الورع الزكي»[54]. إنّ معظم هؤلاء العلماء لم يتركوا مصنفات أو بالأحرى لم تصل إلينا مؤلفاتهم، و ممّا لا يدعو إلى الشك فيه أنّهم ساهموا في إثراء الفقه الإباضي باعتبارهم من العلماء الأوائل الذين نشروا المذهب في ربوع المغرب الإسلامي.

وكان إلى جانب هؤلاء الفقهاء الإباضيين طائفة أخرى من الفقهاء غير الإباضيين ومنهم أبو مسعود وأبو دنون الكوفيين وأبو الفضل العباس بن محمد الصوّاف الغدامسي الذي توفي سنة 309 هـ / 921 م[55].

---

50. نسبة إلى تين ونزريف بجبل نفوسة بليبيا، أخذ العلم عن أبي ذر أبان بن وسيم الويغوي النفوسي عاش خلال القرن الثالث الهجري، وقتل مع جمع من العلماء في واقعة مانو (283 هـ/896 م) ينظر : جمعية التراث : المرجع السابق، مج : 3، ص 555.

51. الدرجيني : المصدر نفسه، ج : 2، ص 293–295.

52. عاصر هذا العالم الإمام أبي اليقظان وتولى القضاء في جبل نفوسة في ولاية أبي منصور إلياس في أواخر أيام الدولة الرستمية وقتل في معركة مانو سنة 283 هـ / 896 م.
ينظر : جمعية التراث : المرجع السابق، مج : 3، ص 671–672.

53. جمعية التراث : المرجع السابق، مج : 3، ص 671–673.

54. المصدر نفسه، ج : 2، ص 331–332.

55. إبراهيم بحاز : المرجع السابق، ص 322–333.

لا يمكن أن ننصرف من الحديث عن الفقه دون التعرّض إلى القضاء لما له من علاقة وطيدة به لا سيما إذا علمنا أنّ من شروط تولي مهمّة القضاء بلوغ درجة عالية في الفقه والفتوى، ولا شك أنّ أعظم قاض شهدته الدولة الرستمية عمروس بن فقح النفوسي الذي تولّى القضاء في جبل نفوسة في عهد الإمام أبي حاتم ويصف الدرجيني هذا العالم بالبحر الزاجر المبرّز أوّل السبّاق وهو الآخر الضابط الحافظ.. الخ[56] وله تصانيف عديدة في الفقه منها في الأمور التي لا يسع الناس جهلها[57].

4. النحـو :

لاشك أنّ اهتمام الإباضية باللغة العربية قد تولّد عنه نبوغ بعض العلماء في مجالاتها المختلفة، ولكننا لا نعرف عن هؤلاء الكثير اللهم إلاّ ما صنّفه الزبيدي من النحويين الرستميين خطأ مع العلماء القرويين أمثال الأخوين إبراهيم المهري وأبو عبد الملك المهري ابني قطن[58].

كما أشار الزبيدي أيضا إلى أبو محمد عبد الله بن محمد المكفوف النحوي من مواليد مدينة سرت التي كانت تابعة للدولة الرستمية وقد قال في شأنه : «كان من أعظم خلق الله بالعربية والغريب والشعر وتفسير المشروحات... وله كتب كثيرة أملاها في اللغة العربية وله كتاب في العروض يفضّله أهل العلم على سائر الكتب المؤلّفة فيها وتوفي سنة 308 هـ / 920 م»[59].

56. الدرجيني : المصدر السابق، ج : 2، ص 320.
57. إبراهيم بحاز : المرجع السابق، ص 327.
58. الزبيدي أبو بكر محمد بن الحسن : طبقات النحويين واللغويين، تح : أبو الفضل إبراهيم، ط : 1، القاهرة 1954، ص 249-250.
59. الزبيدي أبو بكر : المصدر السابق، ص 249.

5. الأدب العربي :

يبدو أنّ هذا المجال لم يحض بالاهتمام مقارنة بالعلوم الدينية وربما يعود السبب إلى توجّه الأئمة الرستميين نحو تشجيع العلوم الدينية على حساب العلوم الأخرى باستثناء الإمام أبي بكر بن أفلح الذي نقل عنه أ،" كان محبا للآداب والأشعار[60].

أ- النثر :

إنّ ما نعرفه عن فنّ النثر في هذه المرحلة لا يتعدّى مجموعة من الخطب أو الوصايا أو الرسائل الديوانية أو أقاصيص تعليمية أو حكم، ومن أشهر الرسائل الديوانية رسالة الإمام عبد الوهاب إلى جبل نفوسة في مسألة خلف بن السمح[61]، كما أنّ للإمام أفلح بن عبد الوهاب مجموعة من الرسائل من هذا النوع وجّهها إلى رعيته وعماله بشأن قضية نفاث بن نصر الذي بعث إليه شخصيا رسالة أخرى[62]. وامتازت كلّ هذه الرسائل بإيجاز العبارة وصحة الألفاظ والتسلسل المنطقي وتكشف عن مقدرة الأئمة البلاغية.

ب- الشعر :

لا بدّ أنّ الجو الثقافي الذي كان سائدا في تيهرت قد ألهم قارحة العديد من الشعراء الذين ترعرعوا و عاشوا في كنف الدولة الرستمية، ولكن لم يصل إلينا إلاّ النزر اليسير من القصائد ولعل الفتن والحروب الكثيرة التي شهدتها الدولة لا سيّما في أواخر عهدها كانت السبب في اندثار ذلك التراث. ومن بين ما وصل إلينا قصيدة للإمام أفلح بن عبد الوهاب تقع في أربعة وأربعين بيتا يمدح فيها العلم وأهله ويحث على طلبه فيقول في مطلعها :

60. ابن الصغير : المصدر السابق، ص 63.
61. الباروني : المرجع السابق، ج : 2، ص 196–198
62. المرجع نفسه، ج : 2، ص 262–267.

العلم أبقى لأهل العلم آثـارا xxx يريك أشخاصهم روحا وأبكارا

حي وإن مات ذو علم وذو ورع xxx ما مات عبد قضى من ذاك أوتارا

ثم يقول:

أكرم بهم من ذوي الفضل المبين لـهم xxx سرّ كسى مظلمات الأرض أنوارا

ما ارتاب في فضلهم أولوا العقول وهم xxx إرث النبوءة في أيديهـم صـارا

ويقول كذلك :

أشدد إلى العلم رحلا فوق راحلة xxx وصل إلى العلم في الأفاق أسفارا

واصبر دلج الأعنـاق معتسفـا xxx مهامه الأرض أحزانا وأقطـارا

حتى تزور رجالا في رحـالهم xxx فضلا فأكرم بأهل العلـم زوّارا [63]

ومن الشعراء كذلك نذكر سعيد بن واشكل التيهرتي الذي عاش خلال القرن الثالث الهجري، وقد نشأ في تيهرت وانتقل إلى مدينة تنس في آخر حياته، ولكن لا توجد لدينا معلومات وافية عن أدبه إلاّ قصيدة يقول في بدايتها :

63. ينظر الباروني : المرجع السابق، ج : 2، ص 247-254.

نأى النوم عني واضمحلت عرى الصبر ××× وأصبحت عن دار الأحبة في أسر

وأصبحت من تاهرت في دار معزل ××× وأسلمني مرّ القضاء من القدر[64]

ويعدّ بكر بن حماد بن سمك بن إسماعيل الزناتي التيهرتي من أعظم وأشهر شعراء الدولة الرستمية على الإطلاق، وقد ولد بتيهرت سنة 200 هـ / 816 م، ونشأ فيها ثمّ انتقل إلى القيروان، وبعدها رحل إلى المشرق. وقد كان له فيها اتصال بالخليفة العباسيي المعتصم بالله، و هناك كانت له مقابلات مع بعض الشعراء أمثال حبيب وضريع ودعبل وعلي بن الجهم، وأخيرا رجع إلى مسقط رأسه حيث وافته المنية 296 هـ / 909 م، وقد ترك قصائد عديدة في مختلف فنون الشعر ومنها قصيدة يمدح فيها حاكم مدينة جراوة أبا العيش عيسى بن إدريس قائلا :

سائل زواغة عن طعان سيوفه ××× ورماحه في العارض المتهلهل

وديار نفزة كيف داس حريمها ××× والخيل تمرغ في الوشيج الذبل

غشى مغيلة بالسيوف مذلّة ××× وسقى جراوة من نقيع الحنظل[65]

وكان له في فن الرثاء قصيدة رائعة يندب فيها ابنه عبد الرحمن الذي قتل وهو برفقته ويقول متلهفا على ابنه :

64. محمد رمضان شاوش : إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، مج 2، ط: 1، داود بريكسي، تلمسان 2002، ص 28.

65. الباروني : المرجع السابق، ص 90–97.

بكيت لي الأحبة إذ تولوا xxx

ولو أمي هلكت بكوا عليا

فيا نسلي بقاؤك كان ذخرا xxx

وفقدك قد كوى الأكباد كيا

كفى حزنا بأني منك خلو xxx

وأنك ميت وبقيت حيا(66)

ولبكر بن حماد كذلك قصائد في الزهد والمواعظ ومن ذلك ما روي عنه ابن اللباد قوله :

لقد جمحت نفسي فصدت وأعرضت xxx

وقد مرقت نفسي فطال مروقها

فيا أسفي من جنح ليـل يقودهـا xxx

وضـوء نهـار مازال يسوقها

ويقول عن الموت هذه الأبيات المقتطفة :

زرنا منازل قوم لن يزورونا xxx

أنـا لفي غفـلة عمـا يقاسونا

لو ينطقون لقالوا الزاد ويحكم xxx

حل الرحيل فما يرجو المقيمونا(67)

66. المرجع نفسه، ص 92.

67. المرجع نفسه، ص 94-95.

الجزائر من سقوط الدولة الرستمية الى تأسيس الدولة الحمادية

الدولة الفاطمية

بعد أن كان بلاد المغرب الإسلامي منقسما إلى دويلات أو إمارات (الأغالبة والرستميون والأدارسة والمدراريون)، أصبح بفضل مجهودات وحنكة ودهاء الداعية الفاطمي ومن بعده الخلفاء الفاطميين موحدا سياسيا من برقة شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، والمتتبع لمجريات الأحداث في المنطقة في عهد الدولة الفاطمية يتأكّد أنّ هذه الوحدة السياسية لم يتم تحقيقها بسهولة تامة- رغم كونها كانت كذلك في بداية انتشار النفوذ الفاطمي – وذلك بسبب تلك الحركات المعارضة للحكم الفاطمي ولسياسته المتعسفة اتجاه أهالي المنطقة بفرض المذهب الشيعي الإسماعيلي بالقوة وإثقال كاهلهم بالضرائب المتنوعة سياسة.

أولا: الدعوة الإسماعيلية وقيام الدولة الفاطمية

انحصرت زعامة الدعوة العلوية في أواخر العهد الأموي وأوائل العصر العباسي في شخص أبي جعفر الصادق الذي يعدّ الإمام السادس عند طائفة الإمامية[1] وقد اتبع أسلوب الحذر والسرية في نشر آرائه المذهبية فانشغل بالتعليم فكثر أتباعه الذين أصرّوا من بعده على الثورة ضدّ الحكم العباسي والتي انتهت وأخمدت سنة 169 هـ / 785 – 786 م وهكذا شدّد الخلفاء العباسيون عليهم الخناق، وفاة جعفر الصادق انقسمت الطائفة بعد إلى قسمين :

1. تدعو هذه الطائفة إلى حصر الإمامة في سلالة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عن طريق ابنه الحسين، ولا تكون إلا في الأعقاب ن لكن بعض من الإمامية حاذوا عن هذا المبدأ بعد وفاة أ بي جعفر الصادق سنة 148 هـ

1. الإمامية الموساوية وهم أنصار و أتباع موسى الكاظم بن أبي جعفر الصادق، ومن بعده دعوا إلى إمامة ابنه علي رضا ثم إلى أعقابه حتى محمد المنتظر بن الحسن العسكري الإمام الثاني عشر الذي اختفى في سرداب في مدينة سامراء، ولم يقف أتباعه عليه من أثر، وأصرّ أنصاره على انتظار عودته ومن هنا عرفت هذه الطائفة باسم الإثنا عشرية

2. الإمامية الإسماعيلية وهم أنصار وأتباع إسماعيل بن جعفر الصادق، وبما أنّ إسماعيل توفي سنة 145 هـ قبل وفاة أبيه، فقد دعا هؤلاء إلى مبايعة ابنه محمد بن إسماعيل بالإمامة وذلك طبقا لمبادئ تعاليم مذهبهم. وقد عرفت هذه الطائفة باسم الإسماعيلية، كما لقبوا كذلك بالباطنية[2] [3] ولأهمية النسب لدى بعض المنتمين إلى هذه الطائفة ذوو التوجه السياسي والمذهبي، فقد لقبوا أنفسهم بالفاطميين، في حين حرص بعض المؤرخين من معارضيهم على إطلاق اسم العبيديين عليهم[4].

اعتمد محمد بن إسماعيل في نشر دعوته على رجل اسمه ميمون القداح، ولما توفي محمد خلفه ابنه عبد الله الرضي الذي اتخذ السلمية مستقرّا له، وجعل عبد الله بن ميمون داعيا له، وبعد وفاته تولى الإمامة الإسماعيلية ابنه أحمد الذي اعتمد هو الآخر على داعية أبيه عبد الله بن ميمون.

وقد اتخذ الإسماعيلية سلمية مركزا لنشر دعوتهم، بحيث اعتبرها أئمتهم دار هجرة في عهد المأمون[5].

---

2. لقبوا بهذا الاسم لقولهم بالتأويل والعمل السري ويعتقدون أن لكل عمل باطن ولكل تنزيل تأويل ينظر الشهرستاني أبو الفتح محمد بن عبد الكريم : الملل والنحل، طبعة بيروت، ص 2-29.

3. محمد جمال الدين سرور: تاريخ الدولة الفاطمية، دار الفكر العربي، القاهرة د. ت، ص19-21.

4. موسى لقبال : دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1979، ص 203.

5. المقريزي تقي الدين أحمد بن علي : اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفاء، ج :1، تحقيق. جمال الشيال، القاهرة 1971، ، ص 60.

تشير بعض المصادر التاريخية إلى أنّ الداعيتين أبا سفيان (الحسن بن القاسم) و الحلواني (عبد الله بن محمد بن علي) قد نفذا كلّ التعليمات التي أعطيت لهما بأمانة عند وصولهما سنة 145 هـ / 762 م إلى مدينة مرجاجنة[6]. فنزل كلّ واحد منهما في منطقة بعيدا عن الآخر، فاستقرّ أبو سفيان بموضع قريب من مدينة تاالة[7]، وبنى فيها مسجدا ليكون نقطة انطلاق دعوته، وقد كرّس أبو سفيان وقته للدعوة عن طريق التعليم حتى أصبح المسجد قبلة للعديد من سكان المنطقة، وهكذا داع صيته بين السكان وأصبحت بفضله مرجاجنة والأربس ونفطة مراكز للمتشيّعين لآل البيت[8].

وأما الحلواني فقد توغّل في أرض البربر بعيدا عن مرجاجنة وما جاورها حتى استقر على هامش أرض كتامة وبنى هناك مسجدا للعبادة ولنشر تعاليم المذهب الشيعي، وأصبح ذلك الموضع مقصد سكان النواحي من قبائل كتامة وسماطة. وبفضل جهود هذا الحلواني أقبلت قبيلة كتامة فيما بعد على مناصرة الداعية الفاطمي أبي عبد الله الشيعي وكوّنت النواة الأولى للجيش النظامي الفاطمي[9].

لما انعقد مجلس الدعاة الفاطميين برئاسة شيخهم محمد بن إسماعيل بن الحسن قبل سنة 288 هـ / 890 م تمّ إعلان قرب ظهور الإمام المهدي، وعلى هذا أمر دعاة مذهبه بالانتشار في كامل الأقطار الإسلامية، واختير من بين أولئك الدعاة أبو عبد الله الشيعي للقيام بمهمة الدعوة في أرض قبائل كتامة بالمغرب الأوسط.

6. مدينة قديمة في منطقة الكاف بتونس ولا تبعد عن الأربس وسبية بأكثر من مرحلة.
7. مدينة في شمال غرب تونس في منطقة قريبة من الحدود التونسية الجزائرية.
8. موسى لقبال : المرجع نفسه، ص 218 – 219.
9. موسى لقبال : المرجع السابق، ص 220.

وعلى منوال أسلوب الدعاة الفاطميين ارتأى أبو عبد الله[10] التوجه أوّلا إلى اليمن للتدرب على يد ابن حوشب) أبو القاسم رستم بن حسين بن فرح النجار الكوفي الأصل (كبير دعاة محمد الحبيب، وفي سنة 279 هـ وصلت إلى ابن حوشب نبأ وفاة داعيتي المغرب، فأمر أبا عبد الله الشيعي بالتوجّه نحو بلاد المغرب، مبينا له أنّ أرض المغرب ممهدة له فقد حرثاها من قبله الحلواني وأبو سفيان، فاختار أبو عبد الله السير نحو مكة لملاقاة حجاج قبيلة كتامة الذين اصطحبوه إلى مصر التي لم يطل فيها مقامه، حيث ما لبثوا أن تعلقوا به لما شهدوا فيه من الورع والزهد، واستطاع بحيله أن يستحوذ على نفوسهم ويقنعهم بما كان يدعو إليه، فطلبوا منه مرافقتهم إلى موطنهم ما دام هدفه من الرحلة طلب العلم، فاستجاب لطلبهم وعندما وصل إلى القيروان أصرّ على المكوث فيها لبضع الوقت ووعدهم على الالتحاق بهم قريبا. لم يضيع أبو عبد الله وقتا طويلا في القيروان حتى تٰعرّف على أخبار القبائل، وتأكد من كثرة عدد قبيلة كتامة وشوكتها بين القبائل البربرية الأخرى، وعدم استكانتها لسلطان الأغالبة ثم قرر بعد وقت قصير في ربيع الأول من سنة 280 هـ / يونيو 993 م الالتحاق بأصحابه الكتاميين.

---

10. لفهم من المصادر التاريخية أنّ وصول أبو عبد الله إلى منصب الداعي تم بمحظ الصدفة، حيث كان من أنصار التشييع لما اتصل به بشيخ الإسماعيلية آنذاك والذي لم يكن سوى محمد بن إسماعيل بن الحسن المعروف بمحمد الحبيب، فقد كان أبو عبد الله يمني الأصل من مدينة صنعاء وقد أخذ العلم في بلده من على أئمة المذهب الشيعي وعندما التقى به الشيخ الجليل وهو يصلي ويقرأ القرآن الكريم في ضفاف نهر دجلة بالعراق ناقشه في تفسير بعض ما كان يقرأه من الذكر الحكيم، وبأسلوب المناظرة والحوار تمكن من الاستحواذ على قلبه، ولما تيقن الشيخ إلى تعطش أبي عبد الله في الاستزادة من علمه دعاه إلى بيته حيث وجد أبو عبد الله شابا وهو ابن الشيخ وإلى جانبه أحد عشر وجلا من الدعاة، فضمه الشيخ إلى المجموعة ليصبحوا اثني عشر نقيبا.

ينظر : المقريزي : اتعاظ الحنفا، ج : 1، ص 55–59، ينظر كذلك ابن عذارى أبو عبد الله المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج. س كولان وليفي بروفنسال، ج: 1، بيروت، ص 134.

نزل أبو عبد الله الشيعي ضيفا على الشيخ الكتامي[11] في قرية إيكيجان[12، 13] التي عرفت عند بعض المؤرخين ومنهم ابن خلدون باسم فجّ الأخبار[14] ولكن صاحب الاستبصار يشير إلى أنّ أبا عبد الله نزل موضعا يسمى زلدوي[15].

وعلى طريقة سابقيه اتخذ أبو عبد الله مسجدا في القرية التي استقرّ فيها، ومن هناك بدأ ينشر تعاليم المذهب الشيعي الإسماعيلي، ويبشر الناس بقرب ظهور المهدي المنتظر. ولقد كلّلت مجهودات أبي عبد الله بنجاح منقطع النظير، حيث دانت له قبيلة كتامة كلّها بالولاء والطاعة، ودخلت تحت رايته قبائل عديدة.

وعندما رأى أبو عبد الله تزايد عدد أتباعه عزم على إنشاء دار للهجرة، فوقع اختياره على قرية تازورت لتكون قاعدة لنشاطه، فابتنى فيها قصره ومن حوله دور قواده وأتباعه[16].

---

11. لم تحدّد المصادر التاريخية شخصية السيخ الكتامي، لذلك أصبح من الصعوبة بمكان التعرف على اسمه، لكن القاضي النعمان أورد قائمة تضمّ أسماء الزعماء الثلاثة الذين التحقوا بالدعوة الفاطمية وهم : هارون بن يونس المسالتي الذي كان يلقب بشيخ المشايخ، والحسن بن هارون الغشمي الذي دعا أبا عبد الله إلى بيته في تازورت، وأبو يوسف ماكنون بن ضبارة الأجاني (ينظر النعمان أبو حنيفة بن محمد بن منصور (ابن حيون المغربي) : افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، تونس 1975، ص 73 – 74)، ومن خلال هذه القائمة يمكن أن يكون الشيخ الذي ناصر أبا عبد الله أحد هذه الشخصيات الثلاثة.

12. قرية من قرى منطقة القبائل الصغرى التي تمتدّ بين سهل سطيف والبحر، وبين قسنطينة شرقا وبجاية غربا، ونسب إليها أبو عبد الله فعرف عند بعض المؤرخين تحت اسم «الايكيجاني».

13. القاضي النعمان : المصدر نفسه، ص 73.

14. ابن خلدون : العبر، ج : 4، ص 67.

15. الناصري أبو العباس أحمد بن خالد الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء 1954، ص 203.

16. القاضي النعمان : المصدر نفسه، ص 117.

1. من هي قبيلة كتامة ؟

تنحدر قبائل كتامة من فرع البرانس، وربّما أخذت اسمها من جدّها الأعلى كتام أو كتم بن برنس بن مازيغ بن كنعان بن حام.

وقد وردت حول كلمة كتامة تفسيرات عديدة أهمها :

وردت في بعض النقوش[17] البيزنطية التي تعود العهد كلمة ucutumani أو ucutamii البيزنطي وتشير إلى وجود مجموعة من سكان قبائل جنوب منطقة البابور يعيشون في إطار نظام اجتماعي ويحكمهم أمير وقد ذكرت ملمة شبيهة لها عند بعض الجغرافيين والمؤرخين الإغريق، إنما تدل على أصول قبيلة كتامة[18]. ويعتبر بعض المؤرخين الأوربيين أن كلمة ucutumani :

– أما الرواية الثانية حول أسل كتامة فجاء ذكرها على لسان المؤرخين العرب مثل الطبري، حيث يشير إلى أن هذه القبيلة ذات أصل عربي حميري قدموا مع جيش التبابعة ثمّ استقروا في المنطقة واندمجوا مع أهاليها بالمصاهرة أو الولاء أو الحلف[19]. غير أن ابن خلدون يعتبر غزو التبابعة لبلاد المغرب من الروايات الواهية[20].

ويعتقد ابن خلدون أن جميع بطون كتامة ترجع إلى فرعين أساسيين هما غرسن بن كتام و يسودة بن كتام.

فمن غرسن تتفرع بني يناوة وبني ينطاسن وبني أيان وآخرين، ومن يسودة تتفرع متوسة ودنهاجة وفلاسة ووريسن[21].

17. من بين هذه النقوش نقش عثر عليه في فج فيدول الذي يقع بين ميلة وجيجل أي في بيئة كتامة الأصلية ؟ ينظر : E. F Gautier : Le Passe de l'Afrique du Nord، Bougie، Jijeli، Philippeville، Setif، Constantine 1869 - 1875

18. Ch. Courtois ; Les Vendales et l'Afrique، Paris 1955، p; 121

19. ابن جرير الطبري(أبو جعفر محمد) : تاريخ الأمم والملوك، ج :1، ط: الحسينية 1326 هـ ص 105.

20. ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة، الجزائر 1982، ص 16–18.

21. ابن خلدون عبد الرحمن : العبر، ج : 6، ص 301–302.

وتستقر هذه القبيلة في المنطقة الممتدة من القالة شرقا إلى دلس غربا وحدّها الجنوبي جبال النمامشة وجبال الحضنة، وتتضمن هذه المنطقة قرى كثيرة ومدنا منها : قالمة، سوق أهراس، سطيف، إيكيجان، ميلة و قسنطينة[22].

2. هيكلة الدعوة وقيام الدولة الفاطمية :

شكّل أبو عبد الله أنصاره في هيئة جيش نظامي وكان بمثابة نواة للجيش الفاطمي، وأطلق على عناصره اسم «المؤمنون» وجعل على رأسهم أبا يوسف ماكنون بن ضبارة الأجاني[23]، ثم قسّم قبائل كتامة سبعة أقسام جعل لكل قسم منهم عسكرا يترأسه مقدما[24].

وقد خصّ لكل جيش من الجيوش السبعة ديوانا (بيت المال) خاصا تأتيه الأموال من الغنائم الحربية والزكاة، وهكذا أصبح لأبي عبد الله الشيعي جيشا نظاميا يقوم بتسييره كقائد أعلى واتخذ لقواته شعارات دينية تتماشى ودعوته الدينية[25]، و يمكن أن يعتمد على هذا الجيش في توسعاته المستقبلية، وحقيقة فبفضل هذا الجيش تمكن خلال سنتين فقط من إخضاع العديد من القبائل، ولم يبق أمامه سنة 289 هـ سوى إخضاع أمراء الأغالبة.

ففي البداية نجح أبو عبد الله في الاستيلاء على ميلة التي عيّن يوسف بن ماكنون واليا عليها، وكان الردّ الأغلبي بقيادة محمد بن أبي العباس بن إبراهيم المعروف بالأحول على الداعية الفاطمي سريعا وقويا، حيث استرجع مدينة ميلة وانتصر على قوات أبي عبد الله التي التجأت إلى القاعدة الأولى إيكيجان بعد أن رأت مطاردة ومحاولة جيش أبي الأحول النيل منها، حيث تخلت عن القاعدة الثانية تازورت، وتركتها خاوية لعدم مناعتها وحصانتها.

22. موسى لقبال : المرجع السابق، ص 98-99.
23. ابن خلدون : المصدر نفسه، ج : 4، ص 33.
24. القاضي النعمان : المصدر السابق، ص 123.
25. ابن حماد أبو عبد الله محمد الصنهاجي : أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق محمد البدوي، الجزائر 1984، ص 168.

فقام أبو الأحول سنة 289 هـ / 902 م بتخريبها وحرقها ثم ولى راجعا، وفي طريقه استرجع مدينة ميلة التي جلى منها أنصار الداعية الشيعي بسهولة[26].

وبطبيعة الحال فبعد تخريب دار الهجرة تازورت كان لا بدّ على أبي عبد اله الشيعي إعلان إيكيجان الحصينة بجبل زلدوي دارا للهجرة من جديد، فابتنى فيها قصرا له ثم أمر أعوانه وأتباعه ببناء دورهم من حواليه[27].

وبعد إعادة ترتيب الجيوش تمكن أبو عبد الله من الاستيلاء من جديد سنة 291 هـ / 904 م على مدينة ميلة ثم من بعدها على سطيف.

وبعد الانتصار الذي أحرزه الداعية سنة 292 هـ / 905 م في منطقة قريبة من قاعدته إيكيجان على أقوى جيش سيره زيادة الله تحت قيادة إبراهيم بن حبشي لمحاربته[28]، سار أبو عبد الله نحو بلاد الزاب فاستولى على طبنة وبلزمة وخرّب أسوارهما، ثمّ سيطر على باغاية ومجانة، وهكذا فمع مرور الزمن بدأت تتأكد سيطرة أبي عبد الله على الأراضي الأغلبية، حيث مدّ نفوذه إلى مدينة بونة، وواصل في اقتطاع الأقاليم من إمارة الأغالبة فضمّ قسطيلية إلى الأقاليم الخاضعة لسلطانه. وأخيرا اتجه سنة 296 هـ / 909 م نحو الأربس لملاقاة الجيش الأغلبي المعسكر فيها تحت قيادة إبراهيم بن أبي الأغلب فانتصر عليه، وكان ذلك بمثابة إعلان عن انهيار الدولة الأغلبية التي تأكّد سقوطها بعد فرار زيادة الله وفشل إبراهيم بن أبي الأغلب من القيام مقامه، ودخول أبي عبد الله إلى رقادة في رجب 296 هـ / مارس 909 م[29].

26. ابن خلدون : المصدر السابق، ج : 4، ص 34.
27. المصدر نفسه، ج : 4، ص 34.
28. ابن عذارى : المصدر السابق، ج : 1 ص 138.
29. ابن عذارى : المصدر السابق، ج : 1، ص 204-205.

وهكذا قامت الدولة الفاطمية بفضل مجهودات الداعية أبي عبد الله الشيعي الذي كان له الفضل في إرساء الدعائم الأولى للدولة الفتية، فعهد بولاية القيروان إلى أحد المخلصين من أنصاره وهو الحسن بن أحمد بن علي بن كليب المعروف باسم ابن أبي الخنزير، كما عين أخاه خلف بن أحمد بن علي بن كليب واليا على العاصمة الأغلبية القديمة القصر القديم[30].

وقد أجرى أبو عبد الله الشيعي إصلاحات دينية تتماشى والمذهب الشيعي الفاطمي فأمر أن يزاد في الآذان «حي على خير العمل» بدلا من «الصلاة خير من النوم»، كما أسقط صلاة التراويح في شهر رمضان وأمر بالصلاة على علي كرم الله وجهه بعد الصلاة على الرسول، وكذا على فاطمة والحسن والحسين، وتمّ له ذلك بمعرفة الشيخ محمد بن عمر بن يحي بن عبد الأعلى المروزي[31].

لما استكمل أبو عبد الله استعدادات جيشه قرّر السير سنة 296 هـ / 909 م في جيش عظيم إلى عاصمة بني مدرار سجلماسة لاستخلاص الإمام عبيد الله المهدي[32] من سجنه، وفي طريقه دخلت معظم القبائل في طاعته، فعرج نحو العاصمة الرستمية تاهرت التي استسلمت دون مقاومة، فقتل إمامها اليقظان بت أبي اليقظان وبنيه وعين أبو حميد بن دواس بن صولات اللهيصي واليا عليها[33].

---

30. المصدر نفسه، ج : 1، ص 206.

31. المصدر نفسه، ج : 1، ص 207.

32. بعد أن وصلت أخبار نجاح دعوة أبي عبد الله في المغرب خرج الإمام عبيد الله المهدي بن محمد بن حبيب من سلمية سنة 292 هـ / 90؛ م بصحبة ابنه أبي القاسم محمد (القائم بالله) وبعض من خاصته متسترا في زي التجار خوفا من ن ينكشف أمره من قبل العباسيين، وتمكن والي مصر عيسى النوشيري من اكتشاف أمره والقبض ىليه، ثم أطلق سراحه، وانتقل عبيد الله إلى طرابلس حيث كاد أن ينكشف أمره مرّة أخرى وقبض على مرافقه أبو العباس. (أخو الداعية أبو عبد الله) و عندئذ قرر السير إلى أرض كتامة عبر الطيق الصحراوي المؤدي إلى سجلماسة، فمر بقسطيلية و بلاد الجريد و يلاد الزاب و وارجلان إلى أن وصل إلى عاصمة بني مدرار حيث عاش متخفيا في وي التجار، وكان يتصل بأخبار أبي عبد الله سريا حتى قبض اليسع بن مدرار عليه وعلى ابنه بعد أن تعرف على هويتهما. ينظر العريزي : المصدر السابق، ج :1، ص 61–65.

33. المصدر نفسه، ج : 1، ص 153.

واصل أبو عبد الله الشيعي مسيرته المظفّرة نحو المغرب الأقصى دون أن يلقى أدنى مقاومة من أهلها، فانتهى به المطاف إلى سجلماسة في ذي الحجة سنة 296 هـ / أوت 909 م فلقيت دولة المدراريين نفس مصير معاصريهم الرستميين واالأغالبة، ففرّ اليسع بن مدرار خفية مع لعض أهله تاركا مصير عاصمته في يد أبي عبد الله الذي أخرج سيّده ومولاه عبيد الله المهدي وابنه أبي القاسم من سجنهما، وانتقم من أهالي المدينة، حيث أغرمهم وأجلى الكثير منهم إلى خارج المدينة[34]. وأقام أبو عيد الله رفقة مولاه مدّة أربعين يوما في سجلماسة لترتيب الأمور فيها، فعين إبراهيم بن غالب المزاتي واليا عليها[35]، واستعدّ للعودة إلى رقادة التي وصلها في شهر ربيع الثاني سنة 297 هـ / جانفي 910 م ولقي ترحيبا كبيرا من أهلها وأهل القيروان.

ثانيا الحياة السياسية :

وكان إصدار عبيد الله أمرا يدعو فيه بذكر اسمه في خطبة الجمعة مقرونا بلقب الخليفة وأمير المؤمنين في كل من رقادة والقيروان بمثابة إعلان رسمي بقيام كيان الدولة الفاطمية. وذلك بعد القضاء على دولة الأغالبة برقادة، ودولة الرستميين بتاهرت ودولة بني مدرار بسجلماسة وأخيرا القضاء على دولة الأدارسة بفاس.

1. خلافة عبيد الله المهدي (297 – 322 هـ / 910 – 934 م) :

بدأ عبيد الله يمارس سلطاته كخليفة مباشرة يعد ما أنقده أبو عبد الله من سجنه في سجلماسة، لقد اعتمد عبيد الله منذ البداية على سياسة الحزم والحسم المبنية على شرعية الحكم المهداوي الفاطمي، فلقد أحاط عبيد الله نفسه بكبار الموظفين الذين يسهرون على تسيير شؤون الدولة حسب أوامره، ويأتي على رأس هؤلاء الموظفين الحجاب الذين يختارهم من المقربين وأهل الثقة جعفر بن علي المشهور باسم الحاجب، وأبو الحسن طيب بن إسماعيل المعروف بالحاضن، وإلى جانب الحاجب كان هناك رئيس ديوان البريد وقلّد

34. ابن عذاري : المصدر السابق، ج : 1، ص 153

35. المصدر نفسه، ج : 1، ص 154.

المناصب الأخرى مثل الكتابة والإدارة المالية وحكم الأقاليم أهل الخبرة من رجال الإدارة السابقين ممن عينهم أبو عبد الله من قبل أو من عمال الأغالبة.

لما وصلت الأخبار إلى عبيد الله المهدي عن المؤامرة[36] التي تحاك ضدّه من قبل داعيته أبي عبد الله وأخيه أبي العباس الملقب بالمخطوم وأبي زكي تمام بن معارك الأجاني أمر بقتلهم جميعا، وكان لمقتل الداعية أثر سلبي في نفوس الكتاميين الذين حاولوا تجسيد فكرة إقامة إمام مغربي خاصة لما رأوا بداية توجه عبيد الله نحو تشكيل جيش من المماليك بالإضافة إلى تلقيهم ضربة موجعة في القيروان سنة 299 هـ / 912 م، وقد تزامنت هذه الواقعة مع اتباع سياسة تصفية جسدية ضدّ المتعاطفين مع أبي عبد الله[37].

إن واقعة القيروان[38] جعلت قبيلة كتامة تثور في بلادها ضدّ عبيد الله، ولم يتم التحكم في الوضع وإخمادها إلا بصعوبة كبيرة من طرف ولي العهد أبي القاسم.

وهكذا كان الخلاف بين الإمام المهدي والداعي أبي عبد الله أوّل قضية داخلية خطيرة يواجهها الخليفة الفاطمي بحزم وحسم، ولكنها أدّت إلى قطع العلاقة بين الدولة وعصبيتها قبيلة كتامة التي لم تعد إلى الطاعة وخ دمة الدولة الفاطمية إلا في عهد الخليفة المنصور.

---

36 يذكر ابن عذارى أن أبا عبد الله الشعي انتهز فرصة الاستراحة من عناء الحروب في تنس فدعا زعماء قبائل كتامة للخروج على الإمام عبيد الله المهدي واعتذر لهم عن التصرفات القبيحة الصادرة عن الخليفة والتي لا تشبه في رأيه أفعال المهدي وأبلغهم بإمكانية استدارك الخطأ، وذلك بمحاولة كشف علامات المهدي الموجودة بين كتفي الإمام والتي يعرفها رؤساء الدعاة، ينظر ابن عذارى : المصدر السابق، ج : 1 ص 159.

37 المصدر نفسه، ج : 1، ص 166.

38 تعود أحداث هذه الواقعة التاريخية إلى 299 هـ / 912 م حن وقع انفجار شعبي ضدّ الكتاميين في أسواق القيروان، وانتشر إلى أن عمّ كل رجاء المدينة، فراح ضحية هذه الواقعة حسب ابن عذارى أكثر من ألف رجل من كتامة. وإذا كان السبب المباشر لهذه الحادثة هو النزاع الشعبي، ولكن في حقيقة الأمر كانت ضمن المخطّط الذي أعدّه الخليفة المهدي لتصفية المتعاطفين مع الداعية أبي عبد الله، حيث كان من بين الضحايا بعض كبار الموظفين ينظر ابن عذارى : المصدر نفسه، ج : 1، ص 166.

بعد أن استشعر عبيد الله المهدي بعدم الأمن والاستقرار وسط خصومه في رقادة والقيروان فكّر في إمشاء مقر جديد لحكومته بعيد عن القيروان ويعبّر عن مستقبل زاهر للدولة الفتية، وعلى أساس هذه الفكرة شيّد مدينة المهدية سنة 303 هـ / 916 م[39]، وهكذا انتقل الحكم من رقادة والقيروان إلى العاصمة الجديدة، وقد دعا عبيد الله أبناء زعماء القبائل و الأقاليم ل؟الإقامة في المدينة الجديدة حيث كانوا يلقون الرعاية الكافية باعتبارهم ضيوفا فوق العادة وفي نفس الوقت رهائن يضمن بواسطتها ولاء أولياء أمورهم[40].

كانت الدولة الفاطمية في أيام عبيد الله في حاجة ماسة إلى المزيد من الأموال مع مرور الوقت في سبيل إعداد الجيوش الجرارة التي كانت تعمل باستمرار على استرجاع الأمن والاستقرار إلى ربوع المنطقة كلها بشكل عام، وبالخصوص إلى المغرب الأوسط والأقصى اللذين كانا مسرحا للعديد من الحركات المعارضة للحكم الفاطمي. ولمواجهة هذا الوضع ألزم عبيد الله أتباعه على دفع ضريبة الخمس[41]، كما فرض على الرعية دفع الخراج[42] ولم يتوان الخليفة الفاطمي الأول من تطبيق أسلوب الغرامات والمصادرات، وذلك كشكل من أشكال العقوبات الفردية والجماعية، وإلى جانب الضرائب الإسلامية استحدث المهدي أنواعا جديدة من الضرائب كضريبة التضييع وضريبة الشطور[43].

---

39. ابن الأثير محمد بن عبد الكريم الشيباني : الكامل في التاريخ، ج:8، طبعة بيروت 1967، ص94.

40. ابن عذارى : المصدر نفسه، ج : 1، ص 187.

41. كان أتباع الدعوة الإسماعيلية يدفعون خمس مرتبهم لتمويل الدعوة، ويتم جمع تلك الأموال بواسطة الدعاة ونوابهم، وقد استمرت هذه العملية. في بلاد المغرب حتى في عهد الخلافة الفاطمية وخاصة في بداية أمرها مقابل كسب رضى الإمام. ويرى الإسماعيليون أن قول اله تعالى «أن لله خمسه و للرسول» إنّما يقصد به وجه الله تعالى وثوابه والرسول إذا كان حيا، وبعد وفاته يؤول ذلك إلى الإمام الذي يعدّ من أهل بيته ينظر : النعمان، المصدر السابق، ص 126–131.

42. الخراج هو ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدى عنها، ويدفع المشركون على الأرض التي يستغلونها مبلغا ماليا معينا كل سنة للدولة الإسلامية، ويقدر المبلغ حسب اجتهاد الفقهاء كل عصر، أما الأرض التي اعتنق أهلها الإسلام فلا خراج عليها. ينظر الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب : الأحكام السلطانية والولايات الدينية، القاهرة 1960، ص 146.

43. ابن الأثير : المصدر السابق، ج : 8، ص 66.

2. خلافة القائم بأمر الله (322 - 334 هـ / 934 - 945 م) :

ولد أبو القاسم محمد بن عبيد الله المهدي المعروف بالقائم بالله في سليمية سنة 279 هـ / تسلّم شؤون الخلافة الفاطمية بعد وفاة والده مباشرة في ربيع الأول سنة 322 هـ / مارس 934 م، ولقد واجه الخليفة الفاطمي الثاني ثورات عديدة أثناء حكمه في كل من طرابلس والزاب والأوراس وفي فاس، وذلك أنّ قبضة الفاطميين لم تتحكم بعد نهائيا على الأقاليم الغربية التي كانت تلقى دعما ومساندة كبيرة من قبل حكام أمويي قرطبة (بخاصة في عهد عبد الرحمن الناصر 300 - 350 هـ / 912 - 960 م) في حركاتها ضد الحكم الفاطمي، بداية من البرغواطيين في إقليم تادلا و تامسنا وموسى بن أبي العافية في فاس وانتهاء بثورة زناتة الكبرى بقيادة أبي يزيد مخلد بن كيداد الذي بدأت بوادر حركته تظهر في الأوراس، فتمكن من القضاء على ثورة ابن أبي العافية، واضطر إلى الاستنجاد بالقائد الصنهاجي زيري بن مناد لإخماد ثورة أبي يزيد، ولكنه توفى سنة 334 هـ / قبل أن يقضي عليها ليترك أمرها لخليفته المنصور[44].

3. خلافة المنصور (334 - 345 هـ / 945 - 950 م) :

ولد أبو الطاهر إسماعيل بن أبي القاسم محمد سنة 302 هـ / 914 م بمدينة رقادة، وتولى عرش الخلافة الفاطمية بعد وفاة والده أبي القاسم وعمره لم يتجاوز الثانية والثلاثين، واضطر لكتمان خلافته مدّة خمسة عشر عاما بسبب انتشار ثورة أبي يزيد بحيث وصلت إلى أسوار العاصمة المهدية وضربت عليها حصارا، وهكذا كان المنصور يمارس صلاحياته بصفة ولي العهد مفوض من قبل الخليفة الإمام فكان يراسل موظفيه باسم ولي عهد المسلمين[45]. وحينما قضى على ثورة أبي يزيد أصدر أمرا سنة 336 هـ / 947 م بمخاطبته بلقب أمير المؤمنين، وقبل فترة وجيزة من وفاته سنة 345 هـ / 950 م عيّن المنصور ابنه (أبو تميم المعز) وليا للعهد[46].

44. عامر تامر : المعز لدين الله الفاطمي، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1982، ص 47-50.
45. ابن الأثير : المصدر السابق، ج : 8، ص 455.
46. ابن عذارى : المصدر السابق، ج : 1، ص 334.

لقد واجه المنصور منذ توليه الحكم ثورة أبي يزيد التي قابلها بحزم وحسم فقضى على قائدها ومعاونيه، واتفقت المصادر التاريخية على تصرفات الخليفة المنصور الوحشية اتجاه جثة الثائر أبي يزيد والتشنيع بها، حيث تشير إلى التمثيل بجثته، وحشوها بالتبن، والطواف بها في الأسواق، وصلبها لمدّة على باب المهدية الجنوبي[47].

واحتفالا بانتصاره الكبير الذي حققه ضدّ أبي يزيد وأتباعه أصدر المنصور أمرا في ربيع الأول سنة 335 هـ / أكتوبر 946 م إلى قدام الخادم الصقلابي ببناء مدينة جديدة مقابل رقادة وعلى بعد نصف ميل من مدينة القيروان سماها المنصورية التي نقل إليها مقر الحكم بعد عودته مباشرة من رحلة المغرب سنة 337 هـ / 949 م[48].

ولصد الحركات المعارضة للحكم الفاطمي عمل المنصور منذ توليه الحكم على تقوية الجبهة الداخلية، وذلك بمحاولة استرجاع تلك الثقة و العلاقة الطيبة التي كانت تربط الدولة بأتباعها التقليديين من الكتاميين الذين تمكن أبو يزيد من استمالة بعضهم إلى صفّه، فردّ إليهم الاعتبار، فأظهر هؤلاء استعدادا للعودة إلى الطاعة، وتظهر تلك الدعوة للعودة إلى الطاعة من خلال الكتب التي كان برسلها المنصور إلى قبائل كتامة، ومن خلال خطب الجمعة[49].

وفي إطار تهدئة الأوضاع عمل المنصور على ربط العلاقات بين المغرب الفاطمي والمشرق العباسي وذلك من خلال إجراء اتصالات مع القرامطة بالمشرق سنة 339 هـ / 950 م إرجاع الحجر الأسود إلى موضعه في الكعبة بعد أن خلعوه سنة 317 هـ / 929 م[50].

47. ابن الأثير : المصدر نفسه، ج : 8، ص 441.
48. ابن حوقل : صورة الأرض، ص 74.
49. سعد زغلول : المرجع السابق، ج : 3، ص 206–207.
50. ابن عذارى : المصدر السابق، ج : 1، ص 303.

4. المعز لدين الله (أبو تميم معد)

(345 - 361 هـ / 950 أكتوبر 972 م) :

ولد (أبو تميم معد) الملقب بالمعز لدين الله الفاطمي في مدينة المهدية سنة 319 هـ / 931 م ويعدّ من أشهر الخلفاء الفاطميين فإليه يرجع الفضل في الاستيلاء على مصر و بناء مدينة القاهرة، كما ينسب إلى هذا الإمام وضع وترتيب شؤون الدولة و منظر رسومها، و يعدّ كذلك من المبتكرين، حيث سجل بعض الاختراعات[51].

على الرغم من القضاء على الثورة الزناتية بالمغرب، إلاّ أنّ الصراع مع أمويي قرطبة ظلّ قائما بين مدّ و جزر، وما إن تولى المعز عرش الخلافة الفاطمية حتى أسند مهمة قيادة الجيش الفاطمي إلى القائد العظيم جوهر الصقيلي، و بعد ستّ سنوات اجتاحت هذه جيوشه في ظرف زمني قصير كلّ بلاد المغرب الأقصى، و قد انتقل ذلك الصراع بين الدولتين إلى البحر حيث اصطدم الأسطولان الفاطمي والأموي سنة 344 هـ / 954 م قرب سواحل صقلية و كردّ على هجوم الأسطول الفاطمي على مدينة المرية، قام أسطول عبد الرحمن الناصر بتخريب ونهب بعض سواحل بلاد المغرب سنة 345 هـ / 955 م[52].

و في محاولة لإخضاع تاهرت و المغرب الأقصى سيّر المعز سنة 347 هـ / 957 م في اتجاه المغربين الأوسط والأقصى حملة بقيادة جوهر الصقيلي الذي انضم إليه زير بن مناد صاحب أشير وجعفر بن علي صاحب المسيلة، ودخل الجيش الفاطمي مدينة تاهرت و تمكن من القضاء على يعلى بن محمد بن خزر بعد تخريب بلدته فكّان» على مقربة من مدينة تلمسان[53]، وفي طريقه إلى

51. مثل القلم الخازن الذي يكتب بلا استمداد، وكذا القفصين اللذين أعدّهما لعدويه في المغرب الأقصى ابن واسول صاحب سجلماسة وابن بكر صاحب فاس.

52. ابن الأثير : المصدر السابق، ج : 8، ص 512-513.

53. ابن خلدون : العبر، ج : 7، ص 89.

سلجماسة حاول الدخول إلى فاس التي كان يحكمها أحمد بن بكر بن سهل الجدامي إلاّ أنه عدل عن حصار فاس المنيعة، فتوجّه نحو سلجماسة و بدون عناء أسر حاكمها محمد بن الفتح الملقب بالشاكر بالله ثم سار إلى طنجة و تيطوان سنة 358 هـ / 959 م، و بعد إعادة محاصرة فاس تمكّن زير بن مناد من دخولها، و هكذا انتهت حملة جوهر الصقيلي نحو المغرب و عاد و بصحبته صاحبي سجلماسة وفاس مشهرين في قفصين أعدّ لهما سابقا من قبل المعز لدين الله[54].

أ. المغرب و فتح مصر و تنقل المعز إليها :

كان المعز على أهبة الاستعداد للدخول إلى مصر، فبمجرد وفاة أبي المسك كافور الأخشيدي سنة 357 هـ / 968 م أصدر أوامره إلى قائده جوهر الصقيلي بالخروج إلى مصر، وإلى جانب القوات البرية تحركت القوات البحرية التي شاركت في الهجوم مما سهّل عليهم الدخول إلى الإسكندرية، و أخيرا فبعد محاولات عديدة في عهد الخلفاء السابقين حقّق جوهر الصقيلي الحلم الذي طالما راود الخلفاء الفاطميين الذين أرادوا بسط سلطانهم على المشرق بعدما سمحت لهم الظروف من السيطرة على بلاد المغرب، و دخل مصر سنة 358 هـ / 969 م[55].

ب. اضطراب المغرب :

عند توجه جيش جوهر الصقيلي رفقة الكناميين إلى مصر اغتنمت الفرصة قبائل زناتة وثارت من جديد ضد الحكم الفاطمي في بلاد الزاب بقيادة محمد بن الخير بن محمد بن خزر، وحاول المعز إخضاعه بنفسه، ولما لم يتمكن من الثائر أسلم أمر مطاردته إلى بلكين يوسف بن زيري بن مناد و استسلم محمد بن الخير سنة 359 هـ / 970 م[56].

54. ابن خلدون : العبر... ، ج : 9، ص 47
55. حسن إبراهيم :تاريخ الدولة الفاطمية، القاهرة 1981، ص 147
56. ابن الأثير : المصدر السابق، ج : 8، ص 598

و لم يلبث المعز أن واجه عصيانا آخر من قبل جعفر بن علي بن الأندلسي صاحب المسيلة الذي تحالف مع زناتة من بني خزر بقيادة محمد بن الخير، ففاجأ زيري بن مناد بالقرب من تاهرت وتمكنا من القضاء عليه.

لم ينتظر بلكين يوسف بن زيري كثيرا حتى أخذ بثأر أبيه، ففاجأ محمد بن الخير و أسره سنة 360 هـ / 971 م. ولم يرض الثائر بوقوعه في السجن فقتل نفسه[57].

انتهت الاضطرابات التي قامت في صقلية عندما أعاد المعز الإمارة إلى بني الحسن الكلبيين، فعين أبا القاسم بن الحسن واليا على الجزيرة فقام بشؤون الجزيرة و بواجب الجهاد احسن قيام[58].

ج. الرحلة إلى مصر :

بعد أن اطمأن المعز على ترتيب أمور دولته في المغرب أقام في سردينية مدّة شهرين لاستكمال تجهيزاته وترتيب شؤون دولته قي بلاد المغرب والتفكير في من يتولى أمورها من بعده، و خرج في ذي الحجة سنة 361 هـ / أكتوبر 972 م متجّها نحو مصر في موكب ضخم تتقدمه توابيت آبائه و يصحبه بلكين يوسف حتى مدينة قابس.

وبعد التفكير مليا في قضية بلاد المغرب قرّر المعز ترك شؤون بلاد المغرب ليتولى أمرها بلكين يوسف بن زيري بن مناد معيّنا إياه أميرا، ولكن الخليفة الفاطمي لم يترك لبلكين سلطة مطلقة بل عيّن إلى جانبه زيادة الله بن القديم على جباية الأموال وعبد الجبار الخرساني وحسين بن خلف على الخراج والبريد كعمال تابعين مباشرة للخليفة الفاطمي[59].

57. ابن الأثير : المصدر السابق، ج : 1، ص 243.

58. للمزيد من المعلومات حول الاضطرابات في جزيرة صقيلية في عهد المعز لدين الله الفاطمي ينظر ابن الأثير : المصدر نفسه، ج : 8، ص 337-339، 471.

59. المقريزي : المصدر السابق، ص 144.

إنّ تعيين المعز لثلاثة عمال إلى جانب بولكين كان الغرض منه الاهتمام بالأموال الواردة إلى بيت المال، وتقويض كل محاولة للاستقلال عن الخلافة الفاطمية.

بعد رحيل المعز عن بلاد المغرب ترك لنائبه الصنهاجي على إفريقية وصايا هامة تساعده في تسيير شؤون المغرب، فأوصاه بالوصايا الآتية:

- على أن لا يرفع السيف عن البربر من زناتة.
- ألا يرفع الجباية عن أهل البادية.
- أن يفعل خير مع أهل الحاضرة.
- لا يول أحد من إخوته أو بني عمومته[60].

ثالثا – حركات المعارضة ضدّ الحكم الفاطمي في المغرب الأوسط:

قامت عدّة حركات معارضة في وجه الفاطميين منذ أن وطئت أقدامهم أرض بلاد المغرب وما يهمنا في هذه الدراسة تلك الثورات التي اشتعل لهيب نارها في المغرب الأوسط.

وعلى الرغم من تلك المجهودات المضنية التي قام بها الداعية الفاطمي أبو عبد الله في سبيل نشر الدعوة الفاطمية في بلاد المغرب ومن خلالها تلك النتائج المبهرة التي حقّقها، ومن ورائه مجهودات المهدي ثمّ ابنه القائم، إلاّ أنّ النزعات الانفصالية والاستقلالية لدى سكان المنطقة وقفت ضدّ حكمهم انطلاقا من برقة شرقا إلى سبتة وطنجة وبلاد برغواطة في تادلا وتامسنا التابعة إلى قرطبة الناصرية غربا، وإلى جانب تلك النزعة الاستقلالية جاءت السياسة المالية الفاطمية المتعسفة والسياسة الدينية التي أراد الخلفاء الفاطميون فرضها على أهالي المنطقة لتزيد في تأزّم الوضع الداخلي وتفجّر الثورة في كل مكان.

60 ابن خلدون : العبر، ج : 6، ص 115.

1. تاهرت ما بين الولاء والعصيان :

يعدّ سير أبي عبد الله الشيعي نحو تاهرت وهو في طريقه إلى استخلاص مولاه عبيد الله المهدي من سجنه في سجلماسة إعلانا على سياسة الكتاميين ومن ورائهم الفاطميين للاستيلاء على المغرب الأوسط بل على بلاد المغرب كله، واتضحت خيوط وملامح هذه السياسة بعد أن بسطت القوات الكتامية نفوذها في بلاد الزاب والأوراس. ولقد جاءت أعمال المهدي مكرسة لتلك السياسة وعليه أصبحت تاهرت ولاية تابعة للسلطان الفاطمي وعيّن أبو حميد دواس بن صولات اللهيصي واليا عليها. ولم تمر مدّة طويلة حتى بدأت بوادر العصيان تلوح في الأفق، ونشطت حركة المعارضة التي تبنتها قبيلة زناتة.

فقد واجه أبو عبد الله الشيعي أثناء عودته من سجلماسة بصحبة الإمام المهدي سنة 297 هـ / 909 م تحدّ لسلطانه من قبل قبيلة زناتة، حيث أن محمد بن خزر توجّه محو تاهرت لاسترجاعها من أيدي الفاطميين بعد أن وصلته الأخبار بعودة الجيوش الكتامية إلى إفريقية، فقام بطرد واليها دلوس بن صولات ثمّ حاول قطع الطريق على أبي عبد الله والإمام وذلك بتحريض من سكان أجواز تاهرت وهم بهو دبوس، وعلى الرغم من يقظة الوالي دواس الذي سجن بني دبوس في حصن برفجانة المعروف في تاهرت القديمة، إلاّ أن محمد بن خزر هاجم المدينة وفر دواس متحصنا بحصن برفجانة، ولكن أهالي تاهرت دافعوا عن مدينتهم حتى تمكنوا من إخراجه بالقوة وكاتبوا دواسا الذي رجع إلى المدينة. كانت أخبار ابن خزر قد وصلت إلى إلى موكب الإمام والداعي المتجهان نحو إفريقية فغيروا اتجاههم في اتجاه ابن خزر الذي فر نحو الصحاري[61].

استقرت الأمور بتاهرت لمدّة سنتين لصالح الفاطميين إلى أن ثار الأهالي ضدّ دواس الذي اضطر إلى اللجوء إلى حصن برفجانة المنيع بعد أن قضى الثائرون على عدد كبير من رجال حاميته، وأرسلوا يدعون محمد بن خزر

61. ابن عذارى : المصدر السابق، ج : 1، ص 155-156.

ليتولى أمر المدينة، وسرعان ما تنازع الطرفان فانسحب ابن خزر من الولاية وانصرف عن تاهرت، ثمّ عهد المهدي ولاية تاهرت إلى مصالة بن حبوس المكناسي، واستدعى دواس إلى رقادة حيث نفذ فيه حكم الإعدام بعد مدة من الزمن[62]. لقد كان قرار عبيد الله المهدي صائبا عندما عهد ولاية تاهرت إلى مصالة الذي يعود إليه الفضل في توطيد أركان الدولة الفاطمية في المغرب الأوسط والمغرب الأقصى.

2. ثورة أبي يزيد :

أبو يزيد المعروف عند المؤرخين باسم صاحب الحمار هو مخلد بن كيداد الزناتي اليفرني[63] ويعود أصله إلى قسطيلية من بلاد الجريد في الجنوب التونسي، ولد بمدينة كوكو السودانية التي كان والده ذو الأصل الزناتي يتردد عليها قصد التجارة، بينما كانت أمّه جارية من قبيلة هوارة وترى بعض المصادر التاريخية على أنها من أصل سوداني[64]، وقد عاش أبو يزيد في توزر حيث تعلم وحفظ القرآن الكريم، وخالط جماعة الإباضية النكارية واعتنق مذهبهم، ثمّ اتجه نحو تاهرت للاستزادة في العلم، ولما سقطت تاهرت عاد إلى قسطيلية وهو ناقم على الفاطميين حيث اشتغل بتعليم الصبيان، ثمّ انتقل إلى تقيوس ودعا إلى الخروج على السلطان الفاطمي، فثار أهالي تقيوس على واليهم فقتلوه، وهكذا بدأ يشتهر أمره ويكثر أنصاره وأتباعه، ولما أراد الذهاب إلى الحج انكشف أمره فعاد إلى تقيوس حيث اتصل بالفقيه النكاري أبا عمار الأعمى الذي أصبح ملازمه ومستشاره، وابتداء من سنة 331 هـ / 943 م تزعم الحركة المعارضة لقلب النظام الشيعي الفاطمي في بلاد المغرب[65].

62. المصدر نفسه، ج : 1، ص 166.
63. ابن خلدون : العبر، ج : 6، ص 131.
64. المصدر نفسه، ج : 7، ص 13.
65.

وفي سنة 332 هـ / 944 م اندلعت الثورة العارمة ضدّ الحكم الفاطمي فاجتاح أبو يزيد بلاد الزاب وحاصر باغاية ودخل إلى تبسة ومجانة ومرمجانة حيث أهدي له حمار ركبه أبو بزيد في كل حروبه التي خاضها ضدّ الجيوش الفاطمية، ومن هنا لقب بصاحب الحمار[66]، ودخل الأربس سنة 334 هـ / 945 م، وكان انتصاره على الجيش الفاطمي في باجة بمثابة شحنة قوية ساهمت في انضمام قبائل عديدة إلى صفه، ومن باجة اتجه أبو يزيد نحو تونس التي لم يستطع بشري الصقيلي الدفاع عنها، وأخيرا وصلت حشود الزناتيين إلى القيروان في صفر 333 هـ / أكتوبر 944 م، وهنا انضم شيوخ المالكية إلى حركة أبى يزيد في سبيل الوقوف أمام الشيعة، وبانضمام شيوخ القيروان إلى حركته، صار أبو يزيد يلقب نفسه بـ «شيخ المؤمنين»، وعندما شعر بقوّة صفوفه وباقترابه من النجاح في ثورته وهو على مقربة من العاصمة الفاطمية المهدية، بدأ يتطلع إلى تأكيد سلطانه عند الملوك في الخارج، فبعث برسله مع وفد من القيروان إلى عبد الرحمن الناصر صاحب قرطبة معلنا الولاء والطاعة له، وتتحدث المصادر التاريخية أن أبا زيد تحوّل في هذه الفترة بالذات من محتسب ناسك يرتدي الصوف الخشن إلى ملك يعيش في بذخ ورفاهية[67].

وبعد أن انتصر صاحب الحمار على الجيش الفاطمي بقيادة ميسور الفتى في ربيع الأول 333 هـ / نوفمبر 944 م، وصل أخيرا إلى العاصمة الفاطمية المهدية فضرب عليها حصارا دام ثمانية أشهر، وخلال هذه الفترة التقى على مقربة من المهدية بجموع الكتاميين الذين لم يصمدوا أمام قواته الجرارة، وحاول اقتحام المدينة من جهة البحر[68].

وبدأت الأحوال تتحسن بالنسبة للخليفة الفاطمي القائم بالله عندما استجابت قبيلة صنهاجة بقيادة زعيمها زيري بن مناد لندائه قصد مناصرته وبعد ثمانية أشهر من الحصار انقلبت الأوضاع على الثائر أبي يزيد حيث

66. ابن الأثير : المصدر السابق، ج : 8، ص 322-323.
67. ابن خلدون : العبر، ج :7، ص 15.
68. ابن الأثير : المصدر نفسه، ج : 8، ص 427.

بدأت الهزائم تتوالى عليه، وهكذا بدأ العدّ التنازلي لهذه الثورة الزناتية الكبرى وخاصّة بعد ظهور انشقاقات داخل صفوف الثائرين وانضمّ بعضهم إلى الجيش الفاطمي، وأمام هذه الوضعية لم يكن أمام أبي يزيد سوى الهروب نحو القيروان التي كاتب أهلها القائم بالله وأعلنوا الطاعة والولاء، كما ثارت مدن سوسة وتونس وباجة على صاحب الحمار.

وعلى الرغم من سوء الأحوال داخل معسكره بسبب كثرة الانشقاقات إلّ أن أبا يزيد كان قويا، حيث ضرب من جديد حصارا على سوسة سنة 334 هـ / 945 م بالدبابات والمنجنيقات، ولكن الفاطميين بدءوا في استرجع زمام الأمور شيئا فشيئا وخاصة بعد استجابة علي بن حمدون (ابن الأندلسي) صاحب مسيلة لنداء الخليفة الفاطمي فانضمّ إلى الجيش الفاطمي بحشد كبير من بلاد الزاب، وهكذا انقلب ميزان القوى لصالح الفاطميين تماما، حيث استعادوا مدينة تيجس وباغاية وذلك قبل وفاة الخليفة القائم بالله سنة 334 هـ / 946 م[69].

بتولي المنصور عرش الخلافة الفاطمية جمع كل قواته البرية منها والبحرية لمجاربة أبي يزيد، فتمكن من الانتصار عليه سنة 335 هـ / 946 م ثمّ تتبع آثاره في المغرب الأوسط، وبعد مطاردة طويلة تمكن من القضاء عليه وعلى معاونيه في محرم سنة 336 هـ / أوت 947 م[70].

لم تنته الثورة بوفاة أبي يزيد إذ قاد ابنه فضل بصحبة معبد بن خزر حركة تمردية ضدّ الوجود الفاطمي والتف بقايا الثوار من حولهما، فاضطر المنصور إلى استدعاء بعض القواد من الصقالبة للانضمام إلى جيش زيري بن مناد الذي مجح في ردع الثوار، ولكن قضل بن أبي يزيد واصل حركته إلى أن قتل سنة 337 هـ / 949 م وهكذا انتهت الحركة النكارية[71].

---

69. ابن خلدون : العبر، ج: 7، ص 15.
70. ابن الأثير : المصدر السابق، ج : 8، ص439-441.
71. ابن خلدون : المصدر نفسه، ج : 7، ص 16.

3. ثورة تاهرت :

قاد حميد بن يصل المكناسي الذي كان من أولياء المهدي على تاهرت حركة عصيان ضدّ الخليفة الفاطمي القائم بالله سنة 328 هـ / 940 م طالبا الدخول في طاعة الناصر الحاكم الأموي بقرطبة، فانتهز بنو خزر فرصة انتشار ثورة أبي يزيد، و هاجموا مع حميد بن يصل على مدينة تاهرت في أواخر 333 هـ / 945 م، و قتلوا عاملها عبد الله بن بكار، و لكن ذلك التحالف لم يستمر طويلا فانفض بمجرد ظهور علامات فشل ثورة أبي يزيد و دخول محمد بن خزر تحت طاعة المنصور الذي توجّه إلى تاهرت سنة 336 هـ / 947 م، و هناك طاف بجثة أبي يزيد، وتمكن حميد بن يصل من الفرار إلى الأندلس[72].

لقد كان الصراع في المغربين الأوسط والأقصى على أشدّه ومحتدما بين الدولة الفاطمية والحركات المعارضة لها، انطلاقا من إقليم تادلا و تامسنا حيث مملكة برغواطة و في فاس حيث المكناسيين من أسرة ابن أبي العافية، و في تاهرت و تكور، وفي أرشقول حيث الأدارسة من بني محمد، و في سجلماسة حيث غرست أسرة ملوك بني واسول جذورها.

وقد غذى ذلك الصراع المحتدم بين الطرفين الخلفاء الأمويون بالأندلس، وذلك في سبيل الشيطرة على المغرب الأقصى والقسم الغربي من المغرب الأوسط وبالتالي السيطرة على الطرق التجارية التي تربط هذه المنطقة ببلاد السودان حيث موارد الذهب، وقد زاد ذلك النزاع حدّة بين الخلفاء الفاطميين و أمويي قرطبة في عهد عبد الرحمن الناصر الذي امتدّ حكمه طيلة خمسون سنة من 300 هـ / 912 م إلى 350 م / 961 م، وقد استمر الصراع بين مد و جزر إلى غاية وفاة المنصور سنة 341 / 952 م[73].

72. سعد زغلول عبد الحميد : المرجع السابق، ج : 3، ص 192–193.
73. المرجع نفسه ، ج : 3 ، ص 110 – 115، 186– 187، 212 - 218.

رابعا – النظام الإداري والمالي والعسكري :

لقد قامت قواعد النظام الإداري الفاطمي على أنقاض النظام الإداري الأغلبي ولكن وفق تعاليم المذهب الإسماعيلي التي تجعل من الخليفة الحاكم المطلق الذي يجمع بين السلطتين الروحية والدنيوية، و على ذلك جعل الخلفاء الفاطميون حدًا لنفوذ رجال الدولة، واحتكروا لأنفسهم حتى شؤون الحرب، إذ كثيرا ما كان الخليفة قائدا للجيش في الحروب التي كان يخوضها الخلفاء الفاطميون منذ الثورات القائمة ضد حكمهم في المغرب كما شاركوا في الحروب الخارجية.

إن النظام المركزي المطلق الذي طبقه الخلفاء الفاطميون في إدارة سلطانهم لا يسمح لهم الإشراف على كامل المناطق المنضوية تحت حكمهم فاستوجب عليهم الأمر اختيار ولاة يسند إليهم أمر الإشراف على إدارة المناطق البعيدة عن حاضرة الخلافة وفق أوامر الخليفة الذي كان يتبع سياسة صارمة مع ولاته[74] و يتم تعيين الوالي من قبل الخليفة نفسه وفق شروط معينة تخدم مصالح الفاطميين وسلطانهم، ويمكن أن يقوم بعزل وال من الولاة متى تبين له أنّه يمسّ بسلطانه. إذ كثيرا ما لاحظنا خروج بعض المدن من الحكم الفاطمي لفترة زمنيةٌ كتيهرت وفاس وسجلماسة. و لهذا فقد كان المعز لدين الله يراقب ولاته بفضل بث عيون تراقب سلوك الوالي بصورة مستمرة.

وقد اتخذ الخلفاء الفاطميون لأنفسهم في بلاد المغرب ألقابا تجعلهم في تلك القداسة التي يفترض أن يكون عليها الإمام، مثل أمير المؤمنين وصاحب الزمان، والمهدي، والقائم بأمر الله، والمنصور، والمعز لدين الله[75].

ويأتي في الدرجة الثانية في الحكم ولي العهد، فانطلاقا من الدعوة الإسماعيلية التي تجعل وراثة منصب الإمام عن طريق التبيين بالنص، و باعتبار الخليفة إماما فمن الضروري أن يعين خليفته قبل وفاته.

74. النعمان : المصدر السابق، ص 302

75. ينظر ابن عذارى: المصدر السابق، ج. ص163–165. وابن الأثير: المصدر السابق، ج. 6، ص 341

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ تعيين ولاية العهد تختلف بين الفترة الفاطمية والفترة السابقة لها من حيث الأسلوب، ففي السابق كان الإسماعيليون يعينون أكثر من ولي عهد، وذلك قصد تمويه الخصم، وعلى هذا الشكل يظل ولي العهد مجهولا، بينما انحصرت ولاية العهد في فترة الحكم الفاطمي في بلاد المغرب على شخص واحد، وينتقل الحكم عند الفاطميين من الأب إلى الابن الأكبر، محافظين في ذلك على أن يظل في نسل الإمام[76].

لقد أ سندت الوظائف الإدارية في الحكم الفاطمي إلي أتباع المذهب الشيعي و نظّم هذا الجهاز الإداري حسب الجهاز الذي كان يسير عليه النظام الأغلبي. ولكن الفاطميون أدخلوا عليه تعديلات بحيث استحدثوا وظيفة داعي الدعاة التي يسند أمرها في كثير من الأحيان إلى قاضي القضاة الذي يعدّ من المناصب العليا في الدولة، ويساعده في مهامه إثنا عشر نقيبا، و هذا بالإضافة إلى النواب المنتشرين في كلّ الأعمال، وإلى جانب هؤلاء الموظفين نجد حامل المظلة وصاحب الستر[77] وحامل سيف الخليفة، وحامل قضيبه، و صاحب التاج[78] ويرجع الفضل في وضع أسس النظام الإداري الفاطمي في المغرب إلى أبي عبد الله الشيعي حيث أسّس القاعدة الاقتصادية والعسكرية التي ينطلق منها هذا الجهاد.

ويعدّ صاحب المظالم من المناصب العليا في الإدارة الفاطمية وهي أعلى من منصب قاضي القضاة، فوالي المظالم قد ينظر في المنازعات التي يعجز عن الفصل فيها القاضي، وعلى هذا فمهمة والي المظالم قضائية تنفيذية.

لقد أظهر عبيد الله المهدي كفاءة كبيرة في ترتيب شؤون دولته فأسّس ديوان الخراج و ديوان بيت المال و ديوان العطاء و ديوان الكشف و ديوان البريد إضافة على هذه المصالح استحدثت مصلحة الخبر و مصلحة الوثائق[79].

---

76. احمد إبراهيم حسن : المرجع السابق، ص 276.

77. كانت من الوظائف التي أولاها الفاطميون اهتماما كبيرا فقال عنها المقريزي أنها تتمثل في رفع الستار عن الخليفة إذا جلس على عرشه في مقابلة الأعيان و الأتباع والعامة.
المقريزي : المصدر السابق، ج :1، ص 97.

78. ابن عذاري : المصدر السابق، ج1، ص 150.

79. ابن عذارى : المصدر السابق، ج : 1، ص 205-204.

1. القضاء :

كان أهم المناصب الإدارية و قد أولى الخلفاء الفاطميون أهمية كبرى فاختاروا قضاة من أتباعهم و حرصوا على تنظيمه وفق تعاليم المذهب الشيعي الإسماعيلي وكان للقاضي الحق في حق تعيين قضاة النواحي أو الولايات وتغيير مناصبهم أو عزلهم، كما أعطيت له مهام النظر لإ أهمّ الوظائف العامة مثل الحسبة ودار الضرب وبيت المال، قد يتولى قاضي القضاة إلقاء الخطب في المناسبات في المساجد الرئيسية، و من أشهر القضاة نذكر القاضي المروروذي و إسحاق بن متهال و محمد بن محمود القمودي و محمد بن عمران النفطي و القاضي النعمان لذي تول القضاء في عهد الخليفة المنصور و المعز لدين الله.

وأوردت المصادر التاريخية صمن مصالح الإدارة الفاطمية ما أطلق عليه اسم «مصلحة الخبر» التي أنشئت قصد القضاء على المناوئين للحكم الفاطمي، كما أسسوا مصلحة الوثائق التي كانت تابعة لأمور القضاء[80].

2. السياسة المالية :

لقد تشكّل بيت المال في بداية العهد الفاطمي من بقايا أربع خزائن مستقلة تمّ الاستيلاء عليها، و هي الأغلبية و الرستمية و المدرارية و الإدريسية.

وقد اعتمد الفاطميون في تمويل بيت المال على النظام الجبائي الإسلامي و ضرائب مستحدثة فأبو عبد الله فرض على أنصاره دفع دينار الهجرة[81] و درهم الفطرة[82].

80. فاطمة بلهواري : الفاطميون و حركات المعارضة في المغرب: رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي جامعة عين الشمس القاهرة 1991، ص 50-52.

81. ضريبة فرضت على أتباع المذهب الإسماعيلي وهو عبارة عن دينار على كل رأس أدرك. ينظر الحبيب الجنحاني : السياسة المالية للدولة الفاطمية في المغرب، مجلة الأصالة، ع : 49-50 مطبعة البعث، قسنطينة 1977، ص 51.

82. تعدّ بمثابة زكاة الصوم، وقد حث عليه الخليفة الفاطمي المنصور.

استحدث عبيد الله المهدي ديوان الكشف للإشراف على جباية الأموال و شكّل ديوانا آخر يعرف باسم ديوان أموال الهاربين من السرة الأغلبية[83].

و يعدّ الخمس و الخراج و الجوالي[84] و ضريبة الشطور[85] من الموارد الهامة والأساسية لبيت المال، كما اعتمد الفاطميون أيضا عل نظام القبالة حسب ما ذكره جوذر على أنّ الرعية كانت تثور في الكثير من الأحيان بسبب ثقل هذا النظام[86].

وإضافة إلى هذه الضرائب فقد فرض الحكام الفاطميون ضريبة على السلع الواردة نحو المدن المغربية ، وألزمت بالخصوص على المدن الواقعة على الطرق التجارية الرئيسية مثل: تيهرت وسجلماسة وكذا على مدن الواقعة في مناطق العبور مثل : طرابلس وطبرقة، والغالب أنّ هذه الضريبة كانت تفرض على السلع الصادرة والواردة على السواء.

3. السياسة العسكرية :

اهتم الفاطميون بتقوية و تنمية الجيوش التي أخذ عددها يتزايد و قد كانت فصائل الكتامة النواة الأولى للجيش الفاطمي و قد نظم أبو عبد الله الشيعي هذا الجيش إلى سبعة أقسام جعل على راس كل قسم مقدما و أعدها بكل أنواع الأسلحة. و اتخذ شعارات دينية تتناسب و دعوته مثل (سيهزم الجمع و يولون الدبر) و (الملك لله)[87].

و قد حظي أفراد الجيش و الأسطول الفاطمي بامتيازات و رعاية طيلة الحكم الفاطمي في المغرب من حيث المنح و الرتب و المرتبات و الإقطاعات.

83. النعمان: المصدر السابق، ص 308.
84. هي الضريبة التي يدفعها أهل الذمة عن الجزية المقرّرة على رقابهم في كل سنة
85. ينظر الماوردي : المصدر السابق، ص 142
86. سيرة جوذر، ص 140، 130، 124.
87. ابن عذارى : المصدر السابق، ج : 1، ص 150.

و اعتمدت الدولة الفاطمية في نظام الجندية على عنصر الموالي ضد عهد عبيد الله المهدي و على هذا الأساس فقد كان هناك جيش يتكون من المجندين على أهبية الاستعداد لخوض الحروب الطارئة في الداخل و الخارج وجند من المتطوعين كانوا يلبون النداء ابتغاء الكسب الوافر[88].

إن طبيعة الموقع الجغرافي لبلاد المغرب تستلزم إنشاء أسطول بحري قوي للعمل على تأمين سواحلها التي تمتد من برقة شرقا على طنجة غربا و على هذا أنشأ الفاطميون دورا لصناعة السفن و الأسلحة الحربية في أهم الموانئ و لمواجهة البيزنطيين من جهة و أمويي الأندلس من جهة أخرى انشقت مصلحة تابعة لقيادة البحر تعرف بولاية الثغور التي يتولاها قائد خبير بأمور البحر و المحارس و القلاع البحرية النتي أعددت في المدن الساحلية مثل وهران و الجزائر و بجاية و جيجل و بونة... إلخ[89].

كما أنشأ الفاطميون أبراجا للمراقبة على طول الساحل، و ذلك لإخطار الجيش بواسطة الإشارات (النار) في حالة قدوم عدو. و يدل النشاط البحري ضد الأساطيل البيزنطية في عهد القائم بالله على تمرس في ميدان الملاحة البحرية[90]. لقد اعتمد الجيش الفاطمي على الأسلحة الثقيلة من منجنيقات و الدبابات[91] و الستائر و الأبراج[92].

خامسا – علاقات الدولة الفاطمية بالأندلس وصقيلية :

بعد أن وطّد عبيد الله المهدي أركان دولته أخذ يرسل دعاته في اتجاه الأندلس لنشر الدعوة الفاطمية في تلك الربوع، ولكن تلك المجهودات لم تأت بثمارها، إذ لم [illegible] الدعوة سوى عدد قليل من رجال الفكر الأندلسيون[93].

88. حسن إبراهيم حسن :المرجع السابق، ص 179–176.
89. ابن عذارى : المصدر السابق، ج :1، ص 84.
90. ابن الأثير : المصدر السابق، ج : 6، ص 249.
91. آلات حربية تستخدم لفتح ثغرات في الأسوار الحصينة و اقتحام مراكز العدو و محاصرته.
92. فاطمة لهواري : المرجع السابق، ص
93. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير، العصر الإسلامي، ص 608.

1. علاقة الفاطميين بأمويي قرطبة :

ولا شك أن انتشار حركة التشيع في بلاد المغرب كان يهدد كيان الأمويين في الأندلس، وعلى ذلك عمل عبد الرحمن الناصر منذ توليه الحكم في قرطبة سنة 300 هـ / على الوقوف في وجه الفاطميين، فحرص على استمالة بعض قبائل زناتة البربرية وتحريضها على محاربة الحكم الفاطمي إلى صفّه وتجهيز أسطول قوي قادر على الوقوف أمام الأسطول الفاطمي. وبالفعل تمكن عبد الرحمن الناصر من ضمّ الكثير من المعارضين إلى صفّه، وبمساندة منه كانوا يحاولون في كل مرّة زعزعة وضرب استقرار الدولة الفاطمية ؛ ومنها ثورة ابن أبي العافية، وثورة محمد بن خزر وثورة أبي يزيد وابنه الفضل وغيرهم من المعارضين للسياسة الفاطمية.

وفي عهد المعز لدين الله الفاطمي اتخذ العداء الفاطمي الأندلسي منعرجا خطيرا، خيث لم تمض سنتان من تولي المعز عرش الخلافة حتى هاجمت إحدى السفن الأندلسية سفينة فاطمية كانت تقل رسولا من قبل والي صقيلية الحسن بن علي ن فكان ردّ الفاطميين سريعا بحيث هاجم أسطولهم سنة 344 هـ / 955 م ميناء العرية فخرّبوه، وعاثوا في المدينة فسادا[94]. وقد بلغ ذلك العداء أشدّه إلى درجة تحالف أمويو الأندلس بالإمبراطور البيزنطي قسطنطين الثامن الذي كان يسعى إلى استرداد جزيرة صقيلية من أيدي الفاطميين[95].

ولما رأى عبد الرحمن الناصر من عدم جدوى ذلك العداء عمد إلى موادعة المعز والسعي لمصالحته وذلك عن طريق كتب أرسلها مع رسله إلى المعز الذي رفض طلبه، وأثناء ذلك شرع عبد الرحمن الناصر في إعداد جيش بري وبحري وسيّره سنة 346 هـ / 957 م إلى المغرب الأقصى، فهزم القوات الفاطمية التي استردت هذه الأقاليم بقيادة جوهر الصقيلي[96].

---

94 ابن الأثير : المصدر السابق، ج: 8، ص 170.

95 محمد ى جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، دار الفكر العربي، القاهرة 1967، ص 221

96 حسن إبراهيم حسن و طه شرف : كتاب المعز لدين الله، القاهرة 1948، ص 43–44

لم يختلف الأمر عندما تولى العرش الأموي الحكم المستنصر بعد وفاة أبيه عبد الرحمن الناصر سنة 350 هـ /961 م حيث استمر ذلك الصراع مع الدولة الفاطمية، ومن مظاهره تلك الحملة التي أرسلها الحكم سنة 362 هـ / 972 م قصد القضاء على الدعوة الفاطمية في المغربين الأوسط والأقصى، فنجحت الحملة بخروج زعماء زناتة ومغراوة عن طاعة الفاطميين وأعلنوا ولاءهم للخليفة الأموي[97].

2. الفاطميون وجزيرة صقيلية :

صارت جزيرة صقيلية منذ القرن الثالث الهجري ولاية يتداول على إدارتها ولاة معينون من قبل حكام الأغالبة، وبالقضاء على الدولة الأغلبية زال نفوذها من الجزيرة بحيث ثار أهلها على وليهم الحسن بن رباح ليولوا مكانه ابن أبي الفوارس سنة 296 هـ / 909 م وكاتبوا بذلك الداعية الفاطمي أبو عبد الله الشيعي فاستجاب لطلبهم، غير أن عبيد الله المهدي ما لبث أن عزل هذا الوالي وعين مكانه الحسين بن أحمد بن أبي خنزير الكتامي سنة 297 هـ / 910 م، لكن حكمه لم يدم طويلا حتى ثتر عليه الأحرار من الصقيلين، فعين لهم عبيد الله سنة 299 هـ / 912 م علي بن عمر البلوي واليا جديدا[98].

لم يكن الوالي الجديد ليلقى رضى الصقيليين المتطلعين للاستقلال فخرجوا ضدّه، واختاروا سنة 300 هـ / 913 م أحمد بن قرهب واليا عليهم، غير أنّ الجند ثار عليه عندما اكتشف طموح هذا الوالي في الاستقلال عن الفاطميين بعدما أعلن ولاءه للخليفة العباسي المقتدر، وأرسل أسطوله للسيطرة على بلاد المغرب، واستطاع في البداية من الانتصار على الأسطول الفاطمي الذي جمع قواته من جديد وتمكن من إحلال الهزيمة بقوات ابن قرهب، وأرسل الوالي مقيدا إلى إفريقية حيث نفذ فيه حكم الإعدام[99]. و هكذا استعاد الفاطميون نفوذهم في صقيلية.

97. ابن خلدون : العبر، ج : 4، ص 146.

98. ابن الأثير، المصدر السابق، ج : 8، ص 49-50.

99. ابن خلدون : العبر، ج : 4، ص 207.

لم تستقر الأوضاع كثيرا في صقيلية حيث كثرت النزاعات بين أهلها الذين يقومون بعزل ولاتهم وتعيين من شاءوا. ونظرا لأهمية الجزيرة في صدّ العدوان البيزنطي حرص الفاطميون على الحفاظ عليها، وذلك بالاستمرار في إرسال ولاتهم إليها حتى قيام ثورة أبي يزيد، وحينما تمكن المنصور من القضاء عليها عيّن الحسن بن علي الكلبي واليا على الجزيرة[100].

لم تنعم الجزيرة بالاستقرار من جراء النزاع المتواصل مع البيزنطيين، فقد حاول قسطنطين السابع عدّة مرات الاستيلاء على الجزيرة، فردّته قوات الحسن بن علي الكلبي. وفي عهد المعز سيطرت القوات الفاطمية بقيادة والي الجزيرو أحمد بن الحسن الكلبي من السيطرة على قلعة طبرمين الحصينة التي سأطلق عليها اسم «المعزية»، وعلى الرغم من مجهودات الوالي الفاطمي المتواصلة في سبيل المحافظة على الجزيرة، إلاّ أنّ البيزنطيين تمكنوا سنة 353 هـ / 964 م من السيطرة على بعض مدنها[101].

---

100. حسن إبراهيم حسن : المرجع السابق، ص 99.
101. ابن الأثير : المصدر السابق، ج : 8، ص 179-183.

الجزائر في عهد دولة الموحدين

الجزائر في عهد دولة الموحدين

1. ابن تومرت ودعوته:

لقد نشأت دولة الموحدين بفضل الدعوة التي قام بها المهدي ابن تومرت حوالي سنة 515 هـ في منطقة السوس الأقصى، وكانت تقطنها قبائل المصامدة، الذين عرفوا الإسلام قبل ذلك بأجيال عديدة، غير أن معرفتهم هذه كانت لا تزال بحاجة إلى تصحيح اعتقادي وإصلاح أخلاقي.

وكان ابن تومرت منذ صغره يميل إلى العبادة والدراسة، فحفظ القرآن في قريته، ثم غادرها حوالي سنة 501 هـ لطلب العلم، فتوجه إلى الأندلس حيث أخذ على مشاهير علمائها. ثم انتقل إلى المشرق، فلقي بعض تلامذة أبي حامد الغزالي ببغداد، واطلع على بعض مؤلفات هذا الأخير وبخاصة كتاب «إحياء علوم الدين» في الاعتقاد وأصول الدين، و «المستصفى» في أصول الفقه. ولا يستبعَد أنه أدرك، اثناء رحلته إلى المشرق العربي، ما أصاب تلك البلاد من بلايا، نتيجة هجمات الصليبيين، وأن غيرته على الإسلام جعلته يفكر في إصلاح ما أُدْخِلَ فيه من بدَع، ويشعر بضرورة توحيد صفوف المسلمين، والتصدي لمواجهة العدوان الصليبي.

وبعد حوالي عشر سنوات، عاد ابن تومرت إلى بلاده، مارا بالإسكندرية ثم طرابلس فالمهدية وتونس وقسنطينة، ثم بجاية، عاصمة بني حماد آنذاك، واستقر مدة بقرية قريبة منها تدعى ملالة، حيث لقي عبد المؤمن بن علي الكومي، أشهر رفاقه. ثم اتجه إلى متيجة وجبل وانشريس، حيث التحق به عبد الله بن محسن الملقب بالبشير. ثم واصل ابن تومرت ورفاقه سيرهم نحو الغرب مارِّين بتلمسان وفاس، ثم مراكش، عاصمة دولة المرابطين.

وكان يقوم في كل المدن بالتدريس في المساجد، ومناظرة رجال العلم، ويمارس تغيير المنكر، معرِّضا نفسه تارة لغضب الناس، وأخرى للطرد[1].

ولم يجد ابن تومرت سبيلا للقيام بمهمة الإصلاح الديني، من دون أن يعرِّض نفسه لأذى، إلا في السوس الأقصى، وسط قومه المصامدة. غير أن ما شاهده أثناء عمدته من إعراض الأمراء المرابطين وعمّالهم وفقهاء دولتهم، وتقاعدهم عن إصلاح المجتمع، وفشوّ الجهل والبدع في البلاد، قد جعله يضيف إلى المهمة الأخلاقية، التي أقدم عليها، جوانب اعتقادية وتشريعية وسياسية. غير أنه لم يصرِّح في أول الأمر بالجانب السياسي من دعوته، وإنما اقتصر على الإصلاح الأخلاقي وتعليم الناس العقيدة الإسلامية الصحيحة. ثم انتقل إلى قرية تينمل، شمال السوس الأقصى، وجعلها مَقرا لدعوته لحصانة موقعها. وهناك صرّح بدعوته، وبايعه الناس على الطاعة، ونصرة نظرية التوحيد وفق آراء المعتزلة، ومحاربة المرابطين، الذين سماهم المجسِّمين. وادّعى أنه المهدي المنتظر، الذي يبعثه الله لنشر العدل في الأرض بعد أن مُلئت جورًا، مثلما ادّعى ذلك عُبَيْد الله الفاطمي، وأنه من نسل علي بن أبي طالب، وأن اسمه محمد بن عبد الله، وادّعى أيضا العِصْمَة[2]. وبعد أن تمّتْ البيعة سنة 515 هـ بتينمل، صرف ابن تومرت جهوده لتنظيم حركته سياسيًا وعسكريا. فرتب أتباعه حسب الدور الذي قاموا به فيها، وحسب منزلتهم الاجتماعية، وصنفهم إلى طبقات، أعلاها أهل العشرة، ويليها أهل الخمسين، ثم أهل السبعين، ثم غيرهم من الفئات.

1. يذكر بعض المؤرخين أن ابن تومرت لقي علي بن يوسف، أمير المرابطين، بمراكش، وناظر جماعة من علماء بلاطه فأفحمهم وأن هؤلاء شعروا بخطر هذا الرجل؛ ولكن الأمير اكتفى بطرده من عاصمته. انظر: البيذق، أخبار المهدي ابن تومرت، تحقيق عبد الحميد حاجيات، ص29-50؛ عبد الرحمن بن خلدون، العبر، ج6، ص 468؛ عبد الواحد المراكشي، المعجب، ص 184-185؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص 295؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص 121-123.

2. حول دعوة ابن تومرت، انظر: عبد الله علي علام، الدعوة الموحدية بالمغرب، ص81-141.

وأسند إلى كل فئة ما يناسبها من الاختصاصات[3].

أما النشاط العسكري، فإنه اتخذ اتجاهين رئيسيين يتمثل أولهما في إخضاع قبائل المصامدة التي لم تعلن بيعتها لابن تومرت، وثانيهما في مواجهة جيوش المرابطين، وشنِّ الغارات على الحصون التي كانت تأوي حامياتهم.

والظاهر أن ابن تومرت تمكن من إنجاح الاتجاه الأول الرامي إلى القضاء على نشتت المصامدة السياسي، وجمع شملهم في كيان سياسي موحد. وفيما يخص الاتجاه الثاني، فإن محاولات التصدي لجيوش المرابطين لم تتجاوز طابع المناوشات، ولم تكلل بالانتصار المرجوّ منها. ثم كانت معركة البحيرة، سنة 524 هـ، التي انتهت بهزيمة جيش الموحدين، ومقتل قائده البشير الونشريسي وعدد كبير من الأتباع، وجُرح فيها عبد المؤمن، فعاد الموحدون إلى جبلهم[4].

وبعد ذلك بقليل أصيب ابن تومرت بمرض أدّى إلى وفاته، دون أن يعيّن خَلفا له، ودون أن يترك لأتباعه نظامًا للحكم تسير عليه حركة الموحدين بعد وفاة صاحب الدعوة. والظاهر أن فئة أهل العشرة، التي كانت تشمل أقرب الأتباع لابن تومرت وتحظى بثقته، رأوا إخفاء وفاته ريثما تسمح الظروف بالوصول إلى اتفاق حول حَلّ مُرْضٍ لتعيين خليفته. ويبدو أن هذه المرحلة الانتقالية دامت حوالي ثلاث سنوات، استطاع خلالها أهل العشرة مواصلة الجهود من أجل بسط نفوذ الحركة الموحدية بين القبائل المجاورة للسوس الأقصى وانتهت باتفاقهم على تعيين خليفة للمهدي، هو عبد المؤمن بن علي الكومي[5].

3. انظر: عبد الواحد المراكشي، م.س.، ص 188-189 و 337–343؛ عبد الله علي علام، م.س.، ص 163-175.

4. انظر: البيذق، م.س.، ص 59–62؛ عبد الله علي علام، م.س.، ص 204–213.

5. انظر: عبد الواحد المراكشي، م.س.، ص 194–196.

2. تأسيس دولة الموحدين:

كان على عبد المؤمن أن يواصل المسيرة إلى الانتصار على دولة المرابطين، وتأسيس دولة الموحدين. فقضى بضعة أعوام، حاول خلالها أن يستولي على المناطق الجبلية المجاورة شمالاً للسوس الأقصى. وفي سنة 535 هـ، بدأت حركة الموحدين الكبرى، بقيادة عبد المؤمن، عبر مناطق المغربين الأقصى والأوسط، فامتدّ خلالها نفوذ الموحدين إلى بلاد تادلا وفازاز والريف، وكلها مناطق جبلية. وكان تاشفين بن علي، أمير المرابطين بعد وفاة أبيه سنة 537 هـ، يباشر بنفسه قيادة جيوش المرابطين[6].

ثم توجه الموحدون نحو المغرب الأوسط. وكان عبد المؤمن يطبق طريقة حربية محكمة، تتمثل في خطتين رئيسيتين، أولاهما تنحصر في ملازمة الجبال والاعتصام بها، الأمر الذي كانت تقتضيه قلة الخيل وعتاد جيشه الحربي، بينما كان المرابطون يلازمون السهول لوفرة خيلهم وعتادهم، فكان يصعب عليهم اقتحام المواقع التي كان يعتصم بها الموحدون. والخطة الثانية كانت ترمي إلى الابتعاد عن مراكز قوة المرابطين وعن عاصمتهم، قدر الإمكان، والتوغل في بلاد المغرب الأوسط، التي يصعب فيها على المرابطين تموين الجيش وتنقله.

ثم توجه عبد المؤمن إلى ندرومة، وأقام بجيشه مدة في قرية تاجرا، مسقط رأسه، ومن هناك أرسل العساكر في اتجاه نواحي الهضاب العليا جنوب جبل وانشريس فاستولت عليها وعلى معظم المناطق الشرقية بالمغرب الأوسط، وعلى المناطق الساحلية بناحية وهران. فكان لهذه الانتصارات، مع ما حظي به عبد المؤمن من تأييد قبيلته كومية وبعض قبائل زناتة، أثر ملحوظ في تدعيم جيشه. وعندئذ توجه بجيشه صوب تلمسان، مقرّ ولاة المغرب الأوسط، ونزل خارجها بالمرتفعات الواقعة جنوب المدينة، بينما نزل تاشفين بن علي بجيشه شمال شرقيها. وفي تلك الأثناء وصل جيش لبني حمّاد، أرسله الأمير يحيى بن العزيز مددًا للمرابطين، تحت قيادة طاهر بن كباب.

6. انظر: البيذق، م.س.، ص 75-81.

ويبدو أن هذا الأخير لم يحفل بقوة جيش الموحدين، ولم يبحث عن أنجع السبل للانتصار عليه، بل بعثه غروره وتهوّره إلى اقتحامه في الحين، ولكنه مُنِيَ بهزيمة كبرى أدّت إلى مقتله مع العديد من جنوده، وذلك سنة 539 هـ. فكان لهذا الحادث أثر سيئ في نفوس المرابطين. وعندئذ توجه تاشفين بن علي إلى وهران، حيث كان قد وصل أسطول قادم من الأندلس لمساندة جيشه في مواجهة حركة الموحدين. وكان تاشفين عازمًا على الجواز إلى الأندلس إذا ما فشلت مطاردته للموحدين في تلك المناطق. غير أنه لم يتمكن من تحقيق خطته هذه، ولقي مصرعه ليلة 27 رمضان سنة 539 هـ، عندما غادر الحصن الذي لجأ إليه بوهران، قاصدًا إلى شاطئ البحر وممتطيًا فرسه، فسقطت به من أعلى جرف.

وكان لوفاة تاشفين بن علي أثر هامّ في سير الأحداث إثر ذلك، إذ سرعان ما استولى الموحدون على وهران وتلمسان، واحتلوا مدينة فاس بعد حصار دام تسعة أشهر، ثم مكناسة وسلا، وأخيرًا مراكش في شوال سنة 541 هـ، بعد حصار دام أحد عشر شهرًا. وبسقوط مراكش، ومقتل إسحاق بن علي، آخر أمراء المرابطين، انقرضت دولة المرابطين، وتمّ تأسيس دولة الموحدين[7].

3. توحيد أقطار المغرب الإسلامي:

ولم يقف طموح عبد المؤمن عند هذا الحد، بل بقي عليه أن يحقق هدفا من أهم أهداف دعوة ابن تومرت، وهو توحيد أقطار المغرب الإسلامي. وبدأ بتنظيم شؤون الدولة، وقمع بعض الثورات التي قامت في السوس الأقصى وفي ناحية تامسنا، كما عُنِيَ بشؤون بلاد الأندلس، وإرسال العساكر لمساعدة

7. حول حركة الموحدين الكبرى، انظر: البيذق، م.س.، ص 75–97؛ الحلل الموشية، ص118–119؛ عبد الواحد المراكشي، م.س.، 202–203؛ عبد الرحمن بن خلدون، م.س.، ج6، ص 479؛ ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص 17–30؛ ابن أبي زرع، م.س.، ص 133؛ ابن الأثير، م.س.، ج8، ص 300–301؛ الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص 7–8.

المسلمين بها في الدفاع عن أراضيهم، وإخضاع الأمراء الأندلسيين الذين لم يدخلوا في طاعته. وفي سنة 545 هـ انتقل إلى سَلا، حيث قدمت وفود الأندلسيين لمبايعته وتسليم الأمر إليه.

ثم وجّه عبد المؤمن أنظاره نحو شرق المغرب الأوسط وغرب إفريقية. وكانت أحوال بني حمّاد وبني زيري تدعو إلى القلق، من جراء تغلب العرب الهلاليين على معظم المناطق الجنوبية، وظهور خطر النصارى القادمين من صقلية، الذين كانوا قد استولوا على المهدية، عاصمة بني زيري، سنة 543 هـ / 1149 م، ثم على صفاقس وسُوسَة، وأصبحوا يهددون باقي سواحل إفريقية.

وفي أوائل سنة 547 هـ نهض عبد المؤمن بجيوشه متجهًا نحو سلا ثم سبتة، موهمًا أنه يقصد الأندلس. ثم عدل عنها إلى بلاد المغرب الأوسط، يريد افتتاح ما لقي منها. وأسرع في السير لأخذها على حين غفلة. فاستولى على مليانة، ثم على مدينة الجزائر. ثم قصد إلى بجاية فملكها، وفرّ الأمير الحمادي يحيى بن العزيز إلى عنابة، عن طريق البحر، ثم إلى قسنطينة. ووجّه عبد المؤمن جيشا تحت قيادة ابنه عبد الله إلى قلعة بني حمّاد ففتحها عنوة. وأرسل جيشا آخر إلى قسنطينة، وفيها يحيى بن العزيز الحمادي، فعرض الموحدون عليه الأمان في نفسه وأهله، فأذعن لهم وسلم المدينة صلحًا، والتحق ببلاط عبد المؤمن، فرحّب به وأكرمه، وألحقه بحاشيته، وبذلك انقرضت دولة بني حمّاد[8].

ويبدو أن هذه الأحداث أقلقت قبائل العرب القاطنة في جنوب بلاد إفريقية، وجعلتها تخشى أن يضع عبد المؤمن حَدًّا لما كانت تتمتع به في عهد الحمّاديين من نفوذ في تلك المناطق، وما نالته آنذاك من إقطاعات وامتيازات.

8 حول استيلاء الموحدين على ولاية بجاية، انظر: البيذق، م.س.، ص 106–107؛ عبد الواحد المراكشي؛ م.س.، ص 206–207؛ لبن أبي زرع، م.س.، ص 136؛ ابن عذاري المراكشي، م.س.، ص 45–47؛ ابن الأثير، م.س.، ج9، ص 31؛ الحلل الموشية، ص 123–124؛ عبد الرحمن بن خلدون، م.س.،ج6، ص490؛ الناصري السلاوي، الاستقصا، ج2، ص 120–121.

فاجتمعت قرب مدينة باجة، وعقدت العزم على محاربته، بدعوى الدفاع عن عرش الأمير يحيى بن العزيز، فتصدّى لها عبد الله بن عبد المؤمن بما كان لديه من الجنود.

وكان عبد المؤمن أثناء ذلك بمتيجة، عائدًا إلى مراكش، فتوقف عن السير، وأرسل جيشه مَدَدًا لابنه، وتمّ اللقاء بين الفريقين في ناحية سطيف، في صفر 543 هـ، فانهزم العرب هزيمة كبرى، وتركوا ذخائرهم ونساءهم وكثيرًا من الأسرى. ولما وصل عبد المؤمن إلى مراكش، استدعى رؤساء قبائل العرب، ووعدهم بأن يعيد لهم نساءهم وذخائرهم، فوفدوا عليه وقدموا له طاعتهم.

وعقد عبد المؤمن لابنه عبد الله على ولاية بجاية، واستوزر له يخلف بن الحسين. كما عقد لابنه أبي حفص على ولاية تلمسان، وعيّن أبا محمد بن وانودين وزيرًا له. والظاهر أن مهمة ولاة الموحدين كانت تشمل صلاحيات واسعة، تتطلبها ضرورة حفظ الأمن، ولاسيما أن خطر العدوان الصليبي كان يهدد بلاد إفريقية. وكان من المهامّ التي أسندها عبد المؤمن لابنه عبد الله، والي بجاية، أنه «عهد إليه أن يشنّ الغارات على نواحي إفريقية، وأن يضيق على تونس، ويمنع عنها المرافق التي تصل إليها عن طريقه»[9].

وفي سنة 553 هـ نهض متوجهًا إلى تونس بجيشه، وكانت المدينة تحت نفوذ النرمان الذين أقاموا رجلا يدعى ابن خراسان عاملا عليها من قبَلهم. فحاصرها الموحدون مدة، ثم حاولوا اقتحامها، غير أنهم انهزموا وقتل كثير منهم. وبلغ عبدَ المؤمن خبرُ الهزيمة وهو بسَلا، يتأهّب للجواز إلى الأندلس بجيوشه قصدَ مواجهة خطر النصارى، فقرّر السير إلى إفريقية، مفضّلا القضاء على الاحتلال النرماني بها قبل استفحاله. وبدأ بضرب الحصار حول تونس، ثم استولى عليها في جمادى الآخرة سنة 554 هـ ثم قصد إلى المهدية، معقل النرمان الرئيسي بإفريقية، فحاصرها الموحدون برًا وبحرًا مدة بضعة أشهر. وأغاروا، أثناء هذا الحصار، على المناطق التي كانت تحت سيطرة النرمان،

9. عبد الواحد المراكشي، م.س.، ص 227-228.

فافتتحوا سوسة وقابس وطرابلس وصفاقص وقفصة وجبل زغوان وبلاد الجريد. وفي شهر محرم سنة 555 هـ، استسلم نصارى المهدية، فدخلها الموحدون صلحًا[10].

وباستيلاء عبد المؤمن على المهدية، أصبحت إفريقية كلها، وسائر بلاد شمال إفريقيا، تحت سلطة الموحدين، فتمّ توحيد أقطار المغرب، لأول مرة في التاريخ، تحت سلطة مغربية واحدة. ولا شك أن هذا الحادث يكتسي أهمية كبرى بالنسبة لتاريخ المغرب العربي بصفة خاصة، وبالنسبة للعالم الإسلامي بصفة عامة. وذلك أن دولة الموحدين أصبحت تمثل أكبر قوة عسكرية وسياسية في العالم الإسلامي، الذي كان يعاني، منذ أكثر من نصف قرن، من خطر الحروب الصليبية. وأصبحت آمال المسلمين تتوجه نحو هذه الدولة الجديدة القوية، وترجو منها أن تدافع عن حوزة الإسلام، وتساهم مساهمة فعالة في ردّ عدوان الصليبيين.

ومن نتائج هذا الانتصار أنه مكن عبد المؤمن من التفرغ للاهتمام بشؤون الأندلس بمزيد من الفعالية والنجاعة. وكان المسلمون بالأندلس يعانون، منذ سنوات عديدة، من هجمات ملك قشتالة ألفونسو الثامن، الذي راح يضرب الحصار حول قرطبة، مغتنمًا فرصة تفرقة الأندلسيين إثر انقراض دولة المرابطين. وعندئذ أرسل عبد المؤمن الجيوش للدفاع على أراضي المسلمين، فاضطرّ ملك قشتالة إلى الإفراج عن قرطبة.

غير أن عبد المؤمن لم يتمكن من تحقيق مشروعه الكبير، الرامي إلى التصدي لهجمات الأسبان، وجعل حَدّ لعدوانهم على أراضي المسلمين بالأندلس، وذلك أنه توفي في جمادى الآخرة سنة 558 هـ بسلا، وهو يتأهب للجواز إلى الأندلس.

---

10. حول هذه الأحداث، انظر: البيذق، م.س.، ص 115–116؛ عبد الواحد المراكشي، م.س.، ص 228–230؛ ابن عذاري المراكشي، م.س.، ص 64–65؛ عبد الرحمن بن خلدون، م.س.، ج6، ص 494؛ ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص 120–121؛ ابن أبي زرع، م.س.، ص 129–177؛ ابن الأثير، م.س.، ج9، ص 63–65؛ الحلل الموشية، ص 128–129؛ ابن أبي دينار القيرواني، المؤنس، ص 116؛ الزركشي، م.س.، ص 11–12.

وبقي الجهاد ضد النصارى الشغل الشاغل للموحدين بعده، خلال عهد ابنه يوسف (558–580 هـ)، ثم يعقوب المنصور بن يوسف (580–595 هـ) وابنه الناصر (595–610 هـ). وكان لانشغال الموحدين بشؤون الأندلس أثر بالغ في تطور الأوضاع السياسية بالمغرب الأوسط وإفريقية، وبخاصّة ابتداء من عهد يعقوب المنصور.

4. ثورة بني غانية:

ويبدو أن الموحدين واجهوا مشاقّ كبرى في المجال المذهبي والسياسي. وذلك أن دعوتهم لم تحظ بتأييد عدد ملحوظ من فقهاء المالكية، نظرًا لتباين الآراء في مجالات الاعتقاد والتشريع والسياسة، وكثير من رؤساء قبائل العرب وأمراء بعض مناطق إفريقية والأندلس، مما أدى أحيانا إلى ظهور الفتن والثورات طيلة عهد الموحدين، في سائر أنحاء الدولة. وقد شكلت هذه الفتن عاملا رئيسيا من عوامل ضعف دولة الموحدين وسقوطها. وأخطر ثورة واجهها الموحدون هي ثورة بني غانية، التي نتج عنها انفصال إفريقية ثم المغرب الأوسط عن سلطة خلفاء الموحدين[11].

اندلعت هذه الثورة بعد وفاة يوسف بن عبد المؤمن بمدة قليلة. وذلك أن الجزائر الشرقية، مَيورقة ومنورقة ويابسة، كانت لا تزال آنذاك تحت حكم أسرة بني غانية؛ من بقايا المرابطين. فلما توفي الخليفة الموحدي الثاني، رأى علي بن محمد ابن غانية، أمير الجزائر الشرقية، أن ينتهز فرصة انشغال الموحدين بضبط أمور الدولة، وتعيين الخليفة الجديد، للقيام بحركة ضدهم في بلاد إفريقية[12].

وفي صفر سنة 581 هـ، قدم علي ابن غانية وأخوه يحيى من جزيرة ميورقة بجيش يتألف من أربعة آلاف جندي وأسطول يتركب من 32 قطعة،

11. حول ثورات المغرب والأندلس ضد الموحدين، انظر: البيذق، م.س.، ص 123–131؛ عبد الرحمن بن خلدون، م.س.، ج6، ص 495–496، 498، 502؛ الزركشي، م.س.، ص 14.

12. حول نسب بني غانية وأوليتهم، انظر: عبد الرحمن بن خلدون، م.س، ج6، ص390–392.

متوجهين نحو بجاية. وصادف ذلك وجود يعقوب المنصور بالأندلس، وغياب والي بجاية أبي الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن عن المدينة مع الحامية الموحدية، في اتجاه مراكش للمشاركة في حفلة البيعة للخليفة الجديد. فاحتلّ بنو غانية بجاية بسهولة، ثم هزموا أبا الربيع، الذي رجع إلى بجاية لصدِّهم، ثم احتلوا مدينة الجزائر ومازونة ومليانة بمساعدة بعض قبائل العرب.
وهنا توقف زحفهم نحو الغرب، وغيّروا اتجاههم. والغالب على الظن أنهم اتصلوا بأخبار عودة يعقوب المنصور إلى مراكش، وتأهُّبه لمطاردتهم. فساروا نحو الجنوب الشرقي، وحاصروا قلعة بني حمّاد واحتلوها، ثم حاصروا قسنطينة، فامتنعت عليهم وطال حصارهم لها[13].

أما يعقوب المنصور، فإنه جهز جيشا يبلغ عدده عشرين ألف مقاتل، وأرسله بسرعة تحت قيادة ابن عمه أبي زيد بن أبي حفص، وأمر أسطولا تحت قيادة أحمد الصقلي بالتوجه إلى سواحل المغرب الأوسط لمساعدة الجيش. وعندما وصل خبر قدوم جيش الموحدين إلى مدن المغرب الأوسط، ثار السكان ضدّ بني غانية، وأعانوا الموحدين على استرجاع الجزائر ومليانة وبجاية. وعندئذ أفرج علي بن غانية عن قسنطينة، وتوجّه إلى جنوب إفريقية، فاستولى على توزر، سنة 582 هـ، في بلاد الجريد، بعد أن حاصرها وقطع نخيلها، ثم على قفصة. واستقرّ مدة بتلك المناطق، ومنها أصبح يهدد النواحي الشمالية، مثل ناحية القيروان.

غير أن الأحوال ساءت في بجاية، حيث قلت المواد الغذائية وانتشرت الفوضى وعمت الأوبئة. فاستدعِيَ واليها أبو زيد، وعُيِّن مكانه أبو عبد الله، أخو يعقوب المنصور. ونظرًا لخطورة الموقف، طلب الوالي الجديد من أخيه الخليفة أن يقدم بنفسه إلى إفريقية، على راس جيش آخر، للقضاء على ثورة بني غانية. وكان هؤلاء قد استمالوا إلى جانبهم عرب رياح والأثبج وغيرهم، وصاروا يهددون إفريقية كلها.

---

13. انظر: عبد الرحمن بن خلدون، م.س.، ج6 ص –292 293؛ الزركشي، م.س.، ص15؛ A. Laroui, op. cit., pp. 175 - 76.

ولم يتأخر يعقوب المنصور عن تلبية طلب أخيه، فجهّز جيشا قويا، وغادر مراكش في شوال 582 هـ، متوجّهًا إلى إفريقية. فلما بلغ تونس، ارتحل علي بن غانية وحلفاؤه إلى ناحية قفصة، حيث انتصروا على جيش أرسله يعقوب المنصور لمحاربتهم، في ربيع الأول 583 هـ ثم سار الخليفة الموحدي بنفسه على رأس جيشه نحو الجنوب للقاء بني غانية. وفي شعبان 583 هـ، كانت المعركة الحاسمة قرب قابس، وكان النصر فيها حليف الموحدين، الذين استولوا على بلاد الجريد كلها وقفصة في ذي القعدة 583 هـ، فالتجأ بنو غانية إلى الصحراء، وعاد يعقوب المنصور إلى تونس، ثم إلى مراكش[14].

وبعد ذلك عرفت المناطق الشمالية بإفريقية فترة أمن وطمأنينة دامت بضعة أعوام. وفي بداية هد الناصر، عاد يحيى ابن غانية، الذي خلف أخاه عليا بعد وفاته، إلى جنوب إفريقية، وأصبح يهدّد المناطق الشمالية، ثم استولى على قابس وصفاقص وبلاد الجريد والقيروان والمهدية، وأخيرًا تونس في ربيع الثاني سنة 600 هـ وصارت إفريقية كلها في قبضته، ما عدا قسنطينة وبجاية. فكان على الموحدين أن يعالجوا الأمر بجدّ، ويقوموا بردّ فعل قوي[15].

وبدأ هؤلاء بتنظيم حملة موفقة، في اتجاه الجزائر الشرقية، فاحتلوا ميورقة ومنورقة، وقضوا بذلك على مصدر هامّ لقوة يحيى بن غانية. ثم جهز الناصر جيشا ضخمًا، وعززه بأسطول قوي، ونهض بنفسه إلى إفريقية، في أواسط سنة 601 هـ، «وبلغ ابن غانية تخبر مجيئه، فوجه ذخائره إلى المهدية، وكان الوالي عليها ابن عمه علي بن الغازي، وخرج من تونس إلى القيروان ثم إلى قفصة، واجتمع إليه العرب»[16].

14. انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 507–511؛ الزركشي، المصدر السابق، ص 16، A. Laroui، op. cit.، p. 176.

15. للمزيد من التفاصيل، انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 517–518.

16. الزركشي، المصدر السابق، ص 17.

فاستولى الناصر على تونس، ثم توجّه إلى الجنوب لمطاردة يحيى ابن غانية، فلم يتمكن من ذلك، وراح يحاصر المهدية. وأرسل جيشا تحت قيادة أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص لقتال يحيى ابن غانية، فلقيه بجبل تاجرا قرب قابس، فانهزم يحيى ابن غانية، وقتل أخوه جبارة وكثير من أتباعه، واغتنم الموحدون محلته. وفي 27 جمادى الأولى سنة 602 هـ، تسلم الناصر المهدية من يد صاحبها علي بن الغازي، الذي أعلن انضمامه للموحدين، فألحقه الناصر ببلاطه، ومكث بتونس حوالي سنة قضاها لإصلاح شؤون إفريقية ومطاردة الثوار بطرابلس وجبل نفوسة، والتجأ يحيى ابن غانية إلى صحراء برقة. ثم غادر الناصر تونس في شهر رمضان 603 هـ، عائدًا إلى مراكش فدخلها في شهر ربيع الأول سنة 604 هـ. وقبل مغادرته لتونس، رأى الناصر أن يولي أبا محمد بن أبي حفص على بلاد إفريقية، فاشترط هذا الأخير «أن يختار من رجال الموحدين من يجلس معه ويكون عونا له في جميع ضرورياته، وأن لا يتعقب عليه في أموره في تولية ولا عزل، فقبل الناصر شرطه»[17]، وكلفه بالقضاء على بني غانية وحلفائهم. ثم وُفق الشيخ عبد الواحد بن أبي حفص في مطاردة ابن غانية، فهزمه شرّ هزيمة على ضفة وادي شبرو، قرب تبسّة، في ربيع الأول سنة 604 هـ[18].

وقد نتج عن ذلك أن اضطرّ بنو غانية إلى تحويل تحركاتهم نحو المغرب الأوسط، بغية استلاب الخيرات وتخريب المدن. ففوجئ الموحدون بغارة يحيى ابن غانية على سجلماسة، وعيثه بها نهبًا وتخريبًا. ثم قصد إلى ناحية تلمسان، وتحالف مع بعض القبائل الزناتية القاطنة جنوبها.

كان السيد أبو عمران موسى بن يوسف بن عبد المؤمن، والي تلمسان، قد خرج إلى تلك القبائل يدعوها إلى الطاعة، ففاجأه ابن غانية قرب تاهرت وهزمه وقتله مع جميع مَن كان معه، وصار يهدد تلمسان. فتوجّه حينا والي فاس،

17. نفس المصدر، ص 18. انظر أيضا: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 518-520.

18. الزركشي، المصدر السابق، ص 18-19؛ عبد الرحمن بن خلدون، ج6، ص 403.

السيد أبو زكرياء يحيى، إلى تلمسان بالمدد، وأقام بها لحمايتها، إلى أن وصلها الوالي الجديد، أبو زيد بن يوجان، مع جيش قوي. وعندئذ عدل يحيى بن غانية عن اقتحام المدينة، وأغار على تاهرت في سنة 605 هـ، فنهبها وعاث فيها فسادًا وخرّبها. ثم واصل سيره نحو جبل نفوسة، جنوب إفريقية. فتصدّى له والي إفريقية في معتصمه بجبل نفوسة، في سنة 606 هـ، وهزمه هزيمة كبرى، قضت على آماله، وبعثت الارتياح في نفوس الأهالي[19].

والتجأ يحيى بن غانية إلى واحة ودّان، ولم يغادرها طيلة ولاية عبد الواحد بن أبي حفص، ولم يجسر على العودة إلى غاراته التخريبية إلا بعد وفاة هذا الأخير في محرم سنة 618 هـ. وأخطر حركة قام بها بعد ذلك هي التي قادته، في أواخر سنة 623 هـ، إلى ناحية قسنطينة، ثم إلى بجاية فتدلس، ثم إلى متيجة، فخرّب ناحيتها، وكانت من أغنى مناطق المغرب وأخصبها. وهبّ عبد الرحمن بن منديل، أمير مغراوة، لصدّ هجومه، فهُزِمَ ابن منديل، وقتله ابن غانية صبرًا، واستولى على عاصمته مليانة، ثم على الجزائر.

وفي أواسط سنة 624 هـ، نهض الشيخ أبو محمد عبد الله، والي إفريقية، لمطاردة ابن غانية وأتباعه من هوارة، فسار إلى بجاية وأصلح شؤونها، ثم إلى مليانة وغيرها من المدن، واقتفى أثر ابن غانية نحو الجنوب الغربي. ثم عاد والي إفريقية إلى تونس، في رمضان سنة 624 هـ، بعد أن أعاد الأمن في ربوع المغرب الأوسط.

وبعد ذلك تلاشى أمر يحيى ابن غانية وقلّ ناصره، وبقي يرتاد بعض مناطق المغرب الأوسط إلى أن توفي سنة 631 هـ قريبًا من مليالة[20]. وكانت الأوضاع السياسية قد تطوّرت آنذاك تطورًا كبيرًا، من جراء ضعف الخلفاء الموحدين، الذي أدّى إلى تصدع صرح دولتهم، وانقسام أجزائها.

19. انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 403–405.
20. انظر نفس المصدر، ج6، ص 405–407.

5. تأسيس إمارة الحفصيين

يرجع تأسيس الإمارة الحفصية بالدرجة الأولى إلى اختلاف مذهبي سياسي بين والي إفريقية الحفصي والخليفة الموحدي إدريس المأمون بن يعقوب المنصور (624–629 هـ)، وكان إدريس المأمون قد دعا لنفسه بالخلافة، وهو بالأندلس، وبايعه أشياخ الموحدين. ثم رجعوا عن بيعتهم، وعيّنوا خليفة آخر هو يحيى المعتصم. وعندئذ اشتدّ غضب إدريس المأمون، ولجأ إلى طلب مساعدة ملك قشتالة. ثم أجاز إلى المغرب قاصدًا إلى مراكش، فدخلها بعد أن هزم يحيى المعتصم، وانتقم من الأشياخ الذين نكثوا بيعته، فقتل زهاء مائة منهم، وأعلن بطلان رسوم المهدي والعصمة، وأمر الناس في سائر الأنحاء باعتبار ذلك بدعة يجب تركها وإزالتها. والظاهر أن هذا الإعلان، الذي كان يهدف إلى تحطيم أسس الدعوة الموحدية، يشكل خطوة حساسة في الصراع حول النفوذ السياسي، الذي كان قائمًا بين الخلفاء من أبناء عبد المؤمن وبين أشياخ الموحدين، منذ وفاة الناصر[21].

وفي أوائل سنة 627 هـ، أعلن أبو زكرياء بن عبد الواحد بن أبي حفص، والي إفريقية، خلع طاعة إدريس المأمون، وبايع يحيى المعتصم، واتخذ لقب أمير، محققا بذلك أولى خطوة نحو استقلاله. ثم استولى، سنة 628 هـ، على قسنطينة، ثم على بجاية، وأصبح بذلك نفوذه يشمل إفريقية كلها. وفي 7 صفر 633 هـ، أسقط أبو زكرياء في الخطبة الدعاء إلى الخليفة الموحدي. وبعد وفاة يحيى المعتصم، بويع أبو زكرياء الحفصي بالإمارة، وذكر اسمه في الخطبة بعد المهدي، فتمّ انفصال إفريقية عن خلافة الأسرة المومنية[22].

21 انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 405–406؛ الزركشي، المصدر السابق، ص 18.

22 انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 593–595؛ الزركشي، المصدر السابق، ص 21–27.

6. تأسيس إمارة بني عبد الواد:

لقد تقلص ظلُّ الموحدين بالمغرب الأوسط أيام خلافة إدريس المأمون، فلم يبق لهم فيه نفوذ إلا في مدينة تلمسان، حيث كان واليها السيد أبو سعيد عثمان، أخو المأمون، يحاول إنقاذ الموقف بها. وكانت بعض قبائل زناتة قد استولت على أغلب النواحي. فكان أولاد منديل، من قبيلة مغراوة، قد احتلوا ناحية شلف ومدنها الهامّة، مليانة وشرشال وبرشك وتنس. وأسس بنو توجين إمارة أخرى تشمل ناحية السرسو وجبل وانشريس كله، وملكوا المدية مدة. وكان بنو راشد قد استقروا في الجبل الذي أصبح يحمل اسمهم، وأهم مدنه قلعة بني راشد.

أما بنو عبد الواد فإنهم انتهزوا فرصة ضعف دولة الموحدين، وما أصاب المغرب الأوسط من فوضى واضطراب أيام ثورة بني غانية، وعيثهم فسادًا وتخريبًا في مناطقه، فبسطوا نفوذهم سنة 623 هـ على نواحي تلمسان، تحت قيادة جابر بن يوسف. ولم يقوموا بزحف موحد ومنظم، بل كانت كل فصيلة من القبيلة تحتلُّ إحدى المناطق. ولم يقدم بنو عبد الواد على اقتحام مدينة تلمسان آنذاك. غير أن تطور الأوضاع السياسية إثر ذلك، وما حدث من اختلاف واضطراب في صفوف الموحدين، قد ساهم مساهمة كبرى في انهيار سلطتهم وانتشار الفتن في سائر أنحاء المغرب الأوسط، وتهييئ الظروف الملائمة لتحقيق أهداف بني عبد الواد وغيرهم من قبائل زناتة.

والظاهر أن السيد أبي سعيد عثمان، والي تلمسان، قد شعر بالخطر، فحاول أن يقضي على نفوذ بني عبد الواد قبل أن يستفحل أمرهم، فقبض على أشياخهم واعتقلهم. وشفع فيهم إبراهيم بن إسماعيل اللمتوني، أحد رجال الحامية، فرُدّت شفاعته، فثار ضد الوالي، وأطلق سراح أشياخ بني عبد الواد، واعتقل السيد أبا سعيد مكانهم. وقيل إنه كان يرمي إلى الانتصار لابن غانية.

وحدث أن دعا إبراهيم هذا أشياخ بني عبد الواد لوليمة، ولكن هؤلاء لم يثقوا به، ورأوا في تلك الدعوة مكيدة تحاك ضدهم، فقبضوا عليه، واستولوا على تلمسان بدون حرب، سنة 627 هـ، معلنين الدعوة لإدريس المأمون. وبايعتهم نواحي تلمسان كلها، إلا مدينة ندرومة، فتوجه إليها جابر بن يوسف، سنة 627 هـ، وحاصرها، ولكنه قتل أثناء الحصار بسهم أصابه.

فخلفه في الإمارة ابنه الحسن، غير أنه استقال عنها بعد ستة أشهر، وتركها لعمه عثمان بن يوسف في أوائل سنة 630 هـ فساءت سيرته، وأخرج من المدينة في شهر رجب سنة 631 هـ عُيِّن زكدان بن زيان في منصب الإمارة (وزيان ابن عم جابر بن يوسف)، فلم يبايعه من بني عبد الواد بنو مَطْهَر، الذين استعانوا ببني راشد وحاربوه، فقتِلَ زكدان خارج تلمسان، في 24 ذي القعدة سنة 633 هـ[23].

فخلفه أخوه يغمراسن بن زيان، فكان أول أمير أعلن استقلاله بتلمسان، ويعتبر عهده بداية الدولة العبد الوادية أو الزيانية، ونهاية عهد الموحدين بالمغرب الأوسط.

23 انظر: يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ج1، تحقيق عبد الحميد حاجيات، ص 198–199؛ أبو عبد الله التنسي، نظم الدر والعقيان، تحقيق محمود بوعياد، ص 112–113.

الجزائر في عهد دولة الحمادية

الدولة الصهادية سياسيا وحضاريا

وجد المعز لدين الله في بلقين بن زيري الرجل المنشود الذي سيخلفه على حكم افريقية و المغرب الأوسط حين قرر الرحيل بأهله و دولته من تونس إلى مصر في سنة 361 هـ، و كان بلكين في الأصل واليا على مدينة الجزائر و حين عهد إليه المعز بالولاية لقبه بسيف الدولة و لقبه بظبي الفتوح و سماه بيوسف و أطلق يده كاملة في الأعمال و الجيش و المال و أمر الرعية بالسمع و الطاعة له. و لقد عمل بلقين على توحيد المغرب كله و ضرب السكة باسمه، و بعد وفاته خلفه ابنه المنصور الذي أعلن في الناس يوم مبايعته :– إن أبي و جدي كانا يأخذان الناس بالسيف و أنا لا أخذ أحدا إلا بالإحسان. – و ستقر في مدينة المنصورية قرب مدينة القيروان بتونس، لكنه غير سياسته حين ثارت عليه كتامة بقيادة أبي الفهم حسن بن نصر الكتامي، و على الرغم من تحذير الخليفة الفاطمي له بعدم التعرض لها، و لقد حاربها المنصور و انتصر سنة 378 هـ / 989 م.

ولى الأمر بعد المنصور ابنه باديس الذي اقطع عمه حماد بن بلكين نصف الولاية الجزائرية و امده بالخيل و السلاح و جعل النصف الثاني لعمه يطوفت بن بلقين و حمل كل منها لقب نائب باديس، فانتهز المغراوي عامل الأمويين الفرصة و احتل معظم المغرب الأوسط و هزم الصنهاجيون سنة 379 هـ / 998 م حتى أدرك باديس بنفسه الموقف، لكن الدعوة للأمويين السنيين كانت قد استفحلت خصوصا و أن المصالح التجارية لهذه المنطقة المغربية كانت مرتبطة عبر البحر مع الأندلس أكثر مما هي عليه مع مصر.

و كان قد خلف المعز بن باديس أباه إذ عرف عهده انفصال الحما ديون و تأسيسهم لدولتهم الخاصة بهم.

نشأة الدولة الحمادية

نسب حمّاد :

يعود نسب حماد بن بلكين إلى زيري بن مناد بن منقوش بن صنهاج **الأصغر، بن صنهاج الأكبر** و هو ينحدر من قبيلة صنهاجة التي كانت على حد قول بن خلدون (من القبائل البربرية، حتى لقد زعم كثير من الناس أنهم الثلث من أمم البربر) و تعود قبيلة صنهاجة إلى صنهاج أحد أبناء برنس بن بربن مازيغ بن كنعان بن نوح عليه السلام، و قد اتفق الكلبي و الطبري و ابن خليكان و ابن الأثير بان صنهاجة ترجع إلى **صنهاج بن المثنى بن المنصور بن مصباح بن عصاب بن مالك عامر بن حمير** الأصغر من سبأ مؤسس الدولة الحميرية أما ابن خلدون و ابن حزم فيريا أنها قبيلة بربرية و ليست عربية، و يرى **النويري** أن أول شخص صنهاجي قدم إلى المغرب **هو المثني بن المسور** و أن أشهر أفراد هّه القبلة بعده هم : **مناد بن منقوش، و زيريبن مناد و بلقين بن زيري.**

بناء القلعة :

بنو حماد فرع من دولة الزيريين من صنهاجة و مطالع هذه الدولة بدأت مع بلقين الزيري الذي ترك له الفاطميون حكم المغرب، فاستعان بأهله في الأعمال، و كان بداية ظهور شخصية حماد بن بلقين بن زيري مؤسس هذه الدولة 387 هـ / 997 م حين ولاه الامير باديس ابن أخيه أعمال الجزائر الشرقية و أقطعه مدينة أشير و ضواحيها و منحه لقب نائب الأمير فيها فطمح إلى انشاء دولة في هذه الربوع و أول ما قام به هو تشيده لقلعة يستقر بها مع أهله و كان ذلك سنة 398 هـ و أحاطها في موقعها الجبلي المنيع بسور حجري سنة 405 هـ فكانت من أكبر البلاد قطرا و قد نشأت

فيها بالتدريج المساكن و الأسواق و المساجد و البساتين كما اجتمعت إليها طرق التجارة من الشمال و الجنوب و من الشرق و الغرب.

أمراء الدولة الحمادية :

حين توف الزعيم حماد سنة 419 هـ كانت دولته قد اكتملت أركانها و خلفه ابنه القائد بن حماد الذي تولى الحكم سنة 419 هـ / 1028 م و كان شبيها بوالده في التدبير و ذا رعاية شديدة بشؤون دولته و قد وجد حكم أسرته أثناءها مدعما من قبل المعز بن باديس الذي ساعده في صد و محاربة الأعراب، غير أن التفاهم ام يدم طويلا إذ سرعان ما تخالفا، و من بين الأحداث التي إتسم بها عهد القائد بن حماد :

- انشغاله بالدفاع عن إمارته ضد حمامة بن زيري المغراوي أمير المغرب الأقصى سنة 430 هـ
- و دفاعه عن مدينة بونة سنة 542 هـ عند محاولة الفرنجة محاصرتها.
- و رفضه الدعوة الفاطمية سنة 434 هـ الأمر الذي أدى أعلن الحرب بينه و بين المعز بن باديس.
- اتصاله ببغداد و مبايعته للخلافة العباسية عبر القسطنطينية.

كما اتسم عهد القائد بانقطاع العلاقات الزيرية الفاطمية إذ ظهر ذلك في كره أهل المغرب للمذهب الشيعي و تشبثهم بالذهب السني.

و لما توفي القائد بن حماد خلفه ابنه محسن سنة 446 هـ/1046 م و الذي كان شبيها بأبيه في أخلاقه و سجاياه، و قد اتسم عهده بكثرة الخلافات بينه و بين أعمامه و ظهرت الشحناء بينهما، فحاربهم في عدة مواقع و قتل ثلاثة منهم، ثم حاربوه و قتلوه في القلعة و خلفه تخيله بلقين بن محمد بن حماد الذي كان عاملا على أفريون و هذا حسب بعض المؤرخين كابن الأثير و ابن الخطيب.

و كان بلقين بن محمد جريئا جبارا سفاكا للدماء و ذلك حسب ما جاء به ابن خلدون، و اتسم عهده بالزحف على بلاد المغرب الأقصى و استيلاءه على مدينة فاس 454 هـ / 1062 م و بها قاتل الصامدة وأخرج منها يوسف بن تاشفين منهزما إلى الجنوب و قاتل أيضا المناوئين لإمارته، كما اتسم عهده بدخول بني هلال المغرب الأوسط بعدما استولوا على مدينة القيروان بعد انتصارهم على الجيش الزيري في حيدران، و من بين الأعمال التي قام بها الحاكم بلقين اخماده لثورة بسكرة هذه المدينة كانت تحت يدي أسرة معروفة ببني رمان التي كانت تملك معظم ضياعها، و كان لمقدمهم جعفر بن أبي رمان شهرة وجاه الأمر الذي دفعه إلى إعلان الثورة على بلقين سنة 450 هـ، فأرسل هذا الأخير جيشا بقيادة الوزنم خلف ابن أبي حيدرة فأخضع بسكرة عنوة و ألقى القبض على شيوخ بني رمان و ذهب بهم إلى القلعة أين قتلواجميعا و أسندت إمارة بسكرة إلى أسرة بني سندي.

لقد قتل الحاكم بلقين بن محمد مباشرة بعد إخضاع مدينة فاس سنة 454 هـ من قبل أحد أقربائه و هو الناصر بن علناس الذي تسلم الحكم و أضحى من أشهر أمراء الأسرة الحما دية بما شيده من قصور خارج القلعة و بما شيده كذلك من مساجد و مباني، و قد اتسم عهده ببعض الأحداث منها :

- هجوم علي بن رقان قلعة بني حماد

- هجوم الحما ديون على تونس سنة 457 هـ / 1065 م بعد ما تحالفوا مع الهلاليين غير أن هذا الهجوم باء بالفشل بعدما أعلن الأمير الزيري تميم الحرب ضد الحماديين و بعد استمالته لبني رباح فأحضرهم إليه و قال لهم – أنتم تعلمون أن المهدية حصن منيع أكثره في البحر، و لا يقاتل منه في البر إلا أربعة أبراج يحميها أربعون رجلا و إنما جمع الناصر العساكر إليكم – فقالوا : الذي تقوله حق و نحب منك المعونة –. فكان لهم ما طلبوه و تمكن الأمير الزيري بفضل دهائه تحقيق الانتصار على الناصر الذي رجع مهزوما إلى قلعته.

- و قد حاول الناصر مرة أخرى إخضاع تونس سنة 460 هـ / 1068 م إذ دخل مدينة القيروان حيث خضع له قائدها ابن ميمون.

- كما قام الناصر باحتلال جبل بجاية و تأسيسه لمدينة سماها باسمه الناصرية سنة 460 هـ / 1068 م، و عرفت المدينة في التاريخ باسم بجاية، و قيل أن الناصر أمر رعاياه بناء المدينة و اعمرها مقابل إعفائه من دفع الضرائب، و قد شيد الأمير قصورا عظيمة سمي أحدها بقصر ألؤلؤة و استقرب الناصر ببجاية سنة 461 هـ / 1069 م. و لما توفي الحاكم الناصر بن علناس سنة 481 هـ / 1088 م خلفه على الإمارة ابنه المنصور و قيل انه كان قائما على أمره... يكتب و يقول الشعر و يذهب في أموره مذهب ابن جعفر المنصور من رفع الثياب و التحفظ على القليل من الأشياء.

و في عهده عرفت مدينة بجاية إزهارا كبيرا إذ عرفت بمدينة القصور و الرياض و البساتين و أصبحت بذلك عاصمة الحماديين و مركزا ثقافيا و إشعاعيا هاما في المغرب الأوسط خاصة و المغرب الإسلامي عامة، و كان يقصدها الكثير من الشعراء و الكتاب و العلماء و المتطلعين في جميع مجالات المعرفة و يذكر أنه أقام بها العالم الصوفي سيد ابو مدين شعيب الغوثي المدفون بتلمسان. و قد عرف في عهد المنصور أيضا بعض الأحداث كمحاربته للمرابطين و بعض البطون الزناتية، كما قام بغزو مدينة تلمسان سنة 496 هـ / 1102 م حيث وصل إلى منطقة معروفة بوادي الصفصاف ضواحي تلمسان في سنة 496 هـ ثم توجه نحو تلمسان ففتحها.

و في سنة 498 هـ مالت المنصور و خلفه ابنه باديس الذي لم يكن حكمه طويلا إذ مات في نفس السنة التي تولى فيها الحكم، و حسب بعض المؤرخين لم يكن هذا الحاكم يتمتع بالصفات المطلوبة لشغل الفراغ الذي تركه أبوه المنصور، و يقال أنه كان شديد البأس عظيم النظر.

و قد خلف باديس الأمير العزيز بن المنصور الذي كان منفيا بمدينة جيجل من قبل أخيه باديس و بعد وفاة هذا الأخير بعث إليه قائد الجيش علي ابن حمدحون و تمت مبايعته ببجاية سنة 498 هـ، فاستقر بها و طالت مدة حكمه التي اتسمت بالهدوء و الأمن، و قد عرف عهده بعض الأحداث كهجوم بني هلال قلعة بني حماد و محاولة الحماديين غزو تونس.

و عندما توفي العزيز بن المنصور 515 هـ / 1121 م خلفه ابنه يحي الذي يعد آخر الأمراء الحماديين و أطولهم مدة و قد أجمع المؤرخون أنه كان ضعيف الشخصية مولع بالصيد و النساء، عاش في دولة بلغت أوج ازدهارها و أصبحت تعيش أسباب الانهيار و الانحطاط، مما سمح باكتساحها من قبل عبد المؤمن بن علي الموحدي بعدما استولى على المغرب الأقصى، ثم على مدينة الجزائر و بجاية ثم قلعة بني حماد سنة 547 هـ / 1143 م.

مجتمع بني حماد :

أ. السكان :

كان مجتمع المغرب الأوسط عبارة عن مزيج من أجناس مختلفة اختلطت بعضها ببعض، و كانت ذات نظام اجتماعي متوارث و مبني على القبلية شأنه في ذلك شأن القبائل العربية في المشرق و الأندلس.

و قبل وصول بني هلال إلى المغرب الأوسط التي كانت تمتد من شرشال إلى مرسى الدجاج و من وادي شلف إلى القبائل الكبرى و من وادي شلف إلى الحضنة و هي التي كانت تتولى أمور أشير و مليانة و الجزائر و المدية وسوق حمزة و المسيلة.

و كتامة كانت تتمركز في القبائل الصغرى الحالية كجبال بجاية و سطيف و القل و جيجل و من بين قبائل كتامة بني زندوي الذين كانوا يسكنون الجبال و عرفوا بشجاعتهم. أما قبائل زناتة فكانت تقطن المسيلة و بسكرة و جبل الأوراس و تهرت و تلمسان. و من بين القبائل الزناتية نجد هوارة، أوربة، بونة، سدراتة.

و قد أنظمت إلى هذه القبائل قبائل أخرى من بينها قبيلة بي هلال و التي كانت تتكون من بني عدي و جشم و قد اتخذت من الأرياف مركزا خاصا بها خاصة بعد الاتفاق الذي تم بينهم و بين بني حماد ثم استقروا بالمدن إلى جانب الحماديين خصوصا في عهد يحي بن عبد العزيز، و إلى جانب ذلك هناك بعض الفئات التي سكنت المغرب الأوسط كالأندلسيين و اليهود و غيرها.

ب. اللغة :

كان سكان المغرب الأوسط يتكلمون البربرية و لما قدمت الفئات العربية حاملة رسالة الإسلام أسلم أبناء المغرب في فترات متعاقبة و أصبحوا يتكلمون العربية، و لقد اتخذت دولة بني حماد العربية لسانا لها، و لم يشمل سائر الجهات إلا بعد حملة القبائل العربية كقبيلة بني هلال التي كان لها الفضل في تعريب القبائل البربرية.

ج. طرق العيش :

من خلال تقصي حالة سكان بني حماد فإننا نجد أن مكاسبهم تختلف من طبقة إلى طبقة أخرى حسب طبيعة أرض المغرب الأوسط من بادية وريف و مدينة و ساحل و تل و صحراء، فالبدو مثلا كانوا يملكون الأنعام و الرحل منهم يستخدمون الخيام لسهولة الانتقال و سكان الأرياف ينعمون بالخيرات التي تنتجها الأرض، إضافة إلى ما يكسبونه من أنعام و قد يشاركهم في ذلك سكان المدن. أما الحواضر كبجاية و مدينة الجزائر و القلعة فكان سكانها يعيشون في رخاء لأن أغلبهم كان يحترف حرفة التجارة.

الحياة السياسية للدولة الحمادية:

1. طبيعة الحكم :

لقد كان نظام الحكم في دولة بني حماد وراثيا منحصرا في أسرة بن حماد، ولم يتغير هذا النظام إلا في ظروف قاهرة، كما حدث لمحسن الذي قتل، و تولى بدلا منه بلقين بن محمد بن حماد، وكما حدث لبلقين حين قتله النصر و تولى مكانه، ولباديس الذي مات في جو مشبع بالكراهية نحوه قبل أن يستكمل سنة، و الذي يبدو لنا أنه لم يترك ذرية[1] فكانت هذه الصراعات السياسية و الانقلابات العسكرية تنحصر داخل الأسرة الحمادية.

كان على رأس الدولة الحمادية أمير يخضع تارة للعباسيين و تارة إلى الفاطميين، و كان يطلق على الحاكم الأمير أو الملك، و اللفظان استعملا في التعبير عن الحاكم و الدولة في سائر الكتابات المعاصرة للدولة [2] وكان هذا الأمير أو الملك في بدية الأمر يدير أمور إمارته بعد إنشائه لإدارة مركزية و عين القضاة و العمال و نظم الجيش و جهز الوزارة.

إن أول وزير حمادي ذكره المؤرخين هو الوزير محسن بن القائد الذي اغتيل عندما اعتلى باكين بن محمد العرش (447–454 هـ) و كان وزير بلقين بن محمد عرف باسم خلف بن أبي حيدرة و خلفه أبو بكر بن الفتوح الذي استوزره الناصر (454–481 هـ).

و لعل أبرز وزراء بن حماد «بنو حمدون» الذين سيطروا على الدولة الحمادية طيلة عهد يحي بن العزيز بن المنصور و الذين كانت لهم يد في سقوط و نهاية دولة الحماديين.

1. عبد الحليم عويس مرجع سابق ص 205.
2. نفس المرجع ص 206.

و كان للأمير عمال في المدن و أهم ممالكهم الجهات الشمالية كان يدير شؤونها عمال ن آل حماد مثل الجزائر و مرسى الحجاج و جيجل و قسنطينة و القلعة و أشير و سوق حمزة [3] و كانت بعض الأسر تحكم بعض المناطق في ظل الحكم الحمادي ومن هؤلاء «بنو رمان» و كانوا يتوارثون حكم الجنوب في عاصمتهم بسكرة قاعدة منطقة الزاب [4] و كان بنو رمان من البربر، و يقول جورج مارسي أنهم من أصل لاتيني [5].

2. الإدارة المركزية :

كانت الإدارة المركزية في عهد الدولة الحمادية تشتمل على ديوان الإنشاء و كان على رأسه كاتب و ديوان البريد ومن بين الكتاب البارزين في دولة بن حماد كاتب الناصر بن علناس الذي اغتيل في معركة سبيبة (457 هـ)، و عمر بن فلفول كاتب العزيز و أبو عبد اللّه محمد الكاتب و أبو القاسم عبد الرحمن.كما أنشأ الحماديون ديوان البريد مستعملين في ذلك الحمام الزاجل و الإشارات بالمرايا العاكسة[6].

3. القضاء:

كان القضاء من أعظم وظائف الدولة، كان مستقلا عن الإدارة، كان متصلا بالدين و الشرع إذ كان ينظر في الأيتام و المواريث و الوصايا و الحبوس و يظهر أنه كان على المذهب المالكي الغالب على أهل المغرب و الأندلس[7]ومن بين القضاة الذين ذكروا في كتب التاريخ نجد القاضيين الحما ديين :قاسم بن عبد الرحمن قاضي قسنطينة و عبد الرحمن بن الحاج الصنهاجي قاضي بجاية.

3. الميلي :تاريخ الجزائر في القديم و الحديث ص236.
4. عويس مرجع سابق ص207.
5. الميلي كمرجع سابق ص237.
6. بوربية مرجع سابق ص123، موجز التاريخ للكعاك ص267.
7. الميلي ص237، عويس ص207.

4. الجيش و الأسطول:

لقد اعتمدت الدولة الحمادية في تأمين جذورها البحرية و البرية على ركنين مهمين هما الجيش و الأسطول ولقد لعبا أدوار كبيرة في استتباب الأمن الداخلي و حماية الدولة من الغارات الخارجية لاسيما من غارات القبائل الهلالية.

فكانت وحدات الجيش تحت إدارة الملك أو الأمير نفسه أواحد أفراد آل حماد فمثلا كان بلقين بن محمد في الجيش و حارب زناته و بعث جيشا يقمع ثورة أهل بسكرة كما قاد الناصر الجيش الذي أخرج علي بن رقان من قلعة بن حماد و الجيشين اللذين هجما على تونس و كلف وزيره خلف بن أبي حيدرة بخمد ثورة أهل بشارة و ابنه المنصور بقتال زناته الذين كانوا قد تحالفوا مع بن هلال[8].

و قد اختلف المؤرخون في تحديد قواد الجيوش حاربت الموحدين بتلمسان أو التي هاجمت المهدية للمرة الأولى و الثانية و مهما اختلف المؤرخون في ذلك يبدو أن الدولة الحمادية كانت تتوفر على جيش منظم كان مشكلا من عساكر من قبائل صنهاجية و عبيد ووحدات زناتية و هلالية و قد فاق عدد العسكر الحمادي الثلاثين ألف.

و كان للحماديين أسطولا لاسيما في عهد بجاية إذ كانت هذه المدينة دار صناعة لإنشاء الأساطيل و المراكب و السفن[9].

لقد تمكن الحماديون من بناء أسطول يحمي مدنهم الساحلية كجيجل و بونه و الجزائر و بجاية....وبذلوا قصارى جهودهم في سبيل النهوض بالبحرية الحمادية للوقوف في وجه البحرية المسيحية.و كان للأسطول الحمادي دور كبير في الحروب التي نشبت بين المغرب الأوسط و إفريقية في عهد العزيز بن المنصور.

8. بوريبة مرجع سابق ص 126.

9. عويس مرجع سابق ص 208. أنظر أيضا : الجزائر في التاريخ العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني د.رشيد بوريبة، د-موسى لقبال، د.محمد بلقراد د.عبد الحميد حاجيات. ص 224.

الحياة الاقتصادية

قد انقلبت الحياة الاقتصادية للدولة الحمادية بين مراحل مختلفة بتأثير العوامل السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية المحيطة بها كانت الدولة الحمادية في رقي اقتصادي انتقل الناس به من البداوة إلى الحضارة، ومن خشونة العيش إلى الظروف و أسباب النعم و الترف.

و قد عرفت الدولة الحمادية استقرارا اقتصاديا حقيقيا لاسيما في عهدي القائد و بلقين بن محمد، ومن الواضح أن القلعة لعبت دورا كبيرا في تحقيق هذا الاستقرار و الرخاء معا و كانت نفسها تتصدر مدن الدولة في مجال الحركة الاقتصادية [10] و تتمتع برفاهية مترفة و كانت كما يصفها البكري المعاصر لدورها هذا مقصد التجار، وبها تحل الرحال من العراق و الحجاز ومصر و الشام و سائر بلاد المغرب و هي اليوم مستقر مملكة صنهاجية [11] و لقد اشتهرت دولة بني حماد بالزراعة و الصناعة.

1. الزراعة:

كان اقتصاد دولة بني حماد يقوم أساسا على الزراعة.و أما الصناعة بأنواعها و صيد السمك، فقد كانت أعمال ثانوية، و اشتهرت مدن دولة بني حماد بالأراضي الزراعية الخصبة سواء تلك الواقعة في الشمال و التي كانت تشتهر بزراعة الحبوب خصوصا القمح و الشعير[12] الذي كان يشكل الإنتاج الأساسي، أما مناطق الجنوب فاشتهرت بزراعة النخيل فكانت كثيرة النخيل و الزيتون و أصناف الثمار[13] لقد تعددت ألوان النشاط الزراعي في دولة بني حماد، و تعددت المحاصيل التي تنتجها أراضيها الشمالية و الجنوبية

10. عويس ص220.
11. المغرب للبكري ص49.
12.
13. البكري المغرب مصدر سابق ص 52.

ففي قلعة بني حماد التي حلت دور العاصمة الأولى لفترة كبيرة من عمر الدولة الحمادية «فواكه و نعم يلحقها الإنسان بالثمن اليسير، و بلادها جميع ما يضاف إليها تصلح فيها السوائم و الدواب، لأنها بلاد زرع و خصب، و فلاحتهم إذا كثرت أغنت و إذا قلت كفت»[14].

فاشتهرت بلاد القبائل بأشجار الزيتون أكثر من غيرها، و كان لكل قرية فيها معاصرها التي تعصر الزيتون و تحوله إلى زيت بالطريقة التي ورثتها إفريقيا على الرومان.

و قد احتلت بجاية المكانة الكبرى فقد عرفت بواد و مزارع و تعددت بها المحاصيل الزراعية كالحنطة و الشعير و إنتاج التين الذي يجفف و يصدر إلى الخارج، و التين هو الإنتاج الذي اشتهرت به أيضا منطقة تنس و مرسى الدجاج، و عرفت بجاية أيضا بالحبوب القمح الشعير و الفول و العدس و الحمص و الذرة و البزلاء و من الفواكه العنب و التين و الرمان و السفرجل و التفاح و الكمثري و العنب و الزعرور و الخوخ و المشمش و التوت و القراصيا و الزيتون و الأترج و الليمون و النارحج و اللوبيا و اللفت و البادنجان و من الزهور الرياحين و الياسمين و النرجس»[15] و كانت فلاحة شاسعة في الغدير[16] و نقاوس[17]، و طولقة و ألفل و جيجل و الخضراء[18] و قرية بني وازلفن[19] قرب تنس و شرشال[20].

---

14. الإدريسي ص 117 أنظر أيضا المدن المغربية اسما عيل العربي ص170.
15. صبح الأعشى: ج. 5 ص113/112.
16. تبعد الغدير عن المسيلة باثني عشر ميلا، و هي مدينة حسنة و أهلها بدو، و لهم مزارع و أراض مباركة، و الحرث بها قائم الذات.
17. مدينة صغيرة كثيرة الشجر و البساتين و أكثر فواكهها الجوز.
18. الخضراء مدينة صغيرة حصينة على نهر صغير، عليه عمارات متصلة و كروم و بها من السفرجل كل بديع و لها سوق و حمام و سوقها يجتمع إليها من أهل الناحية.
19. بنو وازلفن: قرية كبيرة لها كروم و جنات ذوات سوان يزرعون عليها البصل و الشهدانج و الحناء و الكمون و لها كروم كثيرة و معظمها على نهرشلف.
20. الجزائر في التاريخ ص227 بورويبه ص 130.

و كانت التمور موجودة ببسكرة و طولقة و طبنة و نقارس و المسيلة و عرفت بسكرة **ببسكرة النخيل** كما جاء في قصيدة لأحمد بن حامد الموذي:

ثم أتى بسكرة النخيل ××× قد اغتدى في زيه الجميل[21]

و قد اشتهرت بجاية و بونة و ناحيتهما بانتشار غابات الصنوبر و الذي يستخرج منه الزفت البالغ الجودة و القطران[22].

و اشتهرت مدن دولة بني حماد بتربية الحيوانات لا سيما البقرو الغنم و الخيل و البغال و الإبل و النحل.فكان البقر بجيجل و الجزائر و بونه والمسيلة و طبنة و تاهرت و تدلس (دلس) و الغنم بالجزائر و المسيلة و طبنة [23] و تاهرت و الخيل بالمسيلة و طبنة و تاهرت و ذكر الإدريسي أن الجزائر العسل و السمن كثيران «ربما يتجهز بهما إلى سائر البلاد و الأقطار المجاور لهم و المتباعدة عنهم و أن بقسنطينة العسل كثير و كذلك السمن يتجهز به منها إلى سائر البلاد»[24].

2. الصناعة و المعادن:

كانت مدن دولة بني حماد تتوفر على معادن متعددة فوجد الحديد ببجاية و مجانة التي كانت تسمى «مجانة المعادن» حيث كانت أهم منطقة يستخرج منها الحديد و إلى جانب معدن الحديد كان يوجد معدن الفضة غير بعيد من مجانة التي تجلب من جهتها أيضا أحجار المطاحن و قال الإدريسي» إن مجانة جبل شاهق و منه تقطع أحجار المطاحن التي إليها الانتهاء في الجودة

21. البكرى ص52.

22. الإدريسي ص116.

23. طبنة مدينة الزاب و هي مدينة حسنة كثيرة المياه و البساتين و الزروع و القطن و الحنطة و الشعير و بها صنائع و تجارات و أموال...و التمر بها كثير و كذلك سائر الفواكه–أنظر الإدريسي ص 119.

24. البكرى ص67.

و حسن الطحين حتى أن الحجر منها ربما مر عليه عمر الإنسان فلا يحتاج إلى نقش و لا إلى صنعه هذا لصلابته و دقة أجزائه»[25] و يشير البكري إلى وجود عدد من المعادن في منطقة مجانة إذ يقول: «و لها معادن كثيرة منها معدن فضة للواته، يسمى الوريسطي و تعرف بمجانة المعادن»[26].

وتوفر الملح ببسكرة «وداخل بسكرة آبار كثيرة عذبة منها في الجامع بير لا تنزف و داخل المدينة جنان يدخل إليه الماء من النهر و بها جبل الملح يقطع فيه الملح كالصخر الجليل و منه كان عبيد الله الشعبي و بنوه يستعملونه في أطعمتهم»[27].

كما اشتهر مرسى الخرز بمعدن المرجان «ففيه معدن المرجان... و لا أعرف في شيء من البحار له نظيرا في الجودة.و للتجار بها أحوال كثيرة من الأقطار النواحي عند سماسرة وقوف لبيع المرجان و شرائه...»[28]. فكان المرجان من أهم النباتات التي اشتهرت بها دول بني حماد فكان المرجان[29] «يكثر بمرسى الخرز و كان معدنه مخدوما بها و يعمل به كثيرون و يصاد بآلات ذوات ذوائب فتدار الآلة في أعلى المركب فتلتف الخيوط على ما قار بها من نبات المرجان. فيجذبه الرجال إلى أنفسهم و يستخرجون منه الشيء الكثير»[30].

كما اشتهرت قرية متوسة–القريبة من حصن المنصورية على البحر و التي كانت قرية عامرة–بمعادن الجص الذي كان يحمل إلى بجاية[31].

25. الإدريسي.
26. البكري ص145.
27. البكري ص52.
28. عبد الرحمن الجيلالي، ج2، ص265.
29. كان المرجان يستعمل في صناعة الكحل، و يزيد الأدوية التي توقف الدم قوة على وقفه، هذا بالإضافة إلى استعماله في صناعة الحلي و التمائم.
30. عوسي ص 225.
31. الإدريسي ص125.

و لتوفرها على غابات كثيفة فقد المؤرخون على أن بجاية كانت بها دار لصناعة الأساطيل و المراكب و السفن و الحرابي.

و قد اشتهرت دولة بني حماد بصناعة العمائم التي كانت تطرز بالذهب و كان ثمنها باهضا بحيث تساوي العمامة 500 و 600 دينار، و اشتهرت الدولة الحمادية بصناعة الغزل و النسيج و كانت أهم الموارد المستعملة في هذه الصناعة التي تمارسها النساء عادة، و هي الصوف و القطن الذي تنتجه حقول المسيلة و نقاوس و طبنة بكثرة، و الكتان الذي كانت زراعته منتشرة في منطقة بونه.و كان إنتاج صناعة القطن رائجا بحيث اشتق من هذه المادة اسم للتجار الذين يتعاملون فيها (القطان)[32].

كما اشتهرت دولة آل حماد بصناعة الزجاج و صناعة الفخار و الخزف فقد صنع سكان بلاد المغرب الأوسط في عهد الدولة الحمادية كثيرا من الأدوات الفخارية التي يحتاجونها للاستعمال المنزلي فصنعوا القلال، و عرف محترف صناعتها«بالقلال»و صنعوا الجرة و الزير و الأبارق و الكيزان، و الكؤوس و الأقداح و الأطباق و صنعوا الكوانين لمواجهة برد الشتاء و صنعوا القنديل و القدور و الخزف المعماري من قرميد و آجر، و قد كثر على أوان من الخزف المطلي و عليها كتابات عربية كما عثر على قارورات من الزجاج و أدوات منه[33].

3. التجارة:

كانت التجارة من أبرز النشاطات الاقتصادية في دولة بني حماد ولقد ساعدت ظروف سياسية و اقتصادية على أن تزدهر التجارة الحمادية فالظروف السياسية هي الأمن و الاستقرار الذي ساد دولة بني حماد و الظروف السياسية المحيطة بالدول المجاورة كالزيريين شرقا و المرابطين غربا وسياسة بني حماد في المسالمة مع الفئات الاجتماعية من عرب ومسيحيين إضافة إلى الموقع الاستراتيجي الذي يتمتعون به و السواحل الطويلة و المراسي و الأسواق

32. دولة بني حماد اسما عيل العربي ص239.
33. رابح بونار، مرجع سابق ص218.

و العلاقات التجارية التي نشطوا فيها فكانت هناك علاقات تجارية مع مصر لا سيما بعد قدوم جيش مغربي إلى مصر مع المعز لدين الله الفاطمي الذي كان له الأثر الكبير في فتح نوافذ العلاقات التجارية مع المشرق الإسلامي و مصر بالأخص، فقد توافد على مصر عدد كبير من البربر أقاموا في الإسكندرية و ما حولها، ثم كان للطرق البربرية التي أصبحت منتظمة و واضحة و آمنة منذ رحلة المعز إلى مصر أثر في تسهيل العمليات التجارية[34]كمل كانت مملكة بن حماد ترتبط بالسودان الغربي أو دول ما وراء الصحراء عن طريق سجلماسة، بعدد من طرق قوافل التي تنقل إلى المغرب الأوسط منتجات تلك الدول و تعود محملة بالبضائع التي تنتجها و تصدرها مختلف مدن المملكة[35].

و في داخل البلاد الحمادية قامت تجارة واسعة، فكانت مراكزها التجارية قلعة بني حماد وبجاية وبونة، و قسنطينة، و تاهرت، و المسيلة، و الجزائر، و تلمسان ووهران، فقد ذكر الإدريسي أن مدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة الغرب الأوسط و عين بلاد بني حماد و السفن إليها مقلعة و بها القوافل منحطة و الأمتعة إليها برا و بحرا مجلوبة و البضائع بها نافقة و أهلها مياسير تجار و بها من الصناعات و الصنائع ما ليس بكثير من البلاد و أهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى و تجار الصحراء و تجار المشرق و بها تحل الشدود و تباع البضائع بالأموال المقنطرة»[36]بالإضافة قلعة بني حماد التي كانت مركزا تجاريا هاما قبل بناء مدينة قسنطينة فيذكر البكري أنها مقصد للتجار و بها تحل الرحال من العراق و الحجاز و مصر و الشام و سائر بلاد المغرب[37].

و ذكر الإدريسي أن مدينة الجزائر كانت عامرة آهلة و تجارتها مربحة و أسواقها فاتحة و صناعتها نافعة أما قسنطينة فكانت بها أسواق و تجار و أهلها مياسير ذوي أحوال واسعة و معاملات مع العرب.

34. عبد الحليم عويس مرجع سابق ص 227.
35. اسما عيل العربي دولة بني حماد مرجع سابق ص 244.
36. وصف إفريقية و المغرب ص 90.
37. وصف إفريقية و المغرب ص 64.

كانت دولة بني حماد تصدر منتجات متنوعة نحو البلاد الأوروبية و نحو المشرق الإسلامي إلى مصر و الشام و العراق و من بين هذه المنتجات الخيول العربية و البربرية و السمك المقدد، و الجلود المدبوغة و المصبوغة التي تستعمل للدباغة، مثل القشور المعروفة بالقشور البجائية و كانت تشمل هذه الجلود جلود البقر و الغنم و الخيول و المعز و الجمال، و مادة الشمع و التي كانت تشتهر به بونة و بجاية و كانت هذه المادة تصدر خاصة نحو أوروبا ومن بين الصادرات الأخرى تجد مادة زيت الزيتون التي كانت تشتهر بها منطقة بجاية إضافة إلى القمح و الشعير و الفستق و اللوز و التين المجفف و الصوف و القطن و قد ظل القطن يعتبر من المحاصيل الرئيسية في المغرب حتى القرن السادس عشر، و قد كان أهل البندقية يستوردون من بلاد المغرب الأوسط و لا سيما من وهران كميات كبيرة منه [38] كما اشتهرت دولة بني حماد بتجارة المرجان و الذي كان يكثر بسواحل بونة و مرسى الخرز الذي كان يكثر فيه معدن المرجان و كان يقصد التجار من سائر البلاد إلى هذه المدينة فيخرجون منه الكثير إلى جميع الجهات، و المرجان يثبت كالشجر ثم يتحجر في نفس البحر بين جبلين عظيمين و يصاد بالآلات ذوات دوالب كثيرة تصنع من القنب، تدار هذه الآلة في أعلى المراكب فتلتف الخيوط على ماقاربها من نبات المرجان فيجلبه الرجال إلى أنفسهم و يستخرجون منه الشيء الكثير معا يباع من الأموال الطائلة، و كانت تصدر هذه المادة نحو الشرق و اليمن و الهند و الصين [39]. المسالك التجارية (داخليا و خارجيا).

لقد لعبت الطرق التجارية في عهد الدولة الحمادية دورا كبيرا في ازدهار التجارة الداخلية والـــخارجية، من بين المسالك التجارية المشهورة آنذاك:

38. اسما عيل الغربي دولة بني حماد مرجع سابق ص 249.

39. عويس مرجع سابق ص 203.

1. الطرق التي كانت تخرج من قلعة بني حماد و هي ثلاثة :

طريق تتجه نحو بجاية، و اثنثان تتجهان نحو القيروان بإفريقية و الثالثة نحو تنس.

كانت طريق القيروان الأولى تمر بمقر وطبنة و نقاوس و قاساس و باغاية و مسكيانة و مجانة و سبيبة و وادي الرمل.

و كانت طريق القيروان الثانية تمر بالغدير و دكانة و تامسلت و تابسلكي و توبرت و تيجس و قصر الإفريقي و تيفاش و تادميت و ملاق و أبة.

أما طريق تنس فكانت تمر بالمسيلة و نهر جوزة و أشير و سوق هوارة و سوق كرام على نهر شلف و مليانة و الخضراء و بني واريفن[40].

2. الطريق التي تخرج من بجاية:

كانت بجاية قطب لكثير من البلاد و كانت عدة طرق تخرج من بجاية نحو عدة مراكز تجارية و من بينها الطريق التي تخرج من بجاية نحو قلعة بني حماد و كانت تمر بقرى و هي: المضيق و سوق الأحد و حصن تاكلات و سوق الخميس و حصن بكر و حصن وارفو و حصن الحديد و الشعراء و قصر بني تراكش و تاورت و الباب و السقائق و سوق الخميس و الطمامة و سوق الاثنين و حصن تافلكات و تازكا و قصر عطية.

3. الطرق التي تخرج من قسنطينة:

كانت ست طرق رئيسية تخرج من قسنطينة:

طريق تؤدي إلى باغاية، و طريقان تتجهان نحو مدينة بجاية إحداهما تمر بجيجل و الأخرى بابرس و الطريق الرابعة تؤدي إلى مدين و الطريق الخامسة تؤدي إلى سطيف، أما الطريق السادسة تؤدي إلى جيجل.

40. بوروبة الدولة الحمادية مرجع سابق ص 142-143.

4. الطرق التي تخرج من أشير:

فكانت أرب طرق، طريقان تتجهان نحو تنس و طريق تتجه نحو مرسى الدجاج و طريق تؤدي إلى الجزائر.

5. الطريق التي تخرج من المسيلة:

و كانت خمس: طريقان تؤديان إلى القروان إحداهما تمر باوسجيت و دكامة حيث تلتقي بالطريق التي تربط ما بين قلعة بني حماد و القيروان و الأخرى تمر بمقرة تلتقي بطريق قلعة بني حماد القيروان الثانية. و كانت الطريق الثالثة تتجه نحو تاهرت و الطريق الرابعة تؤدي إلى مدينة سطيف.

6. كانت **طرق أخرى** تخرج من تلمسان نحو سجلماسة وطريق أخرى من تاهرت نحو ساحل البحر و طريق من تقاوس إلى بسكرة و باريس[41].

كانت التجارة الخارجية في عهد الدولة الحمادية مزدهرة فكان الحماديون يتاجرون مع الزيريين و الفاطميين و مع العراق و الشام و اليمن و الهند و الصين و المغرب الأقصى عن طريق سجلماسة ثم مع دول السودان على طريق ورقلة. أما الروابط التجارية بين الدولة الحمادية و الجمهوريات الايطالية فكانت تبدو ضعيفة بسبب العلاقات السيئة التي كانت بين الطرفين. و كان الحماديون يصدرون إلى هذه الدول الخشب، المرجان، و التمور و الشمع، الزيتون، و الملح...

مراسي دولة بن حماد

لقد لعبت المراسي دورا كبيرا في ازدهار التجارة الحمادية و لا سيما في تصدير البضائع ذات القيمة الاستراتيجية مثل الخشب الذي يستعمل لبناء السفن و بعض المنتجات الصناعية كالشمع، كما خصصت بعض السفن لاستيراد بعض المنتجات الاستراتيجية كالقمح و من أهم مراسي دولة بني حماد:

41. بوربية الدولة الحمادية مرجع سابق ص 144.

– **مرسى أسلن:**

مدينة حصينة لها سور عظيم و فيها حياة و بساتين كثيرة و لها مرسى ماصون وآمن، و أهم مورد فيها هي الماشية.

– **مرسى الماء المدفون:**

يبعد من مرسى اسلى بـ 13 ميلا، به عيون و به منازل و يقابله من بر الأندلس مراسي الراهب[42].

– **مرسى وهران:**

وهران على مقربة من ضفة البحر و عليها سور تراب متقن و بها أسواق مقدرة و صنائع كثيرة و تجارة نافقة، و مرسى وهران كبير مشتى مصون من الرياح[43]. يقول ابن حوقل «ما أظن له مثيلا في جميع نواحي البربر» و يحيط بالمدينة سور مبني بالطوب[44].

و وهران تقابل مدينة المرية ALMERIA من ساحل بحر الأندلس. و سعة البحر بينها مجريان و منها أكثر من مسيرة ساحل الأندلس و لها على بابها مرسى صغير لا يستر شيئا و لها على ميلين منها المرسى الكبير و به ترسى المراكب و السفن السفرية و هذا المرسى يستر من كل ريح و ليس له مثيل في مراسي حائط البحر من بلاد البربر، و يقال وهران من بر الأندلس، مرسى اسكوبرش المرسى القديم الذي نزله البحريون قبل نزولهم بجَانة و يليه إلى الشرق أيضا مرسى عين فروج و هو مرسى شتوي مأمون و له آبار ماء و بينه و بين وهران في البر أربعون ميلا[45] و يقابله من بر الأندلس مرسى أقله و هو مرسى قصر الفلوس و هي مدينة على البحر غير آهلة بالسكان و غير

42. البكرى، مصدر سابق ص81.
43. البكرى ص81.
44. اسماعيل العربي مرجع سابق ص257.
45. البكرى ص81.

آمنة و يقابلها من بر الأندلس مرسى قرطجنة[46] و يليه مرسى مغيلة بني هاشم و هو مرسى صيفي، بينه و بين قصر الفلوس خمسة و ثلاثون ميلا و يقابل من بر الأندلس قبطيل و يليه مرسى مدينة تنس و هو صيفي كذلك له ماء معين و بينه البحر ميلان. و يذكر البكرى أن مدينة تنس بناها البحريون من أهل الأندلس سنة 262 هـ. و كانت من بين المدن التي يقصدها الأندلسيون بمراكبهم، و هي كثيرة التجارة. و بها فواكه و خصب و أقلاع و حط بها الحنطة و سائر الحبوب، و شرق مرسى تنس يقع مرسى جزيرة وقور و هو مرسى ضيق يستر من الريح الشرقية و لا يستر من غيرها. و وقور في آخر الجون[47] و لهذا المرسى نهر لطيف يصب في البحر و الجزيرة القريبة من البر و يقابل من بر الأندلس مرسى لقنت و يقطع البحر بينهما في خمسة مجار.

- مرسى شرشال:

و هو مرسى قديم يعود إلى الرومان و كانت مدينة شرشال غير مأهولة، و كان لشرشال في القديم ميناء «أرتدم»[48] و فيها رباطات يجتمع إليها في كل عام خلق كثير و يليه جبل شنوة و له مرسى يسمى البطال و هو غير مسكون و له ماء يسير و يقابل من عدوة الأندلس جبل قرون بينهما خمسة مجار و نصف[49] و من شرشال إلى طرف البطال و هو خارج في البحر اثنا عشر ميلا و يقابل هذا الطرف جزيرة في البحر و من طرف البطال ابتداء جون هور و هذا الجون يقطع روسية أربعون ميلا و تقويرا ستون ميلا. و هو قرية صغيرة في وسط الجون على بعد من البحر و بها قوم صيادون للحوت و مكانه أقطار لا يسقط فيه أحد و يتلخص منه ألبته[50].

---

46. البكرى ص81.
47. الإدريسي مصدر سابق ص129.
48. البكرى ص82.
49. البكرى ص82.
50. الإدريسي ص130.

ثم هناك مراسي أخرى ذكرها البكري في عجالة كمرسى الذبان، و مرسى جنابية و هذا المرسى يقع عند جزيرة فيها آثار قديمة و يقابل هذا المرسى على الساحل الأندلسي، مرسى دانية و بينهما ست مجار و يليه مرسى الجزائر و التي تعرف بجزائر بني مزغنة[51].

– **مرسى الدجاج:** و هي مدينة قديمة و كان هذا المرسى غير مأمون و لا تقصده السفن إلا في الصيف.

– **مرسى بجاية:** و هي مدينة آهلة عامرة بأهل الأندلس و بشرقيها نهر تدخله السفن محملة وهو مرسى مأمون مشتى قد خرج عن محاذاة جزيرة الأندلس.

و **مرسى بجاية** هو ساحل قلعة أبي طويل.و على هذا المرسى في تلك الجبال، قبائل كتامة، و هي شيعة يكرمون من مال إلى مذهبهم و يبرون من وافق اعتقادهم.

و مدينة بجاية هي مدينة الغرب الأوسط و عين بلاد بني حماد و السفن إليها مقلعة و بها القوافل منحطة و الأمتعة إليها برا و بحرا مجلوبة و البضائع بها نافقة و أهلها مياسير تجار.و بها من الصناعات و الصناع ما ليس بكثير من البلاد و أهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى و تجار الصحراء و تجار المشرق[52].

– **مرسى جيجل:** بالمدينة مرسيين؛ مرسى وعر و يصعب على السفن الدخول إليه ما لم تستعن بدليل حاذق.و أما المرسى الثاني وهو مرسى الشمال فهو ساكن الحركة كالحو من حسن الإرساء فيه ولكنه صغير.

– **مرسى القل:** و يبعد عن مرسى جيجل بحوالي 70 ميلا و كانت مدينة القل مدينة صغيرة.

51. البكرى ص 82.

52. المدينة المغربية مرجع سابق ص 166.

- **مرسى بونة:** مرسى و مدينة تقع في نشز الأرض منيع، و مدينة بونة مدينة مقتدرة ليست بالكبيرة و لا بالصغيرة، و مقدارها في رقعتها كالأربس و هي على نحر البحر، و لها أسواق حسنة و تجارة مقصودة، و هي مدينة أفشتين (سانت أغوستين).

- **مرسى الخرز:** مرسى الخرز بالفتح ثم السكون و السين و مهملة و القصر.و أصله مفعل، من رست السفينة إذا ثبتت، و الموضع مرسى.و الخرز بفتح الخاء المعجمية و الراء ثم الزاي، واحدة خرزة: موضع معمور على ساحل افريقية، بينه و بين بونة ثلاثة أيام ومدينة مرسى الخرز مدينة و مرسى يحيط بها البحر فيما عدا مسلك واحد، ربما قطعه البحر في الشتاء. تبنى فيها السفن و المراكب الحربية التي تغزى بها بلاد الروم[53]. فمرسى الخرز كانت في عهد بن حماد منطقة صناعية مختصة في صناعة المراكب الحربية و السفن و الزوارق، و عرف هذا المرسى بصيد المرجان و هو شجر في البحر مستحجر يخرج منه أبيض اللون لينا فإذا ضربه الهواء أحمر و صلب، و كانت تجارة المرجان في هذا المرسى واسعة تمارس من قبل سماسرة، و يعمل في استخراج هذا المعدن في أكثر الأوقات خمسون قاربا أو أكثر، يعمل في كل منها ما يقارب العشرين رجلا[54]، و المرجان ينبت كالشجر في الماء ثم ستحجر في نفس الماء بين جبلين عظيمين و العاملون فيها يكثرون الأكل و الشرب و الخلاعة، و لهم فيها مكاسب وافرة وينتبذون نبيذ العسل فيشربونه من يومه و يكسرهم الانكسار العظيم، و يعمل من الصداع مالا يعمله نبيذ الذرة و غيره من الأشربة.و هي من ناحية قليلة الزرع يجلب إليها ما بقوته مما يجاورها من فاكهة و غيرها.وفيها صيود السمك ما لم أر ببلد مثله سمنا و ربما منع جانبه من أكل ما يصاد بها و لا سيما وقت الغلات.[55]

---

53. إبن حوقل 50-51 البكري 54-55-58.
54. إبن حوقل ص 50.
55. لسماعيل العربي المدن المغربية مرجع سابق ص 172.

دولة المرابطين بالمغرب الأوسط سياسيا وحضاريا

دولة المرابطين بالمغرب الأوسط سياسيا وحضاريا

تنتمي دولة المرابطين إلى قبائل منها صنهاجة البربرية التي كانت تستقر بأعماق الصحراء بأراضي موريتانيا[56] أرنشقيط[57]، و قد اختلف المؤرخون على نسب الصنهاجة فبينما يقول النسابة البربر أن صنهاج بن عاميل.... بن خام و آخرون يرون أن صنهاج من ولد عبد الشمس بن وائل بن حمير.[58] و روى أبو عبيد عن ابن الكلبي أن أفر يقش لما نقل البربر من الشامل و مصر إلى المغرب ترك منهم قبيلتين هما صنهاجة و كتافة و قال الزبير بن بكان أن صنهاج أبو صنهاجة هو صنهاج بن حمير بن سبأ و قال أبو فراس عبد العزيز الملزوزي الشاعر في أرجوزنة في التاريخ المسمى بنظم السلوك في الأشياء و الخلفاء و الملوك :

- مرابطون أصلهم من حمير قد بعدت أنسابهم عن مصر
- و أن صنهاج أبو حمير و هو ابنه لصلبه لا العنصر
- و قد قيل أن صنهاجة هي فخذ من هوارة و هوارة فخذ من حمير.[59]

كانت تنضوي تحت لواء صنهاجة قبائل عديدة فاقت السبعين[60] و أهم هذه القبائل مسوفة و لمطة، و جدالة و عرفت هذه القبائل عند عبد الرحمن بن خلدون بالملثمين «هذه الطبقة من صنهاجة هم الملثمون... و قد تعددت قبائلهم من كذالة لمتونة، فمسوفة، فوتريكة، قزغاوة ثم لمطة اخوة صنهاجة...»

56. محمد بن عمرو الطمار : «تلمسان عبر العصور» – م. و. ك – الجزائر – ص41
57. صلاح عبد الهادي مصطفى مجلة المؤرخ العدد 31 السنة الثالثة عشر 1407 هـ / 1987 م – عدد خاص عن إفريقيا – بغـــداد ص 203
58. سعدون عباس نصر الله : دولة المرابطين في المغرب و الأندلس – ط 1 – دار النهضة بيروت – 1985 – ص 12
59. نفس المرجع ص 13
60. ابن الخطيب ج 3 ص 225.

و للمتونة فلهم بطون كثيرة منهم بنووتنطق و بنــو زمال و بنوصولان و بنوناسجة....و كان دينهم جميعا المجوسية شأن برابرة المغرب[61] وقد أسلمت هذه القبائل بعد فتح الأندلس[62] وقد أطلق على قبائل صنهاجة أسلم الملثمين أو صنهاجة اللثام البربرية و من أشهرها كما ذكرنا قبيلة لمتونة في شمال الصحراء، و تليها جنوبا مسوفة ثم جدالة بالقرب من نهر السنغال و النيجر و ساحل المحيط وهو امتداد لقبائل صنهاجة التي كانت في الشمال [63] أما عن سبب تلثمهم فقد وردت روايات عديدة منها أن إسلامهم من حمير كانون يتلثمون لشدة الحر و هناك من يذهب إلى القول أنهم آمنوا بالرسول و كانوا قلة فاضطروا للهرب لما غلبهم أهل الكفر فتلثموا بقصد التمويه[64] و هناك من ذكر أن طائفة منهم أغارت على عدو لها فخالفهم إلى حصار بها و هي خالية إلا من النساء و الأطفال و الشيوخ فأصر النساء بأن يرتدين لباس الرجال و يتلثمن، ففر الأعداء و هكذا اتخذوا اللثام سنة[65].

و كان من عادة رجال هذه القبائل التلثم بقطعة قماش داكن اللون يغطى الجزء الأدنى من الوجه فعرفوا بالملثمين أو الملثمة[66].

فكان جميع قبائل الصحراء يلتزمون النقاب و هو فوق اللثام، حتى لا يبدو منه إلا محاجر عينيه، و لا يفارقون ذلك في حال من الأحوال و لا يميز رجل منه وليه و لا حميمه إلا إذا انتقب و كذلك في المعارك إذا قتل منهم القتيل و زال قناعه لم يعلم من هو حتى يعاد عليه القناع و صار ذلك الزم من جلودهم و هم يسمون من خالف زيهم هذا من جميع الناس أفواه الذباب بلغتهم و طعامهم صفيف اللحم الجاف...»[67]

61. العبر مج 6 ص 181.
62. العبر مج 6 ص 181.
63. ابن عذاري : البيان المغرب – ج 1 – ص365.
64. «دولة المرابطين» مرجع سابق ص 13
65. نفس المرجع ص13
66. صلاح عبد الهادي مصطفى – المرجع سابق – ص 203.
67. البكرى المغرب في ذكر بلاد إفريقية و المغرب – ص 170.

لقد تواجد المرابطون الملثمون حسب المصادر التاريخية بالمنطقة الواقعة من غدامس شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا و من جبال درن شمالا إلى أواسط الصحراء الكبرى جنوبا، و قد اشتهرت آنذاك مدينتان هما نـــــول و أركى.

أما نول فتقع في شمال المنطقة و هي أول الصحراء و نهرها يصب في البحـر المحيط[68] و حسب الإدريسي فقال : فأن مدينة نول، فمنها إلى البحر ثلاثة أيام وضعها إلى سجلماسة ثلاث عشرة مرحلة. و مدينة نول مدينة عاصرة على نهر يأتي إليها من جهة الشرق، و عليه قبائل لمتونـة و لـمطة، بهذه المدينة تصنع الدرق اللمطية التي لاشيء أبدع منها و لا أصلب منها ظهرا و لا أحسن منها صنعا و بـما يقاتل أهل المغرب لـحصانتها و خفة محملها...»

أما مدينة أركى فهي تقع في جنوب نول تـبعد عن سجلماسة بثلاث مراحل و عن مدينة نول بسبع مراحل و كانت تعد حاضرة المرابطين و تحدث عنها البكرى فقال و «جبل لـمتونة» هو جبل منيع، كثير الماء و الكلأ، في طوله مسافة يوم و هناك حصن يسمى أركى، حوله نحو عشرين ألف نخلة كان بناه يانو بن عمر الحـــاج أخو يحي بن عمر[69]

اعتنق الملثمون الإسلام بعد فتح الأندلس بعدما كانوا يدينون بالمجوسية[70] و قد اسلموا حيث اسلم أهل ورجلان في عهد هشام بن عبد الملك.

---

68. عبد الحميد حاجيات : المرابطون و دورهم في تاريخ المغرب و حضارته مجلة التاريخ- المركز الوطني للدراسات التاريخية الجزائر 1976 : ص 29.

69. البكرى : المصدر السابق ص 165..

70. الناصري : الاستقصاء - ج 1 - ص 99.

و لقد انتشر الإسلام بين هذه القبائل عن طريق السرايا العسكرية التي أرسلها حكام المغرب الأوائل إلى تلك المناطق التي كانوا يتواجدون فيها، كما انتشر الإسلام فيما بينهم عن طريق التجار الذين كانوا يغدون من المدن التجارية الواقعة شمال الصحراء الذين كانوا يغدون من المدن التجارية الواقعة شمال الصحراء أو جنوبها و لكن على الرغم من ذلك فقد بقيت هذه القبائل ضعيفة الإسلام متفرقة الكلمة حتى أوائل القرن الخامس الهجري عندما حدثت فيها تلك الانتفاضة الدينية الإصلاحية التي ألفت بين قلوبهـــم و وحدت صفوفهم على أسس دينية و أخلاقية صحيحة.

نشأة دولة المرابطين

في مطلع القرن الثالث الهجري يبدأ التـــــــاريخ الحقيقي لدولة الملثمين و أسرتها الحاكمة جنوب الصحراء[71] و أول البارزين من الملوك صنهاجة هو تيلوتان المتوفى 222هـ / 837 م[72]، و الملك يلتان الذي توفي سنة 287 هـ / 900 م ثم الملك تميم (ابن يلتان) الذي حكم قرابة العشرين سنة و الذي كانت وفاته غدرا على أيدي مشايخ لمتونة سنة 306 هـ / 918 م[73]، و بعد تميم يفترق أمر الإمبراطورية الملثمين الصنهاجية إلى عدد من الملوك الطوائف الصنهاجية يستمر ملكهم لمدة 120 سنة و لقد عرفت هذه الفترة أحداث هامة لا سيما في عهد الملك تين بروتان و الملك نارشت (أبي عبيد الله بن تيفاوت) فالأول تمكن من السيطرة على أدوغست[74] و فرض هيمنته على مملكة غانة جلال حكـــــــه الذي امتد من 350 هـ / 961 م إلى 359 هـ / 971 م أما الثاني الذي عين ملكا على الدولة المرابطية سنة 426 هـ / 1034 م و قد عرف بصفات متميزة من تدين و ورع و زيارته للبقاع المقدسة غير أن ولايته لم تستمر طويلا ليسقط شهيدا في ميدان الجهاد قي السودان سنة 429 هـ / 1037 م بعد ثلاث سنوات من الحكم، ليخلفه يحي بن إبراهيم الكدالي الذي لعب دورا كبيرا في بعث حركة المرابطين التي بدأت على شكل دعوة تهدف إلى إصلاح الدين أشرف عليها الفقيه عبد الله بن ياسين الجازولي[75]

71. سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي : ج4–ط–1 الإسكندرية 1995– ص110
72. نفس المرجع ص 110.
73. نفس المرجع ص 111.
74. أودغست : واحة تغدواست الحالية في تاغنت و كانت أهم محطات القوافل في هذه المنطقة و يسميها اليعقوبي «غشط» و أدغست مدينة بين جبلين جنوبي سجلماسة بها أسواق جبلية و هي مصر من أمصار جليل و اهلها مسلمون يقرؤون القرآن و يتفقهون و لهم مساجد و جماعات أسلموا على يد المهدي عبيد الله.
75. سنة إلى الجزولة قبائل صنهاجة.

و تذكر المصادر أنه في عام 427 هـ / 1045 م خرج يحي بن إبراهيم الجدالي لقضاء فريضة الحج، و في مكة أدرك مدى جهله و جهل قومه بمبادئ الإسـلام و جهلهم لعقيدة أهل السنة الصحيحة فقرر إيجاد عالم فقيه ليأخذه معه حتى يثقف قومه و يعلمهم الإسلام الصحيـــح و مبادئه. فأخذ يطوف بعد رجوعه من الحج بالمراكز الثقافية بالمغرب الإسلامي. و في القيروان اتصل بأحد أقطاب المالكية و هو الفقــيه أبو عمران الفاسي الغفجومي و طلب منه أن يرسـل معه عالما يفقههم في الدين فبعث معه عبد الله بن ياسين الجازولي[76] ولقد التف الناس من كدالة حول عبد الله بن ياسين الذي أخذ يعلمهم الدين الصحيح و يأمرهم بالمعـــروف و ينهاهم عن المنكر فالتف حوله أشراف صنهاجة و سماهم المرابطين للزومهم رابطته[77] قد نحو بلغوا نحو ألف رجل منهم يحي بن عمر اللمتوني زعيم قبيلة لمتونة[78].

و بعدما تم اختيار يحي بن عمر اللمتوني لقيادة المرابطين تحرك نحو الشمال مع الزعيم الدين عبد الله بن ياسين في محاولة لإخضاع المـغرب و تقويم الإسلام فيه مستغلا الصراعات الداخلية بين الإمارات المتفـــرقة و المتناحرة فيما بينها في صراع داخلي على السلطة مما بعثروا و شتت قوى المغاربة و كان من نتيجة ذلك أن ساءت الأحوال السياسية و الاقتصادية و بلغت الفوضى و الاضطرابات ذروتها، إضافة إلى ظروف المغرب الدينية كانت مشجعة لتحرك المرابطين هذا.

فقد انتشرت البدع و ظهور المتنبئون و المشعوذون في أرجاء المغرب، ففي منطقة تامسنا ظهر رجل اسمه صالح بن طريف يتعاطى السحر حتى تمكن من أهالي هذه المنطقة فولوه عليهم و قد ادعى أنه صالح المؤمنين الذي ورد اسمه في القرآن و شرَع إلى جماعته ديانة فيها أمور غريبة :

76. صلاح عبد الله الهادي مصطفى مرجع سابق ص 204.
77. محمد الميلي : تاريخ الجزائر في القديم و الحديث : ج II–الجزائر ص 282.
78. الناصري : الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى : 22 ص 13

يأمر بصوم رجب و أكل رمضان و خمس صلوات بالليل، و شرع في الوضوء غسل السرة و الخاصرتين، و أباح تزوج النساء مما فوق الأربع، و حرم تزوج بنت العم، و شرع قتل السارق و حرم أكل رأس الحيوان و حرم ذبح الديك [79] و من قتل ديكا اعتق رقبة و وضع لهم سورا بلغت ثمانين سورة و كان صالح بربري الأصل، مغربي المولد، ضليعا بلغة البربر، يفهم غير لسان من ألسنتهم، فدعاهم إلى الإيمان به و ذكر أنه نبي و رسول مبعوث إليهم بلغة البربر و احتج بقوله تعالى : «و ما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه و أن محمدا عربي اللسان مبعوث إلى قومه»[80].

هذا بالإضافة إلى وجود أقليات دينية منتشرة هنا و هناك كاليهود الذين كانوا يتمركزون في منطقة فاس و بعض الشيحة الذي يطلق عليهم اسم الرافضة و المنتشرين في بلاد السوس و لاسيما في منطقة تارودانت و هم ينتسبون إلى على بن عبد الله البجلي الرافضي الذي نزل بلاد السوس أيام حركة الخليفة عبيد الله المهدي بإفريقيا، و كان على بن عبد الله البجلي قد دعا قومه إلى سب الصحابة، و أحلّ لهم المحرمات و زعم أن الربا بيع من البيوع، و زادهم في الأذان بعد أشهد أن محمدا رسول أشهد أن محمد له خير البشر، ثم بعد حي على الفلاح حيى على خير العمل آل محمد خير البرية، و أن الإمامة في ولد الحسن لا في ولد الحسين به و يعرفون اتباعه بالبجليين.

أما القوى السياسية المتناحرة فكانت تتمثل في قبائل غمارة و التي كانت تتخذ من الجبال المطلة على ساحل البحر المتوسط و حتى مدينة فاس جنوبا موطنا لها، ثم قوة البرغواطيين الذين كانوا يسيطرون على إقليم تامسنا[81] برمته، متخذين من شالة قاعدة لهم.

79. صلاح عبد الهادي مرجع السبق ص 204.

80. ابن قوفل : صورة الأرض – ص 56–55–57.

81. تطلق على الأراضي الواقعة بشاطئ المحيط من نهر أبي رقراق إلى أم الربيع و كانت مركزا لدولة بورغواطة منذ القرن الثاني الهجري.

و هؤلاء البرغواطيين خليط من قبائل زناتية و هناك من يرجع أصلهم إلى المصامدة، و لقد اعتبر البرغواطيين أناس مارقين عن الدين و علـى كل القيم و الأعراف السائدة في المنطقة أما قبائل زناتة فكانت تتخذ من تلمسان قاعدة لها غير أن المنافسات و النزاعات الداخلية كانت تمزقها بالإضافة إلى حروبها مع جيرانها البرغواطيين و اليهود.

لقد سمحت هاته الظروف للمرابطين التحرك نحو هاته الأقاليم التي كانت في حاجة ماسة إلى معجزة تنقدها من هذا الموقف الصعب و العصيب لتعيد إليها وحدتها و تمثلت هاته المعجزة في المرابطين الذين تمكنوا من الوصول إلى بلاد المغرب و إخضاع القبائل البربرية و احتوائها لتشكيل قوة ضاربة ثم التوجه نحو السودان و إخضاع الممالك الزنجية و استرجاع مدينة أودغوست.

لقد تمكن المرابطون من إخضاع أقاليم المغرب الأقصى بزعامة الزعيم الروحي عبد الله بن ياسين و القائد الحربي يحي بن عمر اللمتوني و أخيه أبي بكر بن عمر و تمكنوا من فتح مدن الأطلس مثل نفيس[82] و أغمــات[83] و قد بنا بها المرابطون حصنا منيعا لمراقبة المنطقة و اتخاذها قاعدة مؤقتة لهم نظرا لقربها من الصحراء فاتجهت جهودهم نحو الجنوب و استرداد مدينة أودغشت

---

82. تعرف بالبلد النفيس كثيرة الأنهار و الثمار ليس في ذلك القطر موضع أطيب منه و لا أجمل نظرا فتحها عقبة بن نافع و بنا بها مسجد سنة 62 هـ و سكانها من قبائل مصمودة، أنظر البكري: المسالك و الممالك –مصدر سابق– ص160.

83. و هي مدينتان سهليتان احداهما تسمى أغمات = إيلان و الأخرى أغمات وريكة و بها مسكن رئيسهم و بها ينزل التجار و الغرباء.... لها نهر لطيف يقال له تافيروت و تقطنها قبائل مصمودة. أنظر البكري مصدر السابق ص 153.

و قد اشتهرت هذه المدينة بزراعة القطن الذي يتجهز به إلى مختلف المناطق و من قطنها كانت أكثر صناعة الثياب القطنية ببلاد المغرب الأقصى. أنظر الإدرييسي : مصدر السابق– ص 75.

446 هـ / 1045 م التي كانت تعد من أهم المراكز التجارية لدولة غانة[84] في ذلك العهد و لقد أصبحت في ذلك الوقت شكل خطير حقيقيا يهدد المرابطين و قد دارت معركة بينهم و الغانيين حقق فيها المرابطون انتصارات باهرة سمحت لهم بالاستيلاء على مدينة ادوغشت و التوجه نحو الجنوب و بدأت تسقط المقاطعات الغانية الأخرى تباعا حتى سنة 1076 أين سقطت مملكة غانة نهائيا في أيدي المرابطين فالتجارة التي قام عليها رخاؤها دمرت و المركزان التجاريان ادوغست و سجلماسة في الشمال أصبحا في أيدي المرابطين الذين مزقوا الإمبراطورية الغانية إلى جزأين الشمالي منها سقط في أيدي المرابطين و في الجنوب ظلت الأسرة الوثنية القديمة تحتفظ بالسلطة[85] فغانة الإمبراطورية استمرت موجودة بعد المرابطين و هي لم تنته بسبب فتحهم إياها بل بسبب عدم قدرتها على توحيد الإمبراطورية ثقافيا و سياسيا و اجتماعيا و هو ما انعكس على وحدتها الإقليمية التي عرفت عدة اختراقات سياسية و ثقافية ارتدت على أثرها بعض القبائل عن الإسلام كقبائل السرير و الولوف و بعض السراكولي مدة قبل أن تغيرعليها قبائل الصوصو السوننكية[86].

---

84. غانة سمة لملوكهم و اسم البلد أو كار و إسم ملكهم اليوم و هي سنة سنتين و أربع مائة تنكامنين.... و غانة مدينتان سهليتان أحدهما المدينة التي يسكنها المسلمون و هي مدينة كبيرة فيها إثنا عشر مسجدا أحدهما يجمعون فيه الأئمة و المؤذنون و الراتبـون و [illegible] و حملة علم و حواليها آبار عذبة.... [illegible] [illegible]ـدر سابق ص 174–175 و قد امتدت غانة الدولة الأولى في تاريخ إفريقيا الغربية بين وادي النيجر الأدنى شرقا و المحيط الأطلسي غربا و بين وادي السوس و الصحراء الموريتانية شمالا و منابع النيجر و الضفة اليمنى لنهر السنيغال جنوبا و تدل الروايات على أن أربعة و أربعين ملكا تولوا حكم البلاد حتى عام 770 م أنظر نعيم القداح: إفريقيا الغربية في ظل الإسلام 1960 ص 29.

85. ك مادهو بانيكار تاريخ الإمبراطورية الزنجية في غرب إفريقيا تر / أحمد فؤاد بلبغ – ط II لندن 1998 ص 86.

86. عبد الهادي التازي : العلاقات الفكرية بين العالم العربي الإسلامي و غرب إفريقيا جنوب الصحراء خلال القرنين 17/16 رسالة جامعية – جامعة محمد الخامس 1993 ص 44.

وبعدما تمكن المرابطون من فتح بلاد غانة اتجهوا نحو الشمال فأسسوا مدينة مراكش 462 هـ / 1070 م ثم احتلوا مدينة مكناسة ثم فاس سنة 467 هـ / 1075 م على يد يوسف بن تاشفين ثم طنجة 470 هـ / 1078 م و اتخذ يوسف و أصحابه الصنهاجيين من مراكش عاصمة للدولة المرابطية الجديدة و أصبح يوسف بن تاشفين يلقب بأمير المؤمنين ثم اتخذ أبهة الملك و جنّد الأجناد و استكثر القواد و اتخذ الطبول و البنود و استركب الأغزار، الرماة و الروم كما زاد من عدد قواة جيشه حتى بلغ عدده زهاء مائة ألف مقاتل قسمة إلى خمسة فرق و ضرب السكة باسم أبي بكر بن عمر الذي اقبل إلى الصحراء بعد طلاقه لزوجته زينب النفزاوية و يذكر أنه قال عند فراقه إياها : يا زينب إني ذاهب إلى الصحراء و أنت امرأة جميلة...و أنني مطلقك فإذا انق ضت عدتك فأنكحي ابن عمي يوسف بن تاشفين فهو خليفتي على بلاد المغرب[87]

غزو المرابطين للمغرب الأوسط :

لقد عمل يوسف بن تاشفين[88] على القضاء على الإمارة الزناتية بتلمسان، فأرسل القائد مزدلي بن تيليكان بن محمد بن وركوت من عشيرة عساكر لمتونة سنة 472 هـ[89] / 1080 م بجيش قوامه عشرون ألف من لمتونة[90] فتصدى لمحاربته الأمير يعلي بن العباس المغراوي غير أنه قتل[91] ثم تراجع القائد مزدلي إلى مراكش.

87. الناصري مصدر سابق ج 2 – ص21.

88. هو يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن ترقوت بنوار تقطين ابنه منصور بن مصالة بن أمية بن وانمالي الحميري الصنهاجي اللمتوني ولد عبد شمس بن وائل بن حمير – أنظر شجرة نسب رقم –1 كان بطلا شجاعا حازما مهابا ضابطا لملكه متفقدا الموالي من رعيته حافظا لبلاده و ثغوره عادلا صالحا–أنظر إلقي بروفستان – نخب تاريخية.جامعة لأخبار المغرب الأقصى باريس 1948 ص 32.

89. عبد الرحمن بن خلدون : العبر ج 2 – ص 185.

90. الناصري : الاستقصاء – ج 2 – ص 29.

91. ابن خلدون العبر – ص 186 – أنظر أيضا عبد الحميد حاجيات الجزائر في التاريخ مرجع سابق 296.

و في سنة 473 هـ / 1081 م أعاد يوسف بن تاشفين غزو تلمسان – بعدما افتتح مليله و سائر بلاد الريف – مرة أخرى فتمكن من الاستيلاء في طريقه إلى تلمسان على وجدة[92] معقل زناتة و بني يزناسن ثم مدينة تلمسان وقتل العباس بن بختي أمير تلمســان و اختط بها مدينة تاكرارات بمكـان محلته و هو اسم المحلة بلســان البربر و نصب محمد بن تيغمر حاكما عليها ثم واصل غزواته شرقا فاستــولى على وهران[93] و جبل الونشريــس[94] و أعمـال شلف[95] ثم استولى على مدينة الجزائر 474 هـ / 1082 م ثم توجه شمالا لمحاربة النصارى بالأندلس سنة 479 هـ[96] كما وعد بذلك المعتمد ابن عباد و التف حوله ملوك الأندلس و ساروا إلى سهل الزلاقة القريب من بطليوس أين حقق فيها انتصارا باهرا 1086/479 م و كانت جيوش النصارى تتكون من قشتالة ونافار و أراغون و قد كانت اثر هذه الموقعة عظيما في تثبيت أقدام المسلمين بالأندلس و إعادة مجدهم و سيطرتهم لا سيما بعدما تمكن يوسف بن تاشفين ضم إمارات ملوك الطوائف واحدة بعد الأخرى ما بين سنتي 482–489 هـ و من بينها

---

92. مدينة تبعد عن تلمسان بثلاث مراحل و تقع على الطريق الرابط بين سجلماسة و تلمسان و تشتهر هذه المدينة بمراعيها الصالحة و بأنعامها، أنظر البكري مصدر السابق ص 88.

93. تقع بالمغرب الأوسط على الساحل و قد بنيت من قبل محمد عودة ؛ و محمد بن عبدون سنة 290هـ باتفاق منها مع نفزة و بني مسقن من ازداجة فاستوطنها سبع سنوات و في سنة 297 هـ زحفت إليها قبائل البربر لتثأر من بن مسنقن ليسيطروا على المدينة إلا أن الأهالي عادوا إليها في السنة الموالية وبنوها و أصبحت أحسن مما كانت عليه من ذي قبل و في سنة ثلاثمائة وثلاث و أربعين هجرية خربت المدينة ثانية على يد بعلي بن محمد الصالح اليفرني و بقيت كذلك سنين ثم تراجع الناس إليها و بنيت أنظر البكري مصدر سابق ص 71.

94. كانت تسكنه قبائل من البربر منها مكناسة و حرشون و أورية و بنو بن خليل و كتامة ومطماطة و بنو مليلت و طول هذا الجبل أربعة أيام و ينتهي طرفه هذا الجبل إلى قرب تاهرت.

95. كانت تعرف هذه المدينة باسم شلف ببني واطيل و تبعد عن مليانة بمرحلتين و إليها نسب نهر شلف انظر البكري ص 79 و من الجزائر الحمام إلى مصب شلف اثنان و عشرون ميلا انظر الإدريسي نزهة ص 129.

96. رابح بونار : المغرب العربي الجزائر 1968 ص 238.

طليلة بلنسية[97] و بدخول يوسف بن تاشفين، المغرب الأوسط و السيطرة على مناطق عديدة شرقا حتى مشارق بجاية أصبحت تلمسان حاجزا يفصل المغرب الأقصى و مملكة بني حماد الأمر الذي سمح باستقرار المغرب الأوسط نسبيا لا سميا بعد تحالف المرابطين مع القبائـــــل الزناتية مثل بين ومانو و بني يلومي و استعمالها للدفاع عن حدودها الشرائية من غارات بني حماد ولقد عرفت الفترة المرابطية بتلمسان غارة بن حماد.و من بينها غارة المنصور الحمادي على تلمسان سنة 496 هـ / 1103 م. فقد توجه تلمسان في جيش تعداده عشرون ألف مقاتل مؤلف من صنهاجة و بن هلال و زناتة حوصل إلى وادي صفصاف من غربي تلمسان و لقي المنصور بن تينغمر بتسالة و هزمه فلجأ هذا الأخير تاشفين بن تيغمر إلى جبل الصخرة ففتح المنصور تلمسا[98] و سيطر عليها البعض الوقت لينسحب منها يعد توقيع معاهدة الصلح سنة 497 هـ / 1104 م[99].

97. ابن خلدون العبر ص 186.-انظر أيضا عز الدين عمر موسى الموحدين في الغرب الإسلامي دار الغرب الإسلامي ط-1 -1991 ص 34.

98. رشيد بورويبة تعريب د-محمد بلقراد الجزائر في التاريخ (التاريخ السياسي) الجزائر في عهد الحماديين ص 214.

99. عبد الحميد حاجيات مرجع سابق ص 298.

طبيعة الحكم المرابطي

لقد فاقت الدولة المرابطية على أساس العقيدة الدينية و لقد سيطر الفقهاء على شؤون الدولة و توجيهها و عفي اتجاه الجيوش المرابطية في المراحل الأولى من حياة الدولة إلى أعمال الجهاد[100] سواء عند فتحهم لغانة أو بلاد المغرب الأقصى و المغرب الأوسط و الأندلس و أصبحت مملكة وراثية لا سيما في عهد يوسف بن تاشفين و بعد ما تكمن من إنشاء و وضع قواعد دولته و خاصة بعد الانتصار الذي حققه في موقعه الزلاقة.

فلقد اختار يوسف ولده عليا لولاية عهده سنة 496 هـ و هذا حذوه في كذلك ما اختار ولده تاشفين لولاية عهده في سنة 533 هـ / 1138 م ليختار تاشفين ولده إبراهيم لولاية عهده سنة 534 هـ هـو كانت عمالات الدولة المرابطية ثمانية[101] : عمالة مراكش، وعمالة سجلماسة وعمــــالة درعة و مكناسة و عمالة بلاد فازاز، و عمالة تلمسان و عمالة سبتة وطنجة و كانت سلطة أبناء الأمير و أقربائه أما الأندلس فكانت تسمى إلى خمس عمالات اشبيلية و غرناطة، قرطبة و بلنسية و مرسية و كانت مناصب الولاية المحلية بالأندلس وفقا على الأمراء و القادة المرابطيين و كانت سرقسطة قبل سقوطها في أيدي النصارى في سنة 512 هـ / 1118 م تعد ولاية سادســة و اتخذ المرابطون في البداية قرطبة مركزا لحكومتهم بالأندلس و كانت مناصب العمالات بالأندلس وفقا على الأمراء و القادة المرابطين و لاسيما ذوى القربى منهم الأمير سير بن أبي بكر اللمتوني فاتح اشبيلية ثم واليهـا، و محمد بن الحاج والي بلنسية ثم سرقسطة و من بعده يحي بن غانيــــة و الأخير أبو محمد مزدالي والى قرطبة و هو من أبناء عموحة يــوسف و ولداه محمد و عبد الله و عبد الله بن تينغمر و إلى قرطبة و هو بن أخت على بن يوسف[102].

---

100. محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين و الموحدين في الغرب و الأندلس عصر المرابطين– ط1 1964 القاهرة، ص411.

101. عبد الرحمن بن خلدون ج6 ص185 انظر أيضا عبد الحميد حاجيات مرجع سابق ص317.

102. عنان مرجع سابق ص414.

أما عمالة تلمسان في المغرب الأوسط فقد تعاقب على إدارتها محمد بن تينغمر و أخوه تاشفين و مزدلى في عهد يوسف بن تاشفين، و كان أغلب هؤلاء الحكام من لمتونة ثم عادت إلى مسوفة و كان لهم منها بها الأول ظهور الموحدين «يحي ابن اسحاق» الملقب «بانكمار» و وقعت فتنة بين مسوفة و لمتونة، فلحق إنكحار و كثير من رجال مسوفة بعبد المؤمن بن علي قبل دخوله إلى المغرب الأوسط، فعادت عمالة تلمسان إلى لمتونـــة و وليها منهم محمد بن يحي بن فانو ثم أبو بكر بن مزدلي الذي يعد آخر ولاة المرابطين بتلمسان [103].

القضاء و الجيش :

كان القضاء مستقلا عن الإدارة كل الاستقلال و كان على المذهب المالكي و المنصب القضاء أهمية كبيرة فكان المرابطون لا يستندون على عصبية قبيلة في تعيينهم القضاة، بحيث أن جميع قضاتهم كانوا من غير أرونتهم رغبة في تحقيق العدالة بين عموم الرغبة. و كان للقاضي فقهاء مستشارون عددهم أربعة و لاسيما في عهد يوسف بن تاشفين. و من بين القضـــاة الذين اشتهروا بالجزائر القاضي الأديب «أبو خلص عمر الأغمتني» و الذي كان قاضيا بتلمسان[104].

و كان القضاء في الأندلس يديره الأندلسيون أنفسهم و ذلك السبب واضح، هو أنه لم يكن بين العلماء المرابطين من يستطيع الاضطلاع بعهده المناصب في بلد كالأندلس فقد اختار قضاته بعلمهم الغزير و كان لهم نفوذ و كلمة مسموعة لدى السلطان المرابطي، و من أبرز القضاة أبي الوليد بن رشد.

103. الطمار: تلمسان مرجع سابق ص48 انظر أيضا الجيلي بتاريخ الجزائر مرجع سابق ص283.
104. الطمار مرجع سابق ص 49.

و كان الجيش من أهم أجهزة الدولة المرابطيةلأنها كانت دولة عسكرية؛ و لقد تكونت نواة الجيش في الرباط فلم يكن جيشا قبليا أسس على العصبية إذ كان أفراده يرتبطون فيما بينهم برباط الأخوة في الرباط[105] أي في التعبد و الجهاد سمح لهم بفتح أحصار عديدة و أن يقيموا الدولة المرابطية الكبرى.

و كان أولئك البربر الصحراوين جنودا يمتازون بوافر الجرأة و الشجاعة و خاصة اللمتونيين.

كان أمير المسلمين هو القائد الأعلى للجيش، و كان معظم الولاة في المغرب و الأندلس من قادة الجيش البارزين و كان الجـــيش المرابطي يتكون:

الفرسان و قد بلغ عددهم في عهد يوسف بن تاشفين نحو مائة ألف فارس المشاة و قد أنشأ يوسف فضلا عن ذلك حرسه الخاص من الود و قد بلغ عددهم 2.000 رجل و اكن أغلبهم من عبيد مملكة غانة، دربوا أعظم دربة و زودوا بأجود الأسلحة حتى غدوا قوة ضاربة لها خطرها و شارك هذا الحرس الخاص في عدة مواقع كموقعه الزلاقة و أبلى البلاء الحسن.

105. سعد زغلول عبد الحميد مرجع السبق ص 200.

السياسة المالية للدولة المرابطية :

لقد اتبعت الدولة المرابطية في البداية نظرا لنشأتها الدينية حكم الشرع في شؤون الجباية، فكان الأمير يوسف بن تاشفين يقتصر أولا على تحصيل ما تجيزه الشريعة الإسلامية من الفروض مثل، الزكاة، الأعشار، و أخماس الغنائـــــم و جزية أهل الذمة، و عندما اتسعت رقعة الدولة المرابطية فرض ابن تاشفين الإشارات على أهل المغرب و الأندلس للمساهمة في أعمال الجهاد كما كان يقوم بتحصيل الأموال نم اليهود بمختلف الطرق و الوسائل ففرض على البضائع و السلع.

الطرق التجارية و دورها و أهميتها :

كانت الطرق التجارية التي ترتبط بين تلمسان و بلاد السودان طريقين رئيسيين هما :

1. طريق يبدأ من تلمسان عبر وجدة ثم فاس فسجلماسة و تمر بأودغست لتصل إلى بلاد السودان.

2. أما الطريق الثاني فكان ينطلق من تلمسان فوجدة ثم فاس و يتبعه غربا نحو مكناسة الزيتون ثم أغمات، أودغست و منها إلى بلاد السودان.[(106) (107) (108)]

و هناك طرق أخرى كانت تربط تلمسان بمدن تجارية أخـرى كتاهرت، وهران و تنس إلخ.

و لقد اشتهرت تلمسان بأسواقها التي أسهمت بنصيب وافـــر في التجارة الداخلية و الخارجية و قد ساعدها في أنها كانت تتميز عن غيرها من المدن بصناعة الثياب الصوفية و يشير عبد الرحمن بن خلدون بشهرة تلمسان في هذا

106.

107. عبد الحميد حاجيات مرجع سابق ص 331.

108. عيسى بن الذيب : التجارة في عصر المرابطين رسالة ماجستير جامعة القاهرة مصر 1990 ص 68-69.

المجال، فيذكر بخصوص أهلها، أن غالب تكسبهم بالفلاحة و حوك الصوف يتعاونون في عمل أثوابه الرقاق فتلقى الكساء و البرنـــوس عندهم من كمان أراق و الأحرام من خمس[109]، و هذه الشهرة أشار إليهـــــا الحموي فذكر في خصوص تلمسان أنها «تتخذ النساء بها من الصوف أنواعا المن الكنابيش لا توجد في غيرها.»[110] كما اشتهرت تلمـسان بالصناعات الحرفية مثل الجم الخيل و سروجها و كل ما يحتاج إليه الفارس.

و لقد كانت تستقبل أسواق تلمسان من أسواق الجنوب (السودان العربي)

سلع مختلفة كالذهب الذي لعب دورا بارزا في الحياة الاقتصادية لبلدان المغرب الإسلامي و لقد كان للمرابطين دور في توزيع ذهب السودان و الإشراف عليه، إلى جـانب الذهب كانت تجارة الرقيق تمثل إحدى السلع التجارية الهامة منذ القدم و كانت بلاد السودان الغربي مصدرا لرقيق المغرب الإسلامي عامة و المغرب الأوسط خاصة، و لم تقتصر السلع الواردة من بلاد السودان على الذهب و الرقيق بل شملت سلعا أخرى مثل الجلود (جلود الحيوانات المتوحشة) و العاج.

---

109 جودت عبد الكريم يوسف : الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث و الرابع الهجريين (9-10 م) ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر – ص 92

110 المرجع نفسه ص 92.

الحياة الفكرية للمغرب الأوسط في العهد المرابطي :

لقد تميزت الحياة الفكرية بالمغرب الأوسط في العهد المرابطي بتقدم ملحوظ لسيما في مجال العلوم الدينية التي احتلت الصدارة، و بدو أن اهتمام علماء الدين في هذا العصر كان مقتصرا على تفسير القرآن و الحديث[111] و الفقه و أن معظم فقهاء هذا العصر راج كلامهم على الفقه الخالص من فروع المذهب المالكي مكتفين في كثير من الأحيان بالأمور المتعلقة بالعبادات و المعاملات[112]، و من أشهر علماء المغرب الأوسط في هذا المجال نجد :

- ابن غزلون المتوفى سنة 524 هـ و قد نبغ في الحديث و هو من أهل طلطلة بالأندلس رحل إلى المغرب ثم انتقل إلى تلمسان، أين استقر و حدث بها.

- عبد اللّه بن عرجون و هو أبو محمد عبد اللّه بن خليفة بن أبي عرجـــون تلمساني الأصل و هو فقيه و محدث قال عنه بن بشكوال كان يميل إلى الحديث و يحفظ كثيرا منه أخذ عنه و استقصى بغير موضع من العـــدوة و الأندلس[113] توفي بتلمسان سنة 534 هـ.

- على ابن أبي قنون : هو أبو الحسن على بن أبي القاسم عبد الرحمن المعروف بابن أبي قنون و هو من تلمسان و بها درس الفقه المالكي و روى عن أبي على الصعداني و ابن أبي تليد و أبي عبد اللّه الخولاني[114].

---

111. جيلالي سلطاني : الحركة الفكرية و الثقافية في عصر المرابطين بالمغرب الإسلامي مجلة الحضارة عدد خاص بالملتقى الدولي حول المراكز الثاقفية في المغرب الإسلامي معهد الحضارة الإسلامية وهران —1993ص 295.

112. نفس المرجع ص 297.

113. عبد الحميد حاجيات في التاريخ مرجع سابق ص 341.

114. الحاج محمد بن رمضان شاوش : باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بن زيان —د.م.ج —1995— ص 418.

و تولى القضاء بتلمسان و له كتاب في أصول الفقه «المقتضب الأشفى في اختصار المستصفى» توفي بتلمسان سنة 557 هـ[115].

و أبو محمد الأشيري المتوفى سنة 561 هـ[116] الذي كان كاتبا لأمراء المرابطين، و العلاقة المتيجر أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الورجلاني ولد بمدينة ورجلان سنـــة 500 هـ و هذا منذ أشهر فقهاء الأباضة و له كتبا عديدة منها تفسير القرآن، و العدل و الأنصاف، فتوح المغرب، الدليل لأهل العقول و ألف أيضا في المنطق و الحسـاب و الهندسة كما اشتهر في العهد المرابطي أبو عمران الأشيري (المتوفى سنة 589) نشأ بتدلس و أبو عبد الله بن مروان المتوفى سنة 601 هـ وهرانى الأصل الذي نشأ بتلمسان و توحى القضاء بتلمسان و ابن حشون المتوفى سنة 606 هـ و هو فقيه نشأ بمدينة الجزائر ثم انتقل إلى بجاية، و أبو عبد الله بن عبد الحق التلمساني المتوفى سنة 625 هـ و هو فقيه من أهل تلمسان و له كتبا عديدة المختـــــار في الجمع بين المنتقي و استذكار، الإقناع في كيفية الإسماع، و نظم العقود و رقم الحلل و البرود.

كما عني العلماء أيضا باللغة العربية و قواعدها و ألفوا في ذلك كتبا و من أشهر الكتاب و الشعراء و النحاة نجد الإمام العلامة اللغوي النحوي أبي على الحسن بن على بن طريف التـــاهرتي الذي تتلمذ على يد الحجاج بن المأمون و بن سعدون و مروان بن عبد الملك و القاضي بن سهل و أبو محمد بن قحافة و أبو تمام القطبي وقد استقر بسبتة، ودرس بها النحو إلى أن توفي سنة 501 هـ.

ركن الدين محمد بن محرز الوهراني وهو أحد علام الأدب العربي نبغ في فن الترسل و الإنشاء، نشأ بوهران ثم رحل إلى الأندلس ثم دمشق و العراق و مصر ألف المناخات سلك فيها مسلك أبي العلاء في رسالة الغفران، و ابن شهيد في رسالة التوابع و الزوابـع فأجاد بها في المقامة، وبرع في الهزل و السخرية[117].

---

115. عبد الحميد حاجيات مرجع سابق ص 341.

116. نفس المرجع ص 341.

117. تاريخ الجزائر العام : عبد الرحمن الجيلالي : مرجع سابق ص 317 هـ عبد الحميد حاجيات مرجع سابق ص 343.

و من الأدباء أيضا يوسف بن محمد بن النحوي و اصله من بسكرة و قد ارتحل إلى تلمسان و سكنها و بث بها علوحة و قد ارتحل إلى مصر ثم رجع إلى المغرب الأوسط و استوطن قلعة بني حماد و بها كانت و غانة عام 513 هـ[118].

و مما أنشد في مدح مصر قوله[119] :

أين مصر و أين سكان مصـــر بيننا شفة نوى و البعـــاد

حدثـــاني نيل مصر فإنـــي منذ فارقته إلى الماء صـــار

و الرياض التي على جانبيـــه واجعلاه من الأحاديـــث زادي

رقة قلبي حتى لقد خلت أنـــي بين أيدي الزوار و العـــواد

ما تراني أبكي على كل ربـــع ما تراني أهيم في كـــل واد

روشن من رواشن النـــيل خير بعد من دجلة و من بغداد

و من الأدباء و أيضا عبد المؤمن بن على الكوحي الذي لم يكن رجلا سياسي فحسب بل كلن أيضا أديبا له شعر رائق حسن قاله يستنفر فيه عرب إفريقيا إلى غزو الأندلس لما عزم على العبور إليها عام 538 هـ[120].

أقيموا إلى العلياء هوج الرواحل وقودوا إلى الهيجاء جرد الصواهـل

وقوموا النصر الدين قومه ثائـر وشـدوا على الأعداء شدة صائـل

فما العز إلا ظهر أجرد سابـــح يفوت الصبا في شدة المتواصـــل

و أبيض مأثور كأنه فرنـــده على الماء منسوج وليس بسائـــل

بن العم من عليا هلال بن عامـر و ما جمعت من باسل وابـــن باسل

118. باقة السوسان مرجع سابق ص 457.

119. نفس المرجع ص 458.

120. نسبة لقبيلة كوهة القاطنة شمال تلمسان على ساحل البحر.

تعالوا فقد شدت إلى الغزو نيـــة عواقبها منصورة بالأوائـــــل

هي الغزوة الفراد و الموعد الذي تنجز من بعد المدى المتطـــاول

بها تفتح الدنيا بها نبلغ المنـــى بهـــا تتصف التخفيف في كل باطل

أهينا بكم للخير و اللّه حسبـــنا و حسبوكمو و اللّه أعدل عـــادل

فما همنا إلا صلاح جميعكـــم و تسريحكم في ظل أخضر هاطـــل

وتسويقكم نعمى ترف ظلالهـــا عليكم بخير عاجل غير آجـــل

الفن المعماري للمغرب في العهد المرابطي:

لقد شيد المرابطون المساجد الجامع الأعظم[121] الذي بناه علي بن يوسف بن تاشفين سنة 530 هـ / 1136 م كما تدل عليه الكتابة الموجودة في قاعة القبة أمام المحراب و التي جاء فيها :

في الجهة الجنوبية : بسم اللّه الرحمـــن الرحيم و صلى اللّه على محمد و على آله و سلم هذا أمر بعمله الأخير.

و في الجهة الشرقية : الأجل أيده و أعز نصره و أدام دولته.

و في الجهة الشمالية : و كان إتمامه على يد الفقيه الأجل القاضي الأوصل أبي الحسن علي بن عبد الرحمن.

و في الواجهة الغربية : ابن على آدم اللّه عزهم فتم في شهر جمادى الأخيرة عام ثلاثين و خمس مائة[122].

121. شيد هذا المسجد بجانب القصر سنة 530 هـ و هو يقع في قلب المدينة الجددية «تاقرارت» قرب الحي التجاري قرب القيسارية وهو بناء مستطيل الشكل طوله من الشمال إلى الجنوب 60 مترا و عرضه من الشرق إلى الغرب 50مترا و يتألف المسجد بين الصلاة و صحن مربع تتوسطه فوارتان : انظر تلمسان عبر العصور مرجع الساتبق ص 44.

122 رشيد بورويبة : الكنايات الأثرية في المساجد الجزائرية تر إبراهيم شبوخ : الجزائر – 1979 ص 65–66.

و قد زينه يغمراسن مئذنته الحالية اشتهر بتناسق بناءه و جمال نقوشه و هو يشبه في تصميمه مسجد قرطبـــــة و أن يغمراسن الزياني (603 –681 هـ) و سعه و أضاف إليه فناء آخر و وسع قاعة الصلاة و انتهت أعماله أبريل سنة 1136 م[123]

كما بنا المرابطون مسجد ندرومــــة الذي يوجد منبره في متحف الجزائر العاصمة و هو مصنوع من خشب الأرز فيمتاز هذا المسجد ببساطته.

123. Tlemcen d'hier et d'aujourd'hui : Bulletin de société les amis du vieux Tlemcen Alger 1952 P20 conférence faite par Mr George Marsais le 15 Avril 1936 à Tlemcen

الجزائر في عهد بني زيان (التاريخ السياسي)

1. نشأة الدولة الزيانية :

تنتمي قبيلة بني عبد الواد إلى زناتة الشرقية، مثل بني مرين وبني راشد وتوجين. وكانت تقطن، قبل هجرة بني هلال، سهوب إفريقية الغربية، وتتنقل فيها بحثا عن المراعي لماشيتها. ولما قدم العرب الهلاليون إلى شمال إفريقيا، تصدى لهم بنو زيري وبنو حماد وأحلافهم من زناتة الشرقية والغربية، فانتصر عليهم الهلاليون في معارك عديدة، في أواسط القرن الخامس الهجري. واضطرت قبائل زناتة الشرقية إلى الهجرة نحو المغرب الأوسط، فأصبحت قبيلة بني عبد الواد ترتاد الواحات الجنوبية من وادي ميزاب إلى نواحي تافلالت، مدة حوالي نصف قرن. ثم أخذت تتحرك شمالا في اتجاه منطقة وادي ملوية، وهي لا تزال تعيش عيشة البدو.

وقد نتج عن ذلك أن استيطان زناتة الشرقية في جنوب المغرب الأوسط أصبح يضايق قبائل زناتة الغربية المتمركزة قديما في تلك المناطق، من بني ومانو وبني يلومي ومغراوة وبني يفرن وغيرها. وفي أواخر القرن الخامس هـ، أصبح بنو عبد الواد يخضعون لسلطة بني يلومي، الذين كانوا قد بسطوا نفوذهم على جزء كبير من المغرب الأوسط، في الجهة الغربية من وادي مينا، تشمل جبل هوارة وجبل بني راشد ومدن البطحاء والجعبات وسيق. وكانت تجاورها، في الناحية الشرقية من وادي مينا، قبيلة بني ومانو، وعاصمتها مدينة منداس[1].

وبعد وفاة يوسف بن تاشفين، أخذ نفوذ المرابطين يضعف شيئا فشيئا، فعظم شأن بني يلومي غربي وادي مينا، وبني ومانو شرقي وادي مينا، وانتهت تبعية هؤلاء للدولة الحمادية. غير أن العلاقات بين القبيلتين ساءت في أوائل القرن السادس الهجري، ونشبت الحرب بينهما، واستنجدت كل قبيلة بالقبائل التي كانت تحت نفوذها.

1. حول هذه الأحداث، انظر : عبد الرحمن بن خلدون، العبر، ج7، ص 114-115.

فكان بنو عبد الواد وتوجين وبعض بني مرين من جانب بني يلومي، الذين استغاثوا أيضا بالمرابطين، فأمدهم تاشفين بن علي بالعساكر، واستطاعوا أن يهزموا بني ومانو، وأن يقتلوا رئيسهم أبا بكر بن ماخوخ.

ولما اشتد الصراع بين الموحدين والمرابطين، وانتقل تاشفين بن علي من تلمسان إلى وهران، تبعه عبد المؤمن بن علي إليها، وبعث في نفس الوقت الشيخ أبا حفص في عساكر الموحدين إلى منطقة بني ومانو، «فنزلوا منداس وسط بلادهم وأثخنوا فيهم حتى أذعنوا للطاعة، ووفد على عبد المؤمن بمكانه من حصار وهران بمشيختهم، يقدمهم سيد الناس بن أمير الناس شيخ بني يلومي، وحمامة بن مطهر شيخ بني عبد الواد، وعطية الخير شيخ بني توجين وغيرهم، فتلقاهم بالقبول»[2]. وبعد هذا، أخلص بنو عبد الواد وبنو توجين الولاء للموحدين، بينما انتقض بنو يلومي وبنو مرين ضدهم. فحارب الموحدون بني يلومي، الذين اعتصموا بحصن الجعبات، وهزموهم وأشخصوا مشيختهم إلى المغرب الأقصى، فنزل سيد الناس بمراكش، وبها توفي. وعندئذ انتهز بنو توجين فرصة ضعف بني يلومي وبني ومانو للاستيلاء على بعض أراضيهم، بعد حروب شددة، أعانهم فيها بنو عبد الواد[3].

وأصبح الموحدون يعتمدون على قبيلتي بني توجين وبني عبد الواد لبسط سلطتهم في مناطق المغرب الأوسط. ولم يضيع بنو عبد الواد أية فرصة لإظهار ولائهم للموحدين. ويشهد على ذلك ما ذكره المؤرخون حول حادث استرجاع غنائم الموحدين من بني مرين، في عهد عبد المؤمن بن علي، على يد عبد الحق بن منغفاد، شيخ بني عبد الواد[4].

وبعد هزيمة الموحدين في معركة العقاب، سنة 609 هـ، ضعف شأنهم في سائر أنحاء المغرب الإسلامي، ولم يبق لهم نفوذ في ولاية المغرب الأوسط،

2 عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 116-117.
3 نفس المصدر، ج7، ص 117.
4 يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ج1، ص 189-190.

إلا في تلمسان، مقرّ الولاية، وناحيتها. ومما زاد الوضع خطورة وتدهورًا، هجوم يحيى ابن غانية، سنة 623 هـ، على بلاد المغرب الأوسط، وما نتج عن ذلك من أعمال القتل والنهب والتخريب، وانتشار الفوضى في مختلف الأنحاء[5].

وعندئذ، انتهز بنو عبد الواد هذه الفرصة للاستيلاء على المناطق المجاورة لمدينة تلمسان، تحت قيادة جابر بن يوسف، سنة 623 هـ، ولم يجسروا على اقتحام هذه المدينة آنذاك. غير أن الأزمة السياسية التي أحدثها تنافس أمراء الموحدين على العرش، بعد وفاة المستنصر سنة 620 هـ، لم تفتأ تتفاقم بقدر ما تكاثرت الفتن في أغلب أنحاء الدولة. وفي سنة 624 هـ، انتصب إدريس المامون خليفة للموحدين، وتعرض لمنافسة يحيى المعتصم ابن الناصر، ومعارضة أشياخ الموحدين، فازدادت الأوضاع السياسية تعقدا واضطرابا[6].

وفي تلك الظروف، ازدادت الأوضاع تأزما في تلمسان. وذلك أن الوالي الموحدي أبو سعيد عثمان، أخو إدريس المامون، شعر بخطر قبيلة بني عبد الواد، فحاول أن يقضي على قوتهم قبل أن يستفحل أمرهم باستيلائهم على المدينة. فاستعمل الحيلة، وتمكن من القبض على أشياخهم واعتقلهم. ثم قام إبراهيم بن إسماعيل الصنهاجي، أحد اللمتونيين الذين أبقِيَ عليهم في الجيش الموحدي، بإخراجهم من السجن، بعد أن رد الوالي شفاعته، واعتقله مكانهم، واستولى على زمام الحكم. ثم استدعى شيوخ بني عبد الواد لحضور وليمة عنده. فلم يثقوا به، وقبضوا عليه وعلى رفاقه، ودخلوا المدينة بدعوة إدريس المامون الموحدي، وضبط جابر بن يوسف الأمور. وذلك في سنة 627 هـ[7].

5. انظر : عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 406، ج7، ص 151–152.
6. انظر : عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 528–532.
7. انظر : يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج 1، ص 199؛ عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ص 152–153.

وبايعتهم نواحي تلمسان كلهـا إلا مدينة ندرومة. فتوجه إليها جابر بن يوسف وحاصرها، ولكنه قتل أثناء الحصار بسهم أصابه، سنة 629 هـ فخلفه ابنه الحسن، غير أنه ترك الرئاسة لعمه عثمان بن يوسف، بعد ستة أشهر، في أوائل سنة 630 هـ. فساءت سيرته، وأخرج في شهر رجب سنة 631 هـ ثم عين زجدان بن زيـان، ابن عم جابر بن يوسف، لمنصب الرئاسة، فلم يبايعه من بني عبد الواد فريق بني مَطهَر، الذي استعـان ببني راشد، وثـار ضده. وانتهى الأمر بمقتله خارج تلمسان، سنة 633 هـ فخلفه أخوه يغمراسن بن زيان، الذي أعلن استقلال إمارة بني عبد الواد بتلمسان[8].

2. توسع الدولة الزيانية وازدهارها :

يعتبر تاريخ تعيين يغمراسن بن زيان أميرا على تلمسان ومنطقتها، من طرف رجال قبيلة بني عبد الواد، بداية لتأسيس الدولة الزيانية. غير أن هذا التعيين كان يحتـاج إلى تأييد سائر فصائل بني عبد الواد، وولاء القبائل الأخرى ومدن المنطقة، وقبول الخليفـة الموحدي الرشيد بن إدريس المامون.

فكان على يغمراسن، بادئ ذي بدء، أن يفرض الاعتراف بإمارته على بني مطهر، إحدى فصائل بني عبدالواد التي لم تبـايعه، وكانت قد حاربت قبل ذلك أخاه زجدان. فشن الحرب عليهم وهزمهم وأرغمهم على طاعته والاعتراف برئـاسته. وراسل الرشيد الموحدي في شأن تقليده الإمـارة، مع التزامه الدعاء للخليفة الموحدي على المنابر، فأجابه بالقبول في 17 جمادى الثانية سنة 637 هـ، ثم أرسل الرشيد هدية ليغمراسن «استئلافا له دون الأمير أبي زكرياء» الحفصي[9]. وبذلك، تمت البيعة، واستتبّ الأمر ليغمراسن.

هذا وقد أجمع المؤرخون على أن يغمراسن هو أول ملوك بني عبد الواد، الذي «لبس شارة الملك والسلطان، واقتعد الكرسي، ومحا من آثـار الدولة المومنية، وعطل من الأمر والنهي دستها، ولم يترك من رسوم دولتهم وألقاب

8. انظر : يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج 1، ص 199-200.
9. انظر : يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج 1، ص 205؛ عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 162-163.

ملكهم إلا الدعاء على منابره للخليفة بمراكش، وتناول التقليد والعهد من يده تأنيسا للكافة ومرضاة للأكفاء من قومه». واتخذ يغمراسن جميع مظاهر الملك، من استعمال الطبول، وتعيين الوزراء والكتاب والعمّال، وترتيب الجنود وغير ذلك[10].

وفيما يخص تعيين الوزراء، فيبدو أن يغمراسن استوزر بني مجن في بداية عهده لأنهم ساعدوه في الحصول على انتخابه أميرا في اجتماع مشيخة بني عبد الواد. فاستوزر منهم يحيى ابن مجن، ثم أخاه عموش، ثم ابنه عمر. غير أنه عدل عن هذه الأسرة لأنه «استوحش من يحيى بن مجن وابنه الزعيم، وغرّبهما إلى الأندلس»[11]. ثم استوزر يعقوب بن جابر الخراساني.

أما كتاب يغمراسن فهم الفقيه أبو محمد بن غالب، ثم أبو عبد الله محمد بن جدار، ثم أبو بكر محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب المرسي. وكان هذا الأخير قد وفد إلى تلمسان قادما من الأندلس، فرحّب به يغمراسن، وأعجب بمواهبه النثرية والشعرية، فأسند إليه وظيفة كاتب الإنشاء.

والظاهر أن يغمراسن، بعد إرساء إمارته على أسس متينة وتنظيم شؤون الدولة، أصبح يصبو إلى توسّعها شرقا وغربا، حيث إنها كانت تنحصر في منطقة تلمسان وما يجاورها. فأخذ يتطلع لبسط نفوذه على إمارة مغراوة في ناحية شلف، فاستغاث أمراء مغراوة بأبي زكرياء الحفصي. وكان هذا الأخير قد أعلن انفصاله عن الأسرة المومنية، وبسط نفوذه على متيجة والجزائر ومنطقة شلف سنة 635 هـ. فنهض أبو زكرياء الحفصي بجيوشه إلى تلمسان، واستولى عليها سنة 640 هـ، بعد أن غادرها يغمراسن واعتصم بجبالها. ثم انعقد الصلح بين الأميرين، على أن تقام الخطبة لأبي زكرياء، وعاد يغمراسن إلى عاصمة إمارته[12].

---

10. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 162-163. ؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 205.

11. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 182.

12. انظر: يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج 1، ص 206؛ عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 168-171.

ويبدو أن يغمراسن شعر بقوة السلطان الحفصي، المنافس للأمراء المومنيين بمراكش، واعتبر أن لا فائدة في مقاومته، مع العلم أن هذا الصلح لا يمس استقلال إمارته، إذ أن الدعاء على المنابر كان يشكل مجرد اعتراف رمزي بالخلافة الموحدية.

وفي تلك الأثناء توفي الرشيد الموحدي، وخلفه أخوه السعيد بن المامون، الذي كان «شهما حازما يقظا بعيد الهمة»، وعقد العزم على استدراك الموقف الحرج الذي منيت به دولة الموحدين، والنهوض بها من أجل استرجاعها قوتها. فجهز الجيوش، ونهض مشرّقا، في آخر سنة 645 هـ، وسار إلى تازا حيث وصلته بيعة بني مرين. ثم توجه نحو تلمسان، عازما على إخضاع بني عبد الواد.

وكان يغمراسن قد غادر عاصمته مع قومه، واعتصم بقلعة تامزجزجت، وبعث إلى السعيد الموحدي حاجبه ليبلغه طاعته. فأبى السعيد إلا أن يمثل يغمراسن بنفسه بين يديه، وحاصره بضعة أيام. وذات يوم، توجه السعيد نحو الجبل للتعرف على مكان اعتصام يغمراسن وقومه، فتفطن له بعض الحراس من بني عبد الواد، وانقضوا عليه وقتلوه، وذلك في صفر 646 هـ وانهزم جيشه، تاركا ما اشتمل عليه المعسكر من ذخيرة ونفائس[13].

ولا شك أن هذا الانتصار الباهر أكسب يغمراسن شهرة فائقة، فذاع صيته في سائر الأقطار، وأصبحت دولة بني عبد الواد تحظى بمزيد من التقدير والتعظيم، وتطمح في التوسّع والازدهار. فانصرف يغمراسن إلى تقوية جيوشه، واصطنع بني سويد وبني عامر، من عرب زغبة، وعاملهم معاملة حسنة، فاستمالهم وحصل على موالاتهم.

13 انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 163–167؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 205–206.

وأقام بني عامر في الحدود الغربية، ليكونوا سدا بين منطقة تلمسان وبين عرب ذوي عبيد الله، من المعقل، الذين كانوا حلفاء بني مرين[14].

والى جانب ذلك، اضطرّ يغمراسن إلى الاعتناء بتعزيز جيشه قدر الإمكان، فاستخدم طائفة من النصارى المرتزقة «رامحة وناشبة»، الذين كانوا يعملون في جيش الموحدين[15]. وهذا، إن دلّ على شيء، فإنما يدلّ على روح التسامح التي يدعو إليها الإسلام. وفي 25 ربيع الثاني سنة 652 هـ، وقعت حادثة غدر هؤلاء الجنود النصارى. وذلك أن يغمراسن ركب ذلك اليوم لاستعراض الجيش في سهل المنية، خارج باب القرمدين. وبينما هو واقف في موكبه، إذ أسرع نحوه قائد النصارى يريد إسراره، وأحس يغمراسن بنية الغدر عند النصراني، فابتعد منه. وفرّ القائد النصراني عندئذ. وفي هذه الأثناء تمكن النصارى من قتل محمد بن زيان، أخي يغمراسن، وغيره من رجال الدولة. ولما رأى المسلمون ذلك، انقضوا على الجنود النصارى، وأحاطوا بهم، وقتلوهم جميعا. «ولم يستخدم من بعدها جند النصارى بتلمسان، حذرا من غائلتهم»[16].

ويمتاز عهد يغمراسن بن زيان بنشاط عسكري مكثف، يتمثل في خوضه عددا كبيرا من المعارك، يتخللها فترات أعمال تجهيز الجيوش وتزويدها بالأسلحة، وإعداد المؤن، وتحصين المدن ببناء الأسوار والأبراج، وترميم ما انثلم منها، وغير ذلك. وذلك أن علاقات الدولة الزيانية مع الإمارات المجاورة كانت، في أغلب الأحيان متأزمة، نتيجة الصراع القائم بينها، نتيجة تطبيق سياسة توسعية، أو في إطار تحالف ضد دولة معادية.

14. انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 6، ص 95-96 و 105-106.

15. انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 162.؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 206.

16. انظر : عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 174-175؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 206.

ويلاحظ أن أهم نشاط يغمراسن العسكري كان متجها نحو الحدود الغربية، ويتمثل في محاولات عديدة تهدف إلى الاستيلاء على حوض وادي ملوية شمالا، ومنطقة تافلالت وغيرها من النواحي الغربية المجاورة جنوبا. وكان بنو مرين قد استغلوا انتصار يغمراسن على السعيد الموحدي، فاستولوا، سنة 647 هـ، على تازا وفاس وسلا والرباط، ثم امتلكوا، سنة 652 هـ، نواحي تادلا وتافلالت ودرعة، وتابعوا انتصاراتهم رغم معارضة يغمراسن لهم، وتحالفه مع الموحدين، إلى استيلائهم على مراكش وانقراض دولة الموحدين سنة 668 هـ[17].

ونظرا لما لقي يغمراسن من مشاقّ جمّة في مواجهة الخطر المريني، فإنه أدرك أن محاولات التوسع في اتجاه المناطق الغربية باءت بالفشل، وأن السياسة التي ينبغي انتهاجها هي التي تتجه نحو المناطق الشرقية، أي بلاد بني توجين ومغراوة.

أما بنو توجين، فكانت مواطنهم تشمل جبال وانشريس وبعض المدن المجاورة كالمدية ومنداس. وكان أميرا عليهم، عندما أسس يغمراسن إمارته، عبد القوي التوجيني، المتوفى سنة 647 هـ. وفي عهد ابنه محمد، المتوفى سنة 684 هـ، كانت العلاقات بينه وبين يغمراسن عدائية في أغلب الأحيان. وزحف يغمراسن مرارا إلى ناحية وانشريس، ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها، وخاصة بعد سنة 668 هـ، أي بعد أن استولى بنو مرين على مراكش، وقضوا على دولة الموحدين، وأصبحوا يهددون الدولة العبد الوادية[18].

17. حول علاقات يغمراسن ببني مرين، والحروب التي خاضها ضدهم، انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 171–173، 175–178، 180، 183–184؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق ج 1، ص 207؛ أبو عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، تحقيق محمود بوعياد، ص 128.

18. انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 178–181 و 322–326؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج 1، ص 207.

وأما أولاد منديل، من قبيلة مغراوة، فكانوا يملكون ناحية شلف ومدن مليانة وشرشال وبرشك وتنس. وأمراؤهم العباس بن منديل، المتوفى سنة 647 هـ، ثم محمد، المتوفى سنة 662 هـ، ثم ثابت، المتوفى سنة 694 هـ. ولم يستطع يغمراسن أن يملك أراضي أولاد منديل قبل عهد ثابت. لكن، في عهد هذا الأخير، تنازع أولاد منديل فيما بينهم. فاغتنم يغمراسن هذه الفرصة، فزحف إلى ناحية شلف، وانحاز إليه عمر، أخو ثابت، فأمكنه من مدينة مليانة، سنة 668 هـ، ونصبه يغمراسن ملكا على شلف بعد أن عزل أخاه ثابتا. ثم قام ثابت بمثل ما قام به عمر، فأمكن يغمراسن من تنس، سنة 672 هـ، مقابل اثني عشر ألف دينار. وبعد وفاة عمر، سنة 676 هـ، استقل ثابت بالحكم، واسترجع مليانة وتنس. ثم غزا يغمراسن ناحية شلف سنة 681 هـ، قبيل وفاته، واستعاد تنس[19].

ويتضح من هذا العرض الموجز أن نشاط يغمراسن العسكري، رغم كثافته، قد أدى إلى توسع متواضع. وذلك لأن الأوضاع السياسية كانت تتطلب نشاطا أقوى في المجال الدفاعي. وإذا اعتبرنا ما أحرز عليه يغمراسن من نجاح في مقاومة زحف أبي زكرياء الحفصي، ثم السعيد الموحدي، أدركنا بوضوح ما كان يمتاز به هذا الرجل من عبقرية وكفاءة. والجدير بالملاحظة أن ما امتاز به يغمراسن من انشغال بالدفاع عن حوزة بلاده، وحرص على تحقيق توسعها، لم يمنعه من تشييد المباني، والقيام بالإنجازات العمرانية. فمن ذلك تشييد الأسوار الشاهقة بباب كشوطة، سنة 665 هـ، في الجهة الغربية من أسوار تلمسان، وذلك عندما اشتد الصراع الذي كان قائما بينه وبين أمراء بني مرين.

ومن المباني الدينية التي أمر يغمراسن بتشييدها الصومعتان المشهورتان، إحداهما بالجامع الأعظم في أجادير، وعلوها أربعون مترا، والأخرى بالجامع الأعظم في تاجرارت، وعلوها أربعة وثلاثون مترا.

19. انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 178–181 و 135–138؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج 1، ص 207.

وهما من أهم آثار الزيانيين الباقية إلى عصرنا هذا. وعرض عليه أن يكتب اسمه على الصومعتين، فرفض وأجاب قائلا بلهجته الزناتية : «يسنت ربي، أي عرفه الله، علوّ همة، وحسن ظن بالخالق، وإعراضا عن التفاخر الدنيوي»[20].

وكان يسكن، في بداية عهده، القصر القديم، بجانب الجامع الأعظم بتاجرارت. ثم اختط المشوار واتخذه مقرا له. واشتهر بتواضعه في تعامله مع الناس. وعندما زعم أحد الفقهاء بمحضره أن بني عبد الواد ينتمون إلى علي بن أبي طالب، قال: «إن كان المراد شرف الدنيا فهو ما نحن فيه، وإن كان القصد شرف الأخرى فهو عند الله سبحانه»[21].

وكان يغمراسن محبا للعلم والعلماء والصالحين. وإليه يرجع الفضل في إقناع أبي إسحاق التنسي، الذي كان يعد أشهر عالم وفقيه بالمغرب الأوسط في عصره، بمغادرة مدينة تنس، والاستقرار بتلمسان، حيث اشتغل بالتدريس وبث العلم. ثم التحق به أخوه أبو الحسن، الذي خلفه في نفس الوظيفة، وأطلق اسمه على مسجد أبي الحسن، الذي بني بتلمسان في عهد أبي سعيد عثمان بن يغمراسن. وكانت تربط بين هاذين العالمين والأمير الزياني علاقة وثيقة[22]. ومن الصلحاء الذين نالوا شهرة كبرى في ذلك العصر، وحظوا بتقدير يغمراسن واحترامه وعنايته، أبو عبد الله ابن مرزوق، العالم الزاهد، وأول مشاهير رجال أسرة المرازقة بتلمسان.

20. يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج 1، ص 207.

21. انظر : يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج 1، ص 204-205.

22. للمزيد من التفاصيل حول أبي إسحاق إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنسي، المتوفى في حدود سنة ثمانين وستمئة، وأخيه أبي الحسن التنسي، المتوفى سنة ثلاث وسبعمئة بتلمسان، أيام الحصار الطويل، انظر : يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج 1، ص 114-115؛ أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 126-128؛ ابن مريم، البستان، ص 66-68 و 28-29.

وكان يغمراسن قد أوصى بأن يدفن ابن مرزوق هذا إزاء قبره، في دار الراحة من الجامع الأعظم، تبركا بروحه الطاهرة.[23]

ويبدو أن يغمراسن اتجه، في السنوات الأخيرة من عهده، نحو سياسة تهدف إلى تحسين العلاقات مع الحفصيين، فخطب إحدى بنات الأمراء من أبيها أبي إسحاق بن أبي زكرياء الحفصي لابنه وولي عهده أبي سعيد عثمان. ولما نهض إلى بلاد مغراوة، واستولى على مدينة تنس، أرسل ابنه أبا عامر إبراهيم إلى تونس ليعود بابنة أبي إسحاق إلى تلمسان. فأقبل بها، ولقي أباه بمليانة، فارتحل الجميع. وأثناء العودة، أصيب يغمراسن بمرض، وتوفي منه في طريقه إلى عاصمته، في آخر ذي القعدة سنة 681 هـ، ودفن في دار الراحة من الجامع الأعظم[24].

وخلاصة القول أن يغمراسن بن زيان استطاع أن يؤسس دولة بني عبد الواد، وأن يجعل من تلك القبيلة البدوية جيشا قويا وقادرا على حماية دولتهم الفتية، وبسط سلطتها في بعض المناطق الشرقية. ومن أهم العوامل التي ساعدته على تحقيق ذلك الهدف، أنه مكث ما يقرب من نصف قرن في الحكم، وأن دولة بني مرين لم تنتصر نهائيا على الموحدين إلا سنة 668 هـ، أي حوالي خمس وثلاثين سنة بعد تأسيس دولة بني عبد الواد.

وكان على ابنه وخلفه أبي سعيد عثمان أن يتبع السياسة التي انتهجها أبوه قبيل وفاته، في آخر عهده الحافل بالتجارب والبطولات. فسار على منهج أبيه بعد بيعته، وعقد السلم مع يعقوب بن عبد الحق المريني. ثم وجه أنظاره نحو مناطق المغرب الأوسط الشرقية، فاستولى على بلاد مغراوة بمنطقة شلف وعلى سهل متيجة. ثم قصد بجاية، فحاصرها مدة، وامتنعت عليه.

---

23. للمزيد من التفاصيل حول العالم الصالح أبي عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق بن الحاج التلمساني، المتوفى في أوائل رجب سنة إحدى وثمانين وستمئة، انظر: يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج 1، ص 114–115؛ ابن مريم، المصدر السابق، ص 226.

24. حول وفاة يغمراسن، انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 188–190؛ يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 207؛ أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 128–129.

فارتحل عائدا إلى عاصمته، وفي طريقه استولى على مدينة مازونة في ناحية شلف، ثم على تافركنيت في منطقة وانشريس[25].

ثم واصل الغارات على بلاد توجين ومغراوة، حتى دانت له جميعها، واستولى على المدية وبرشك وسائر مدن تلك المناطق. وعندئذ، استنجد أمراء مغراوة بالسلطان المريني، وكان هذا الأخير قد وعد أمراء مغراوة بمساعدته، فتحرك إلى تلمسان للضغط على السلطان الزياني، في جمادى الثانية سنة 690 هـ، وأقام خارج المدينة حوالي ثلاثة أشهر، دارت خلالها معارك شديدة بين الفريقين، ثم قفل راجعًا إلى بلاده.

ولما اشتدت وطأة أبي سعيد الزياني على مغراوة وتوجين، قرر أبو يعقوب بن عبد الحق المريني أن ينجد حلفاءه، ونهض للمرة الثاتنية، سنة 695 هـ، إلى تلمسان، «فنازل ندرومة، ثم ارتحل إلى جبل جيدزة قرب وهران، ثم عاد إلى بلاده»[26].

ثم توالت حركات السلطان المريني إلى تلمسان كل سنة، تهييئًا للحصار الطويل، الذي ضربه على المدينة مدة ثماني سنين وثلاثة أشهر، وضيّق الخناق على المدينة، مما سبب لأهلها أضرارًا لا تطاق[27]. وأثناء هذا الحصار، أرسل السلطان أبو يعقوب المريني الجيوش للاستيلاء على منطقة شلف وجبل وانشريس[28].

---

25 حول هذه الأحداث، انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 190–192؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج 1، ص 208–209؛ أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 129.

26 انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 190–194؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج 1، ص 208–209؛ أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق ص 129.

27 انظر: عبد الرجمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 194–197 و 453–459؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 209–210، أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 130-131.

28 انظر : عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 459–463.

وتوفي السلطان أبو سعيد عثمان بن يغمراسن في فاتح ذي القعدة 703 هـ، بعد ملك دام حوالي إحدى وعشرين سنة، قضاها كلها في خدمة بلاده، والنهوض بالجيوش لإخضاع المناطق الشرقية، من أجل توسّع الدولة شرقًا، والدفاع عنها غربًا[29].

ثم استمرّ الحصار في عهد ابنه وخلفه أبي زيان، وازدادت الأحوال سوء وتفاقمًا لندرة الأغذية، وتزايد عدد الأموات بالأسلحة والجوع والأوبئة، حتى بلغ عددهم حوالي مائة وعشرين ألفًا[30].

وفي السابع من ذي القعدة سنة 706 هـ، قتل السلطان المريني على يد أحد مواليه،

وحدث اختلاف بين أقاربه ورجال دولته في شأن تعيين خلفه. فانتهز أبو زيان وأخوه أبو حمو الفرصة، وعقدوا الصلح مع الأمير أبي ثابت، حفيد السلطان أبي يعقوب المريني، على أن يرفع الحصار حينًا، ويرتحل الجيش المريني إلى بلاده.

وبعد فك الحصار، اشتغل الأمير أبو زيان وأخوه أبو حمو موسى بإعادة السلطة الزيانية على مناطق المغرب الأوسط الشرقية، فأخضعا أهالي منطقة شلف وجبل وانشريس ومدنها، ونظما شؤونها، ثم عادا إلى تلمسان في رمضان سنة 707 هـ، فأمر أبو زيان لحينه «برمّ المتثلم في أبنية رياض قصوره، وإحياء ما انقعر من غروسها، مطاردة للأمل، وطمأنينة إلى الدنيا»[31].

غير أنه أصيب، بعد ذلك بشهر، بمرض شديد، وتوفي في 21 شوال سنة 707 هـ[32].

---

29. انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 197؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج 1، ص 210؛ أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 131.
30. انظر : يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج 1، ص 211.
31. يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج 1، ص 212.
32. حول هذه الأحداث، انظر: يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 211–212؛ عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 202.

والجدير بالملاحظة، فيما يخص هذه الفترة، أن العلاقات السياسية مع دول المغرب المجاورة، من دفاع عن البلاد، وقمع الثورات، وبسط نفوذ الدولة شرقًا، أخذت معظم مجهودات السلاطين الزيانيين، منذ تأسيس دولتهم على يد يغمراسن. ورغم الأخطار الخارجية التي كانت تهدد أمن تلمسان من كل جانب، فلم يمنع ذلك ملوكها من القيام بإنجازات معمارية ذات الطابع العسكري والديني والمدني، من أجل تحصين عاصمتهم وتشييد المباني، وإصلاح ما أفسدته غارات جيوش الدول المجاورة. فكان اهتمام الأمير أبي زيان بإعادة حيوية نشاطات العاصمة الزيانية يعبّر أحسن تعبير عن تصميم ملوك هذه الدولة على إقامة صرحها على أسس متينة، وإعلاء شأنها، وجعلها عنصرًا فعّالا من عناصر تحقيق قوة أقطار المغرب العربي، وتوفير الرفاهية والأمن لشعوبها. وإذا كانت الظروف لم تسمح للسلطان أبي زيان بالمضي في هذه المشاريع وإنهائها، حيث إن المنية عاجلته، فإن أخاه وخلفه أبا حمو موسى قد تولى هذه المهامّ على أحسن وجه.

وأبو حمو موسى هذا من أشهر سلاطين بني زيان لما كان يمتاز به من خصال تؤهله للملك وللدور الهام الذي قام به في تطور الدولة الزيانية. وقد وصفه عبد الرحمن بن خلدون، فقال عنه إنه «كان صارمًا يقظًا حازما داهية قوي الشكيمة صعب العريكة، شرس الأخلاق مفرط الذكاء والحدة»[33]. ويفهم من هذا الوصف أن هذا السلطان كان يتناول شؤون الدولة بجدّ واهتمام شديد، وأنه كان لا يسمح بأي إهمال أو خطإ أو تخاذل أو تقصير في أداء المهامّ، ولا يرضى إلا بالإتقان والكفاءة والحزم والشجاعة وغير ذلك من خصال القادة ورجال الدولة.

والظاهر أنه كان يملك هذه الخصال إلى أعلى مستوى. ويشهد على ذلك قول عبد الرحمن ابن خلدون، متحدثًا عنه: «وهو أول ملوك زناتة رتّب مراسم الملك وهذب قواعده، وأرهف لذلك لأهل ملكه حدّه، وقلب لهم مِجَنّ بأسه، حتى ذلوا لعزّ الملك، وتأدبوا بآداب السلطان»[34].

33 عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 203-204.

34 نفسه، ص 204.

وهذا يعني أن السلطان أبا حمو موسى الأول هو الذي أدخل المراسيم السلطانية، التي كانت معهودة آنذاك في الدول الراقية، في بلاط الدولة الزيانية، وأنه نقل نظمها من الطابع البدوي، الذي كانت تتسم به قبله، إلى الطابع الحضري.

غير أن رأي عبد الرحمن بن خلدون هذا، لا يمنع من إضافة بعض المعطيات التي قد تساعد على تفهّم عوامل هذا التطوّر، وتسليط بعض الأضواء على الأوضاع السياسية والاجتماعية السائدة آنذاك في المجتمع الزناتي بالمغربين الأوسط والأقصى.

وذلك أن تأسيس دولتي هاذيْن القطريْن لم يتمّ في تاريخ متقارب، حيث إن تأسيس الدولة الزيـانية، سنة 633 هـ، سبق بحوالي ثلث قرن تاريخ تأسيس الدولة المرينية، سنة 668 هـ، وأن هذه الفترة كانت حافلة بالأحداث في بلاد المغرب الإسلامي. وذلك أنها تزامنت مع تدهور مستمر للدولة المومنية، المتمثل في انفصال معظم مناطق الأمبراطورية الموحدية عن السلطة المركزية بمراكش، وسقوط أمصار الأندلس بين أيدي النصارى ما عدا غرناطة، مما أدّى إلى هجرة العديد من الأندلسيين إلى أمصار المغرب العربي. وقد حظيت تلمسان بنصيب وافر من تلك الهجرة، لما كانت تمتاز به آنذاك من استقرار نسبي وأمن وطمأنينة، وفرص عمل في مختلف الحرف، وإمكانية الحصول على مناصب عليا في البلاط أو في مختلف الوظائف المتاحة للفقهاء والعلماء والأدباء. وقد نتج عن ذلك انتعاش ملحوظ للصناعات والحرف والعلوم بتلمسان وغيرها من مدن المغرب الأوسط، وأخذ البلاط الزياني يحاول تكييف التـقاليد الاجتماعية والسياسية الزناتية البدوية مع الوضع السياسي الجديد، غير أن الهدف الرئيسي من إقامة مراسم البلاط وقواعدها كان يتمثل في تقوية سلطة الملك، على حساب ما كان يتمتع به شيوخ القبائل من نفوذ سياسي.

والظاهر أن هجرة العديد من الأندلسيين إلى المغرب الأوسط كان لها أثر هام في تهييء الظروف التي تسمح بتحديث التنظيمات السياسية والاجتماعية وتطويرها، وذلك بتوفير كثير من الكفاءات في سائر المجالات، مما مكن الملوك

الزيانيين من الاستفادة من خبراتهم. وذلك مثل أبي بكر بن خطاب المرسي، الذي شغل منصب كاتب للسلطان يغمراسن وابنه أبي سعيد عثمان، وتوفي سنة 686 هـ، وأسرة بني الملاح التي كان كثير من أعضائها متخصصين في الشؤون المالية ببلاط أبي حمو موسى الأول[35]، وغيرهم.

وهكذا، كان لاجتماع توفير الوسائل البشرية ذات الخبرة والكفاءة بذكاء السلطان أبي حمو موسى الأول ودهائه ويقظته وحزمه، أثر بالغ الأهمية جعل دولته تحتل مكانة مرموقة بين دول المغرب الإسلامي، وتصبح بمثابة نموذج يقتدى به في شأن التنظيم السياسي.

ويُعَدُّ عهده عهدَ نمـوٍّ وازدهار في سائر المجالات، تـمّ فيه إنجاز كثير من الأعمال التي تشهد على حزم أبي حمو الأول وكفاءته. ومن إنجازاته الهامة متابعة الأعمال التي أمر بها أخوه السلطان أبو زيان قبيل وفاته، من إصلاح ما تهدّم من الأبنية والأسوار، وإحكام تحصين المدينة بحفر الخنادق حولها، وإحياء الرياض بزرعها وغرس الأشجار فيها، كما أمر بادّخار المؤن الغذائية وكل ما يمكن ادّخاره خشية الوقوع في حصار آخر، فحُفِرَت المطامر، ومُلِئت بكمّيّات هائلة من الحبوب والسمن والملح والفحم والحطب وغير ذلك.

ويشهد على تديُّنه وحبه للعلم والعلماء، أمرُه ببناء أول مدرسة في المغرب الأوسط، شكرًا لله بعد انتهاء الحصار الطويل وخلاص تلمسان من خطر بني مرين. وعيّن للتدريس فيها عالمَيْن وفدا على تلمسان في تلك السنة، هما الأخوان أبو زيد وأبو موسى ابنا الإمام، أصلهما من برشك، قرب تنس، وكانا قد رحلا إلى المشرق، وأخذا على كثير من العلماء بالشام ومصر والحجاز، ثم رجعا إلى وطنهما، وقدما إلى تلمسان، فأكرم أبو حمُو مثواهما، وقاما بالتدريس فيها، وتخرّج عليهما عدد كبير من الفقهاء والعلماء[36].

35. حول أسرة بني الملاح، انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 217–218.
36. انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 206–207؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 130؛ أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 139.

وفيما يخص علاقات الدولة الزيانية بالدول المجاورة وإمارات المغرب الأوسط الأخرى، فإنها تتسمُ بالاستقرار غربـًا والتوسّع شرقـًا. وكان أول عمل قام به أبو حمو موسى الأول يتمثل في إرسال وفد إلى فاس، يعرض على السلطان المريني أبي الربيع سليمان عقد الصلح بين الدولتين، فأجابه بالقبول وتمّ عقد الصلح(37).

وكانت مناطق المغرب الأوسط الشرقية، من جبل وانشريس ومنطقة شلف ونواحي مليانة والمدية والجزائر، قد انفصلت عن الدولة الزيانية منذ الحصار الطويل لتلمسان. فأغـار أبو حمو الأول على بلاد بني توجين ومغراوة، معربـًا عن تصميمه على إعادة نفوذ الدولة على تلك المناطق. فلم يَقوَ على مواجهته محمد ابن عطية التوجيني بجبل وانشريس، وراشد بن محمد بن ثابت بن منديل المغراوي بناحية شلف، وغادرا بلادهما، فاستولى أبو حمو على بعض نواحيها، ثم عاد إلى تلمسان.

وفي سنة 710 هـ، توجه أبو حمو الأول إلى بلاد بني توجين، لمواصلة إخضاع نواحيها، «ونزل تافركنيت وسط بلادهم، فشرّد الفلّ من أعقاب محمد بن عبد القوي من وانشريس... وعقد لكبيرهم يحيى ابن عطية على رياسة قومه في جبل وانشريس، وعقد ليوسف بن حسن من أولاد عزيز على المدية وأعمالها، وعقد لسعد من بني سلامة بن علي على قومه بني يدللتن، إحدى بطون بني توجين، وأهل الناحية الغربية من عملهم، وأخذ من سائر بطون بني توجين الرهن على الطاعة والجباية، واستعمل عليهم جميعًا من صنائعه قائده يوسف بن حيون الهواري، وأذن له في اتخاذ الآلة»(38). وهذا يعني أن الاستيلاء الزياني على هذه المناطق كان يتسم بطابع المرونة، وأن السلطان أبا حمو الأول كان يكتفي بالبيعة ودفع الجباية، ويترك تسيير شؤون كل بطن من بطون القبيلة لأحد شيوخه الذي يتوسم فيه الطاعة والتأييد، ويكتفي بالتأكد

37. انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 204.
38. نفسه، ج 7، ص 204-205.

من طاعة الأهالي بأخذ رهائن من أبناء الأمراء وأشياخ بطون القبيلة، وبتعيين عامل على كل المنطقة، يسند إليه مهامّ جمع الجباية وأخذ البيعة والسهر على الأمن.

ثم اتجه السلطان أبو حمو إلى منطقة شلف، حيث اطلع على شؤونها، وعيّن مولاه مسامحًا على بلاد مغراوة، ومحمد ابن عمه يوسف بن يغمراسن على مليانة وقفل راجعًا إلى تلمسان.

وفي سنة 712 هـ، نهض أبو حمو موسى الأول بعساكره إلى المناطق الشرقية، فنزل بوادي شلف، وأرسل العساكر بقيادة مولاه مسامح إلى ناحية متيجة، فأخضع قبيلة مليكش، وحاصر مدينة الجزائر، فضيّق حصارها، واضطرّ حاكمها ابن علان إلى عرض تسليم المدينة، «على أن يستشرط لنفسه، فتقبل السلطان اشتراطه، وملك السلطان أبو حمو الجزائر، وانتظمها في أعماله»[39]، وعاد إلى تلمسان، فكان لما حققه من نصر سمح بتوسيع حدود الدولة شرقًا أطيب الأثر، وذاع صيته في مختلف أنحائها، وخشيه أعداؤه.

وفي سنة 714 هـ، حدث توتر في العلاقات بين أبي حمو الأول والسلطان المريني أبي سعيد ابن يعقوب بن عبد الحق، وكان هذا الأخير قد طالب السلطان الزياني بتسليم أخيه ومنافسه على العرش يعيش، الذي كان قد استجار بأبي حمو فأجازه، وأبى أن يسلمه للسلطان أبي سعيد المريني. وعندئذ أغار هذا الأخير على البلاد الزيانية، ونازل مدينة وجدة، فحاصرها مدة، ثم توجه بعساكره إلى تلمسان، فضرب الحصار حولها دون أن يتمكن من اقتحامها. ثم خشي أن تحاك ضده مؤامرة، واستراب من وزرائه، ورفع الحصار عن تلمسان، وعاد إلى بلاده[40].

39 عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 209.

40 عبد الرحمن بن خلدون، ج 7، ص 210–211؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 213، أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 136.

ويمكن التساؤل عن الهدف الحقيقي لتوتر العلاقات بين أبي حمو والسلطان المريني. فقد يكون وراء غضب هذا الأخير لرفض طلب تسليم أخيه يعيش هدف آخر يتمثل في تخوّف السلطان المريني من انتعاش الدولة الزيانية وتوسع حدودها الشرقية إلى مدينة الجزائر. غير أن أبا سعيد المريني انشغل بعد ذلك بأحداث وفتن منعته من إعادة الكرة، وكسر شوكة الزيانيين قبل أن يستفحل أمرهم.

وعندئذ وجّه أبو حمو الأول اهتمامه إلى المناطق الشرقية. وكان راشد بن محمد المغراوي قد انتهز فرصة حصار أبي سعيد المريني لتلمسان، فعاد من بلاد زواوة إلى منطقة شلف، محاولاً إحياء إمارة مغراوة، وشايعه بنو أبي سعيد، وهم فصيلة من قبيلة مغراوة. فجهز أبو حمو جيشًا، ونهض إلى بلاد شلف، فنزل وادي تهل، «ففرّ (راشد بن محمد) أمامه ناجيًا إلى مثوى اغترابه ببجاية، وأقام بنو أبي سعيد بمعقلهم من جبال شلف على دعوته»[41].

فأقام السلطان أبو حمو بوادي تهل محاصرًا بني أبي سعيد، وشيّد هناك قصرًا لا يزال يحمل اسمه، وهناك وفد عليه عثمان بن سبّاع شيخ الدواودة، وحثه على النهوض إلى منطقة بجاية والاستيلاء عليها. وكان أبو حمو قد تلقى، قبل ذلك، رسائل في نفس الغرض من بعض رجال إمارة بجاية الحفصية، فلم يقدم على الزحف إليها لانشغاله بإخضاع بني توجين ومغراوة ومدينة الجزائر. وعندئذ اتخذ لجوء راشد بن محمد ببجاية ذريعة لشنّ الحرب على أميرها الحفصي، فحشد الجيوش، واستعمل ولده الأمير أبا تاشفين على تلمسان، وأرسل جيشا بقيادة مسعود ابن عمه أبي عامر لحصار بجاية، وعقد لابن عمه محمد بن يوسف قائد مليانة على جيش، ولمولاه مسامح على جيش آخر، «وسرحهم إلى بجاية وما وراءها لتدويخ البلاد، وعقد لموسى بن علي الكردي على عسكر ضخم، وسرحه مع العرب من الدواودة وزغبة على طريق الصحراء، وانطلقوا إلى وجههم ذلك»[42].

41. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 213.
42. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 212-213؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 213؛ أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 137.

وتوغلت العساكر الزيانية في البلاد الحفصية، دون أن تواجه مقاومة تذكر، كل في الاتجاه المرسوم له، إلى أن التقت ظاهر مدينة عنابة. ثم عادوا مرورًا بجبل بني ثابت المطلّ على قسنطينة، وحدث تنافس بين القائدَيْن موسى بن علي الكردي ومحمد بن يوسف، وتحاسد كاد يفضي إلى وقوع الفتنة بين الجيوش، ثم عادَ كل منهم إلى معسكر السلطان[43].

وسبق موسى بن علي الكردي إلى أبي حمو الأول، فأوغر صدره على محمد بن يوسف. ولما وفد هذا الأخير على السلطان، عزله عن قيادة مليانة، فرغب منه زيارة ابن أخته الأمير أبي تاشفين، فأذنَ له، «وأوعز إلى ابنه بالقبض عليه، فأبى عن ذلك»[44]. ثم عاد محمد بن يوسف إلى معسكر السلطان، فتنكر له وحجبه، ولم يسمح له بمشاهدته صباحًا ومساء كما كانت العادة، فخشي على نفسه وغادر المعسكر، ولحق بالمدية، ودعا بها إلى نفسه بمساعدة عاملها يوسف بن حسين بن عزيز من بني توجين. وثار بتلك الناحية، فتبعه أهلها. وعندئذ اغتنم محمد ابن يوسف فرصة افتراق العساكر عنه، فقصد إلى معسكره، ولم يحجم السلطان عن مواجهته بما كان لديه من الجنود، فانهزم وعاد مفلولاً إلى تلمسان. وغلب محمد بن يوسف على سائر بلاد بني توجين ومغراوة، ونزل مدينة مليانة.

وبعد أيام، جمع أبو حمو جيشًا، ونهض مشرّقًا لإخضاع الثوار. وكان مسعود بن أبي عامر أثناء ذلك لا يزال محاصرًا لبجاية، ومقيمًا في حصن بناه بأصفون، فأمره برفع الحصار والعودةِ بالعساكر، وأخذِ الثوار من ورائهم، فنهض محمد بن يوسف من مليانة لاعتراضه، ولقيه بسهل متيجة، فانهزم محمد بن يوسف، ولجأ إلى جبل موصاية، فحاصره مسعود بن أبي عامر أيامًا، ثم أفرج عنه ولحق بالسلطان، فتوجها بجموعهما إلى مليانة، وأخذوها عنوة، ثم ملكا المدية، «ثم أخذ رهائن الوطن كله حضرًا

43. انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 213؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 213؛ أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 137.

44. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج 7، ص 213.

وبدوًا، وقفل إلى حضرة ملكه، وقد أعضل داء محمد ابن يوسف المذكور، ونشبت في البلاد مخالب دعوته»[45].

وفي سنة 717 هـ / 1317 م.، نهض السلطان إلى المناطق الشرقية، واستولى على المدية، وأكثر في أخذ الرهائن من أهل ناحيتها، «ومن أهل العمالات وقبائل زناتة والعرب، حتى من قومه بني عبد الواد، ورجع إلى تلمسان، ونزلهم بالقصبة، وهي الغور الفسيحة الخطة، تماثل بعض الأمصار العظيمة، اتخذها للرهن، وكان يبالغ في ذلك»[46].

وكان أبو حمو، لما رجع إلى عاصمته، واجدًا على ابنه الأمير أبي تاشفين لعدم امتثال أمره في شأن إلقاء القبض على خاله محمد بن يوسف، فجعل يوبخه وينكر عليه تصرُّفاته، ويفضِّل عليه ابن عمه أبا سرحان مسعود بن أبي عامر بن يغمراسن لدهائه وحزمه، ويعيره به، مما جعل الأمير أبا تاشفين الشابّ المثقف والمُرْهَف الشعور يكره أباه، ولا يجد شيئًا من الانشراح والتسلية إلا مع بطانته التي كانت تتكوَّن خاصة من بعض المعْتَقين من نجباء الأعلاج كهلال القطلاني، وأفضى لهم بسره، فأشاروا إليه بتدبير مقتل مسعود، وحبس السلطان، والاستقلال بالملك، «وسهّلوا منال ذلك عليه، مع الشباب والهمة العالية والترامي إلى منصب المُلك والضغائن الكامنة، فوافقهم»[47].

وفي يوم 22 جمادى الأولى 718 هـ، اجتمع المتآمرون وقصدوا مع أبي تاشفين دار السلطان بعد انقضاء مجلسه، وحين خلوته بخاصّته، ومنهم أبو سرحان مسعود وبعض بني الملاح، ودخلوا عليهم، وقتلوهم أجمعين بحضور أبي تاشفين. «وجهز السلطانُ إلى مدفنه بمقبرة سلفه من القصر القديم»[48].

---

45. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 214؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 214؛ أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 137–138.

46. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 215؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 214.

47. يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 214.

48. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 219. حول هذه الأحداث، انظر أيضا: يحيى بنخلدون، المصدر السابق، ص 214–215؛ أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 138–139.

وهكذا، شهدت المرحلة الأخيرة من عهد أبي حمو موسى الأول أحداثا خطيرة تتمثل في ثورة محمد بن يوسف ومأساة مقتل السلطان أبي حمو، مما سبب توقف العمليات العسكرية في بلاد الحفصيين، وتراجع توسع الدولة الزيانية في بعض المناطق الشرقية بالمغرب الأوسط. فكان على خلفه أبي تاشفين أن ينقذ الموقف ويتدارك ما طرأ من تناقص نفوذ الدولة الزيانية في المناطق الشرقية.

لقد كان أبو تاشفين الأول لا يزال شابا لا يتجاوز عمره ستًا وعشرين سنة، وكانت سيرته وأخلاقه تختلف عما كان عليه أسلافه وأبوه. وكان يميل إلى اللهو واللذات، شأنه في ذلك شأن بعض الأعلاج الذين كانوا يشكلون بطانته منذ صغره. ويبدو أن بعض هؤلاء نشأوا بالأندلس في قصور الأمراء، وعرفوا فيها حياة اللهو والترف، فلما قدموا إلى تلمسان، وجدوا بها بيئة لم تصل إلى مستوى حضارة الأندلس. وقد تجلى ذوقه المرهف للفنون في المجال المعماري المتمثل في بناء المدرسة التاشفينية، بجانب الجامع الأعظم بتلمسان، وتشييد القصور المشهورة مثل دار الملك ودار السرور وأبي فهر، مما يسمح باعتبار أن «في أيامه تحضرت الدولة، وأخذ الملك زخرفه وتزين». فكان لذلك أثر ملحوظ في تكوين شخصية أبي تاشفين وأخلاقه وسلوكه وميوله[49].

وكان هلال القطلاني، الذي قام بدور هام في تدبير مقتل أبي حمو الأول، يتمتع بثقته التامة، فأسند إليه منصب الوزارة، وأصبح صاحب الأمر والنهي. وأول عمل قام به أبو تاشفين يتمثل في إجازة سائر قرابته الذين كانوا مقيمين بتلمسان إلى الأندلس، حذرًا من منافستهم على العرش وما ينشأ عن ذلك من الفتن. ثم جمع العساكر من قبيلة بني عبد الواد وأحلافهم من زناتة وسويد، ونهض بهم من تلمسان سنة 719 هـ، قاصدًا جبل وانشريس، حيث كان محمد ابن يوسف قد جمع أنصاره من بني توجين ومغراوة، فاقتحم أبو تاشفين الجبل، واعتصم الثوار بحصن توكال، فضرب أبو تاشفين الحصار حول الحصن

49 انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ص 235-236؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 216.

ثمانية أيام، وخالف بعض فصائل توجين صفوف الثوار، فاختل أمر محمد بن يوسف، وانفضّ الناس من حوله، واقتحم أبو تاشفين الحصن، فأخذه عنوة، وجيء بمحمد بن يوسف أسيرًا إليه، فأمر بقتله قعصًا بالرماح. ثم واصل زحفه مشرّقـًا، فأغار على أحياء رياح بوادي الجنان، ونازل بجاية ثلاثة أيام، فامتنعت عليه. وعاد إلى تلمسان، وقد علا صيته، وأعاد إلى الدولة الزيانية عزتها، وهابها أهالي تلك المناطق[50].

وفي سنة 720 هـ، أرسل أبو تاشفين العساكر إلى ناحية بجاية، فجاسوا خلال ضواحيها، وعادوا بالغنائم. ثم أرسل جيوشه كلها، سنة 721 هـ، بقيادة موسى بن علي الكردي، إلى ناحية قسنطينة، وحاصرها فامتنعت عليه، وأفرج عنها، وتوجه إلى ناحية بجاية، فبنى حصن بكر، في أول مضيق وادي بجاية، وترك فيه حامية وافرة بقيادة يحيى بن موسى الجمي، قائد شلف، وعاد إلى تلمسان. وتكررت نفس العملية، سنة 722 هـ، مع نفس النتائج. ويبدو أن هذه العمليات المتكررة منذ سنة 720 هـ، كانت عبارة عن غارات استطلاعية تهدف إلى التعرف على تلك المناطق، وعلى ما لها من تحصينات وإمكانات دفاعية.

وفي سنة 723 هـ، ساءت العلاقات بين السلطان أبي يحيى الحفصي وعرب رياح، فأقاموا الأمير عبد الواحد بن محمد اللحياني منافسـًا له على العرش، ووفد على السلطان أبي تاشفين الأول شيخ عرب إفريقية حمزة بن عمر بن أبي الليل السليمي، طالبين مساعدته ومستنجدين به على السلطان الحفصي. ورأى أبو تاشفين أن الفرصة قد سنحت لتحقيق هدف الاستيلاء على بجاية إذا ما استجاب لطلب عرب إفريقية وتحالف معهم، فأرسل مع الشيخ حمزة العساكر من توجين وبني راشد، مع كافة القواد، وأمّر عليهم موسى بن علي الكردي. فقصدوا إلى إفريقية، وخرج السلطان الحفصي في اتجاههم، وكان لقـاء الجيشيْن بدغيس، قرب مَرْمَجَنة، «وكانت توجين مرضى

50 انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 220–221؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 216؛ أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 143.

القلوب، فانهزموا دون حرب كبيرة، فانهزم الناس لهزيمتهم، وقتل مسامح أحد القواد، وبعدت على الناس الشقة، وثار العدو بهم من خلف وأمام، فقلع كثيرهم»[51].

ويبدو أن ما كان قائمًا بين قواد عساكر السلطان أبي تاشفين من تنافس وحقد وضغائن كان له أثر فعّال في هذه الهزيمة، بالإضافة إلى ما ذكرته المصادر من تخاذل بني توجين، وإلى عوامل أخرى، مثل بعد المسافة، وصعوبة تموين الجيش، وغير ذلك من أخطار خوض المعارك في مناطق جبلية ومسالك وعرة.

غير أن هذه الهزيمة لم تثن عزيمة السلطان أبي تاشفين، فأمر بتجديد ما ضاع من المحلات، وحشد العساكر، وتجهيزها بالأسلحة والعتاد. وفي سنة 724 هـ، أمر بالنهوض إلى بجاية. فتصدى للقائهم الحاجب أبو عبد الله ابن سيد الناس، ودارت المعركة بين الفريقين بمكان يدعى جبيرة، خارج بجاية، فانهزم الحفصيون، ونجا الحاجب عن طريق البحر[52].

والظاهر أن هذا الانتصار قد أعاد الأمل للسلطان في فتح بجاية، وساعد على رفع معنويات الجنود. ووفد أشياخ قبيلة سويد، سنة 725 هـ، على السلطان أبي تاشفين، يستحثونه للحركة إلى إفريقية، فاستجاب لطلبهم، وأقام الأمير الحفصي إبراهيم بن عبد الرحمن الشهيد منافسًا للسلطان أبي يحيى، وأرسل معهم القائد موسى بن علي الكردي بالعساكر الوافرة. فنهض أبو يحيى الحفصي في اتجاههم، ولم يقو على لقائهم، فتذمّم بقسنطينة، وواصل الأمير إبراهيم ابن الشهيد وأنصاره من سويد مسيرتهم إلى تونس فملكوها، بينما ضرب القائد موسى بن علي الكردي الحصار على قسنطينة خمسة عشر يومًا، ثم أفرج عنها وعاد إلى تلمسان[53].

---

51. يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 217؛ انظر أيضا : عبد الرخمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 221-222.
52. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 222؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 217
53. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 222؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 217

وفي سنة 726 هـ، ازداد ضغط العساكر الزيانية، بقيادة موسى بن علي الكردي، على بلاد الحفصيين، فنازلت مدينة قسنطينة، وعاثت في ضواحيها فسادًا، ثم حاصرت بجاية مدة، وظهر أن حصن بكر لم يكن صالحًا لعملية حشد الجيوش فيه قصد المزيد من تضييق حصار بجاية، لبعد المسافة بينهما، فاختط مدينة في مكان أقرب منه، على وادي بجاية، وأطلق عليها اسم تامزجزجت، وأنزل ثلاثة آلاف ومائتَيْ فارس. وأمر السلطان أبو تاشفين جميع عمّاله بالمغرب الأوسط بتزويدها بالحبوب، «والأدم وسائر المرافق حتى الملح، وأخذوا الرهن من سائر القبائل على الطاعة، واستوفوا جبايتهم، فثقلت وطأتهم على بجاية، واشتد حصارها وغلت أسعارها»[54].

وتعتبر هذه الأحداث بداية مرحلة جديدة في عمليات التوسع الزيانية في اتجاه إمارة بجاية الحفصية، تتسم باستمرارية الاستيلاء على ضواحي بجاية، وحمل أهاليها على البيعة والطاعة، وفرض الجباية عليهم، وأخذ الرهائن منهم، وتضييق الحصار حول بجاية. وعندئذ أدرك الحاجب ابن سيد الناس أن لا طاقة له لمقاومة العساكر الزيانية، فاستنجد بالسلطان أبي يحيى، واستجاب هذا الأخير لطلبه، وأخذ يحشد العساكر، ويعمل على تجهيزها بالأسلحة والعتاد.

وأرسل السلطان الفصي عساكره، سنة 727 هـ، إلى بجاية، فنهض بهم الحاجب ابن سيد الناس قاصدًا تامزجزجت، وكان القائد الزياني موسى بن علي قد استدعى عساكر المناطق المجاورة لناحيته، وكان اللقاء بين الفريقين بالأربعاء من الوادي الكبير، قرب تامزجزجت، فانهزم جيش الحفصيين، واستبيحت محلاته كلها[55].

54. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص223؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 217؛ أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 143.

55. انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 223؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 217–218.

ثم تواصلت العمليات في اتجاه إفريقية، فأرسل أبو تاشفين عساكره، سنة 728 هـ، بقيادة يحيى بن موسى الجمي، فعاثوا فيها فسادًا، ونازلوا قسنطينة وعنابة، ثم عادوا إلى تلمسان. وفي سنة 729 هـ، نهض السلطان أبو تاشفين إلى بجاية، مغتنمًا فرصة غياب الحاجب ابن سيد الناس، ومستجيبًا لاستقدام بعض أهلها إياه، وبلغ نبأ ذلك إلى الحاجب، فعاد مسرعًا إلى بجاية، ودخلها يوم نزول أبي تاشفين عليها، فأمر بقتل مَنْ راسل السلطان الزياني من أهلها. ورجع هذا الأخير إلى تلمسان بعد أن ولى على جيش تامزجَزجت عيسى ابن مزروع الياتكتني، من أشياخ بني عبد الواد، وأمره ببناء حصن أقرب إلى بجاية من تامزجزجت، فبناه بالياقوتة من أعلى الوادي، جنوب بجاية[56].

ثم وفد على السلطان أبي تاشفين، سنة 730 هـ، حمزة بن عمر السليمي، مستنجدًا به، فاستجاب لطلبه، وأرسل معه جيوشه بقيادة يحيى بن موسى الجمّي، ومعهم الأمير محمد بن أبي بكر بن أبي عِمران الحفصي. فنهض السلطان أبو يحيى الحفصي بعساكره في اتجاههم، فلقيهم بالريّاس قرب الواد الشارف، من بلاد هوارة، «فهزموه هزيمة شنعاء، استولوا فيها على حرمه وذخائره ومحلاته، وأفلت هو من الكائنة جريحًا إلى قسنطينة، ثم دخلوا تونس، فأقاموا بها أربعين يومًا، وأسلموها لابن أبي عمران وحمزة بن عمر السليمي، وقفلوا»[57].

وبهذا أثبتت السياسة التي انتهجها الزيانيون منذ وفاة يغمراسن، والمتمثلة في مسالمة بني مرين والعمل على التوسع شرقا في اتجاه إفريقية، أن الدولة الزيانية أصبحت قادرة على الدفاع عن أراضيها، وعلى امتلاك بعض المناطق المجاورة. وهذا يعني أن التوازن الذي كان قائمًا بين الدول الثلاث صار مهددًا بأطماع الزيانيين الرامية إلى توسيع نفوذ دولتهم شرقًا، والتمهيد لذلك بضرب الحصار حول بجاية وشنّ الغارات على قسنطينة وعنابة.

56. انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 223-224؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 218.

57. يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 218؛ انظر أيضا : عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 224؛ أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 144.

وعندئذ لم يَرَ السلطان الحفصي سبيلاً لإنقاذ عرشه إلا الاستنجاد بالمرينيين، وطلب مساعدتهم على التخلص من الخطر الزياني، وإنقاذ عرش أبي يحيى الحفصي. فأرسل ابنه يحيى ووزيره أبا محمد ابن تافراجين إلى السلطان أبي سعيد المريني بفاس، مستصرخا به على أبي تاشفين، وراغبًا في عقد تحالف بين الدولتين، ومعرضا له بمصاهرة ابنه أبي الحسن بإحدى بناته. فرحّب أبو سعيد بهما، ووعدهما بالمساعدة، ووافق على المصاهرة. ثم بعث، سنة 731 هـ، رسلاً إلى أبي تاشفين في شأن الشفاعة للحفصيين، ورفع الحصار عن بجاية، فلم يستجب أبو تاشفين لطلبهم، وتوفي السلطان أبو سعيد في أواخر تلك سنة. فخلفه ابنه أبو الحسن بفاس، وابنه أبو علي بسجلماسة. فأرسل أبو تاشفين بالعزاء لأبي علي. وأرسل أبو الحسن المريني لأبي تاشفين طالبًا منه رفع الحصار عن بجاية، فأساء الردّ قولاً وفعلاً.

وعندئذ جمع السلطان المريني عساكره، ونهض في سنة 732 هـ مشرّقًا، فتخطى تلمسان إلى تاسالة، وأقام بها مدة، وبعث إلى صهره السلطان أبي يحيى الحفصي يدعوه إلى التحرك نحو تامزجزجت. «وبعث المدد إلى بجاية مع الحسن البطوي من صنائعه، وركبوا في أساطيله من سواحل وهران»[58]. فنهض أبو يحيى الحفصي مغرّبًا، سنة 733 هـ، فلما قاربها فرّ مَنْ كان بها من العساكر والقوّاد وأسلموها بما فيها. فلحقت بها عساكر السلطان الحفصي، «فعاثوا فيها تخريبًا ونهبًا، وانطلقت الأيدي على الاكتساح بما كان فيها من الأقوات و الأدُم، فنسفت نسفًا وألصقت جدرانها بالأرض، وتنفس مخنق بجاية من الحصار، وانكمش بنو عبد الواد إلى وراء تخومهم»[59].

وعاد أبو الحسن المريني بعساكره إلى بلاده، وقد ساءت الأحوال بينه وبين أخيه أبي علي، فنهض إلى سجلماسة، وحاصرها وأخذها عنوة، سنة 734 هـ، فأمر بقتله، وعاد إلى فاس فحشد العساكر، ونهض بها،

58. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 226. انظر أيضًا: يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 218؛ أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 144–145.

59. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 226–227. انظر أيضا : يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 218–219؛ أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 144–145.

سنة 735 هـ، مشرّقًا، فاستولى على ندرومة وهنين ثم وهران، وخرّب وجدة، وأطاعته سائر المناطق الشرقية. ثم ضرب الحصار حول تلمسان، وأحكم تضييقه، ونصب المجانيق، وأعاد بناء مدينة المنصورة غربي تلمسان. ولم ينقطع عن القتال حتى اقتحمها، ودخلها عنوة في 28 رمضان سنة 737 هـ، فلجأ أبو تاشفين وأولاده أبو سعيد وأبو سرحان وأبو يعقوب ووزيره موسى بن علي وغيرهم من أوفيائه إلى باب قصره يقاتلون دون الحرم والأولاد، إلى أن استلحموا، وملك أبو الحسن المريني سائر أنحاء المغرب الأوسط[60].

3. الاستيلاء المريني :

يشكل الاستيلاء المريني للمغرب الأوسط، سنة 737 هـ، حادثًا هاما في إطار المنافسة الطويلة التي كانت قائمة بين بني عبد الواد وبني مرين منذ نشأة الدولة الزيانية. وذلك أن القبيلتين تنتميان إلى مجموعة بني واسين من زناتة، وكانت كل واحدة منهما تطمح في توسيع نفوذها في اتجاه سائر المناطق الزناتية بالمغربين الأوسط والأقصى، وفرض زعامتها عليها.

والجدير بالملاحظة أن قرابة الانتماء هذه جعلت الصراع القائم بينهما منذ عهد الموحدين محدودًا، يكاد يكون شبيهًا بمنافسة أخوين على العرش، ولم يكن ممتدا إلى أغلب شرائح المجتمع. فلا يستغرب أن يعامل السلطان أبو الحسن المريني فرسان بني عبد الواد معاملة حسنة، ليكسب رضاهم، «وشفا نفسه بقتل سلطانهم، وعفا عنهم وثبتهم في الديوان، وفرض لهم العطاء، واستتبعهم على راياتهم ومراكزهم، وجمع كلمة بني واسين من بني مرين وبني عبد الواد وتوجين، بل وسائر زناتة. وأنزلهم ببلاد المغرب، وسدّ بكل طائفة منهم ثغرًا من أعماله... واندرجوا في جملته، واتسع نطاق ملكه، وأصبح مَلِكَ زناتة، بعد أن كان مَلِكَ بني مرين، وسلطانَ العدوتيْن، بعد أن كان سلطان المغرب»[61].

60. انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 227–230؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 219؛ أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 145–146.

61. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 537.

أما أمراء بني عبد الواد، من أحفاد يغمراسن بن زيان، فأمر بنقلهم إلى فاس، حيث حظي بعض صغارهم بالتربية في دور البلاط المريني، وعاش آخرون بها دون أن يصيبهم أي ضرر أو إزعاج[62].

وعني أبو الحسن المريني بالجانب العماري، فأصلح عمارة مدينة المنصورة، وواصل بناء المسجد الأعظم بها، وقصر النصر، وجعله مقرا له، وشيد بالعباد، خارج تلمسان، مسجدًا بجانب ضريح الشيخ أبي مدين الإشبيلي، ومدرسة، مما يدل على أهمية الإنجازات العمرانية في عهده[63].

غير أن جهودَ أبي الحسن المريني في الدفاع عن أراضي المسلمين بالأندلس، واستكمال فتح أقطار المغرب العربي، لم تحقق كل الآمال المرجوّة، حيث إن عساكره هزمت شرّ هزيمة، سنة 740 هـ / 1340 م، في معركة طريف، ثم في محرم 749 هـ / أبريل 1348 م، أمام عرب إفريقية قرب القيروان. مما سبب تقلص النفوذ المريني بالأندلس وبإفريقية. وزاد في خطورة موقف أبي الحسن المريني انتشار الطاعون بإفريقية وسائر أنحاء المغرب، فمات عدد كثير من الناس، حتى شاع خبر وفاته، الأمر الذي أحدث تنافس أبنائه على العرش، وبعث الأمير أبا عنان إلى الدعاء لنفسه بفاس. ولما عاد السلطان أبو الحسن في اتجاه فاس، لم يتمكن من استرجاع عرشه، وانتهت المواجهة بينهما بوفاة السلطان أبي الحسن المريني في جبل هنتاتة في 23 ربيع الثاني سنة 752 هـ وعندئذ صفا الجوّ لأبي عنان، واستوثق مُلكه[64].

هذا وقد نجم عن نكبة أبي الحسن المريني بالقيروان أحداث هامة، تتمثل في قيام الساخطين عليه، من أمراء الحفصيين والزيانيين وأشياخ العرب،

---

62. وذلك مثل الأمير أبي زيان محمد بن عثمان بن أبي تاشفين الأول، والسلطان أبي حمو موسى الثاني ووالده. انظر : عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 261–265؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 64؛ ابن الأحمر، روضة النسرين، ص 58.

63. ابن مرزوق الخطيب، المسند، تحقيق ماريا خسوس فيقيرا، ص402–407، 447–449؛ R. Bourouiba, L'Art religieux musulman en Algérie, pp. 155-203.

64. حول هذه الأحداث، انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 542–597.

بحركات ترمي إلى استرجاع نفوذهم بإفريقية والمغرب الأوسط. فنهض صهر السلطان أبي الحسن، الأمير الفضل بن أبي يحيى الحفصي الذي كان قد أقرّه أبو الحسن المريني على بونة لما ملكها سنة 748 هـ، إلى قسنطينة وبجاية واستولى عليهما. وكان الفضل ساخطا على السلطان المريني لأنه كان يعتقد قبل ذلك أن هذا الأخير سيترك له عرش أسلافه بتونس، غير أنه لم يفعل شيئا من ذلك[65].

ومن بين الأمراء الزيانيين الذين أقرهم أبو الحسن المريني في مراتبهم وألحقهم بجنده، كان الأخوان أبو سعيد وأبو ثابت ابنا عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن قد غادرا صفوف الجيش المريني، وعقدا العزم على اغتنام الفرصة لمحاولة إحياء دولتهما. فالتف حولهما حوالي خمسمئة ممن كانوا بإفريقية من فرسان بني عبد الواد، وتوجها بهم، بعد نيل موافقة الحفصيين، نحو تلمسان. وكان الأمير أبو عنان المريني، لما شاع ذكر وفاة أبيه، قد غادر تلمسان إلى فاس، وترك على تلمسان عثمان أبا يحيى بن جرار، أحد فرسان بني عبد الواد من بني طاع الله، المنافسين للأسرة الزيانية في المُلك.

ومرّ الأميران أبو سعيد وأبو ثابت وجمعهما بجبل بني ثابت المصاقب لقسنطينة، ثم بناحية بجاية، فمنطقة شلف، والبطحاء. ولما وصلا إلى سكاك في ملتقي نهري الصفصيف ويسّر، شمال شرقي تلمسان، اعترضتهما فرقة أرسلها ابن جرّار، فهزمها الأميران، ودخلا تلمسان في 22 جمادى الأخيرة 749 هـ[66].

وبادر الأميران بتنظيم شؤون الدولة، واقتسما مراسم الملك وشاراته. فكان لأبي سعيد السرير والخطبة والسكة، ولأبي ثابت الألوية وقيادة الجيوش. وقد يكون هذا التنظيم السياسي الفريد من نوعه في تاريخ الدولة الزيانية راجعًا

65. انظر : نفسه، ج7، ص 575–577.

66. للمزيد من التفاصيل، انظر: نفسه، ص 238–244؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 234–237؛ أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 150–152.

إلى طبيعة الوضع السياسي آنذاك، حيث إن سلطة الأميرين أبي سعيد وأبي ثابت كانت لا تتجاوز ناحية مدينة تلمسان، وكان إحياء الدولة الزيانية يقتضي إعادة نفوذها على سائر مناطق المغرب الأوسط، وضرورة تجنب دواعي الفتنة الناجمة عن منافسة الأمراء الزيانيين على العرش، وبخاصة بين الأخوين أبي سعيد وأبي ثابت.

أما أبو عنان المريني، فإنه تظاهر بقبول الأمر الواقع، فلم يوجه عساكره للقضاء على حركة الأميرين الزيانيين بتلمسان، بل رأى أن يستفيد منها لتعزيز موقفه وأن يتحالف معهما على مواجهة أخيه الناصر، القادم من تونس إلى المغرب الأوسط لإقامة الدعوة لأبيه في مناطق حلفائه من توجين وحُصَيْن والعطاف والديالم وسُوَيْد، وإخضاع مغراوة وبني عبد الواد لطاعته، والقضاء على انتقاض أبي عنان بالمغرب الأقصى.

وبدأ الأمير أبو ثابت، في أواخر سنة 749 هـ، بقمع ثورة إبراهيم بن عبد الملك الكومي الذي دعا لنفسه بالساحل شمالي تلمسان. ففتح أبو ثابت مدينتي ندرومة وهنين، وقضى على هذه الثورة. ثم انطلق إلى حصار وهران، وكانت هذه المدينة تحت سلطة بني أجانا. غير أنه انهزم في المعركة التي دارت قرب وهران، بعد أن خذله بنو راشد، وانحازوا إلى جانب بني أجانا، وأفلت أبو ثابت من الهزيمة، ولحق بتلمسان.

وفي أول محرم سنة 750هـ بعث أبو عنان، لمؤازرة الأمير أبي ثابت في التصدي للناصر المريني، مددًا يشمل حملَيْن من الذهب وحصة من ستمئة فارس. فتوجه الأمير أبو ثابت بجيشه لمواجهة الناصر، «وراسل مغراوة في اللحاق به، بمقتضى شروطهم، فلم يجيبوا دعاءه»[67]. وواصل أبو ثابت سيره إلى وادي ورك، حيث لقي الناصر وحلفاءه، فانتصر عليهم.

67 يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 242؛ انظر أيضًا: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 246.

وعاد أبو ثابت إلى تلمسان «وقد توغّل على مغراوة صدره لتثبطهم عن مصارخته إياهم على عدوّ الجميع نقضًا للعهد»[68]. ثم نهض أبو ثابت إلى وهران، في جمادى الأولى سنة 750 هـ، وفتحها عنوة. وغزا مغراوة، في أواخر شوال، وهزمهم بوادي رهيو، وبايعت مازونة السلطان أبا سعيد.

وفي أوائل سنة 751 هـ، نزل أبو الحسن العريني مدينة الجزائر، عن طريق البحر، وانضم إليه سُوَيد بقيادة ونزمار بن عريف، وتجين برئاسة عَدّي بن يوسف. وأمام هذا الخطر، بعث أبو عنان حصة من بني مرين بقيادة يحيى بن رَحُو للمساهمة في التصدّي لأبي الحسن المريني. ونهض أبو ثابت إلى المناطق الشرقية، فصالح مغراوة، وصرف اهتمامه لمواجهة أبي الحسن المريني وحلفائه. ففتح المَديّة، وترك عليها عِمران بنْ موسى الحَبْنوني، ثم اقتحم بلاد قبيلة حُصَيْن بجبال تيطرّي، وفحص حمزة، وعاد إلى تلمسان. وفي طريقه إليها، لقيه مبعوث آخر من طرف أبي عنان بأمر إلقاء القبض على يحيى بن رَحُو بتهمة مباطنة السلطان أبي الحسن، وتعويضه بعيسى ابن سليمان، ومضى إلى تلمسان، فدخلها في سادس رجب سنة 751 هـ.

وفي تلك الأثناء، التحق الناصر بن أبي الحسن المريني بأبيه، مع حلفائه من تجين وعرب زغبة، وأغار على المناطق الشرقية، فاستولى على المدية، وقتل عاملها عِمْران بن موسى الحَبْنوني، وفتح مليانة. ونهض السلطان أبو الحسن مغرّبًا، بجموع حلفائه من تجين وسويد والديالم والعطاف وحُصَيْن وسليم ورياح. ثم زحف السلطان أبو الحسن بجيشه نحو بلاد مغراوة، وابنه الناصر يتقدمه، ففرّ علي بن راشد وقومه أمامهم إلى البطحاء، وأرسل إلى أبي ثابت ينبؤه بخبرهم، ويدعوه للاجتماع به والتصدي لهم.

68. يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 243؛ انظر أيضًا: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 246.

فتوجّه أبو ثابت إلى المنطقة الشرقية، بعد أن جمع ما استطاع من العساكر. وانضمّ إليه مغراوة، واتفق مع علي بن راشد المغراوي على أن يواجه هذا الأخير الناصر ومَن معه، وأن يتكفل أبو ثابت بأبي الحسن وجموعه. وكان لقاء الفريقين بتيعزيزن، من بلاد شلف، في 10 شعبان سنة 751 هـ. وانتهت المعركة بهزيمة السلطان أبي الحسن، ومقتل ابنه الناصر وعدد من أكابر خواصّه، واستبيح معسكره. ونجا أبو الحسن والشيخ ونزمار بن عريف إلى بلاد سويد، ثم توجها إلى سجلماسة، وعاد الأمير أبو ثابت إلى تلمسان، فدخلها في فاتح شوال سنة 15[69].

والجدير بالملاحظة أن هذا الانتصار أفاد بالدرجة الأولى الأمير أبا عنان، حيث إنه مكنه من تعزيز موقفه، ومن الصمود أمام تحرشات أبيه والتغلب عليه، وسهّل له تثبيت شرعية بيعته إثر وفاة والده في أواخر ربيع الثاني سنة 752 هـ. وكان من المنتظر أن يكون التحالف القائم بين أبي عنان المريني ومغراوة وبني عبد الواد، على أساس الانتماء الزناتي، عاملا رئيسيًا لتحسين العلاقات بينها، وجعلها مبنية على مبدإ المصلحة المشتركة، والتعاون من أجل توفير الأمن والرفاهية للشعوب، وتسخير الإمكانات لمواجهة خطر حركة الاسترداد الإسبانية في الأندلس، والاستعداد للتصدي لأي عدوان أجنبي على أقطار شمال إفريقيا.

والظاهر أن انتهاج هذا المبدأ السياسي المبني على نظرية وحدة الانتماء وخدمة المصلحة المشتركة، التي تتلاءم مع نظرية «العصبية» الخلدونية، كانت تتطلب وعيًا سياسيا لا نجد له أثرًا عند ساسة ذلك العصر في معظم الأقطار الإسلامية. وقد رأينا أن كثيرًا من الحروب التي خاضها بنو زيان كانت ناتجة عن أحداث لا تكتسي خطورة تقتضي رد فعل عسكري، كَرَدِّ شفاعة أو قتل شخص أو نقض عهد، وإنما كانت تتطلب إجراء مفاوضات وحوارًا بنّاءً، من أجل إيجادِ حَلٍّ مُرْضٍ للطرَفَيْن.

69. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 245–250 و 592–593، يحيى بنخلدون، المصدر السابق، ص 243–244، أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 152–153.

وفي تلك الأثناء، بلغ إلى تلمسان نبأ مقتل محمد بن عمر الجمّي، أحد خواصّ بني عبد الواد، بمازونة، من بلاد شلف، وكان مجتازًا بها قادمًا من تونس فقتله بعض الناس من مغراوة. وكان الأميران يُكنان لمغراوة بغضا وكرهًا كثيرًا لمَا سبق من تقاعدهم عن مصارختهما إياهم على الناصر بن أبي الحسن فاشتدّ غضبهما، وقرّرَا حشد العساكر للأخذ بالثأر. وفي فاتح محرم سنة 752 هـ، نهض الأمير أبو ثابت بجيش من بني عبد الواد وبني عامر وسويد، وتوجه إلى بلاد مغراوة، فتحصنوا في معقل أجرواو بالجبل المشرف على تنس، فحاصرهم مدة دون جدوى، ثم ارتحل عنهم مشرّقا، فاستولى على برشك وشرشال ومليانة والمدية، وأطاعته حصين، ثم توغل في ناحية متيجة، فأخضع الثعالبة ومليكش، وأخذ مدينة الجزائر من عبد الله بن أبي الحسن المريني وكافله علي بن سعيد بن أجانا، وولى عليها سعيد بن موسى بن علي الكردي.

وفي ربيع الثاني سنة 752 هـ، صرف حلفاءه العرب إلى مشاتيهم، وعاد إلى الجبل المُطل على تنس، فحاصر مغراوة بالمعقل الذي تحصنوا فيه. وأطال الحصار، فاستنجد علي بن راشد المغراوي بالسلطان أبي عنان المريني. فبعث هذا الأخير رسالة إلى الأمير أبي ثابت أخبره فيها بوفاة أبيه، وشفع فيها لعلي بن راشد وقومه، طالبًا الإبقاء عليهم.

والظاهر أن رسالة أبي عنان تندرج في إطار الاتجاه السياسي الذي انتهجه الملوك المرينيون منذ نشأة دولتهم، والمتمثل في التحالف مع مغراوة، والحرص على بقاء إمارتهم، والعمل على عرقلة جهود الزيانيين الرامية إلى الاستيلاء على المناطق الشرقية بالمغرب الأوسط. ولا يستبعَد أن يكون الغرض من هذه الرسالة وضع السلطة الزيانية بين خيارين، إما قبول الشفاعة والتراجع عن الاستيلاء على بلاد مغراوة بمنطقة شلف، وإما ردُّ الشفاعة وفسخ عقد التحالف والتعرض لغضب أبي عنان ومواجهة غارات عساكره.

ويبدو أن الأمير أبا ثابت تفطّن لما كانت هذه الرسالة تحمله من أهداف، و لما كانت تتضمنه من تهديد ونوايا عدائية في حالة ردّ الشفاعة. وقد يكون ارتأى أن قبولها لم يكن في صالح الدولة الزيانية، إذ أنه يمنعها من استرجاع قوتها، ولا يسمح لها بالاستعداد للدفاع عن أراضيها إذا ما تأزمت العلاقات بين الدولتين. فكان من الحزم أن يقضي على إمارة مغراوة، ويواصل استرجاع سائر المناطق الشرقية، والوقوف أمام ما قد يخطر ببال أبي عنان من أطماع في اتجاه الدولة الزيانية.

ويمكن الاعتقاد أن هذه الاعتبارات جعلت الأمير أبا ثابت يردُّ شفاعة أبي عنان، ويتابع عمليته من أجل استكمال بسط نفوذه على سائر أنحاء المغرب الأوسط، واسترجاع قوة الدولة الزيانية، وجعلها قادرة على الدفاع عن أراضيها والصمود أمام هجوم عساكر المرينيين. فاشتدّ الحصار على مغراوة، وضعف أمر علي بن راشد بعد أن انصرف عنه حلفاؤه العرب، ففرّ إلى تنس واعتصم بها. وحاصره أبو ثابت أيامًا، ثم اقتحم المدينة، وفتحها عنوة في 16 شعبان سنة 752 هـ، وألقى القبض على علي بن راشد المغراوي، فأمر بسجنه، ولم يرض هذا الأخير بمذلة الأسر والهزيمة، فذبح نفسه بيده، وانتهت بموته إمارة مغراوة. ورجع أبو ثابت إلى تلمسان بعد أن ضمّ إلى جنده كثيرًا من رجال مغراوة، فوصلها في 18 رمضان سنة 752 هـ[70].

ولما وصل نبأ موت علي بن راشد إلى السلطان أبي عنان، غضب لما وقع من ردّ شفاعته، وعزم على غزو تلمسان، وأخذ يستنفر الحشود من سائر أنحاء المغرب الأقصى. وبلغ خبر ذلك إلى السلطان أبي سعيد وأخيه أبي ثابت، فقرّرا الاستعداد لمواجهة حركة أبي عنان. وخرج الأمير أبو ثابت، في 15 ذي القعدة سنة 752 هـ، إلى وادي شلف، وبثّ دعاته في المناطق الشرقية لاستنفار جموع زناتة والعرب.

70. حول هذه الأحداث، انظر : عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 250-251؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص244-245؛ أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 153.

وكان أغلب سويد قد لحقوا بشيخهم عريف بن يحيى، حليف أبي عنان. وفي أول ربيع الأول سنة 753 هـ، بلغه نبأ بيعة مدينة تدلس وفتحها على يد جابر الخراساني، فكان لهذا الانتصار على الحفصيين أثر في رفع معنويات الأمير أبي ثابت وأخيه السلطان أبي سعيد.

وفي تلك الأثناء، وصل نبأ زحف أبي عنان المريني بعساكره مشرّقًا، فعاد أبو ثابت مسرعًا إلى تلمسان، ودخلها في 13 ربيع الثاني سنة 753 هـ. واجتمع الأخوان أبو سعيد وأبو ثابت بخواصّ بني عبد الواد، وتشاوروا في الأمر، فوقع اتفاقهم على التوجه بالعساكر إلى سهل أنجاد للقاء السلطان أبي عنان وجموعه. والظاهر أن هذا الاتفاق يعبّر عن تخوّف الزيانيين من ضرب حصار مريني آخر حول تلمسان، ومن خطر اقتحامها واحتلالها عنوة، وما قد ينجم عن ذلك من قتل وأسر وسبي ونهب وتخريب، ويعني تفضيل الخروج للتصدي لجموع أبي عنان قبل وصولها إلى تلمسان، فإما الانتصار عليها وإفشال حركة السلطان المريني، وإما الانهزام وإمكانية النجاة إلى مدينة تلمسان أو غيرها من مدن المغرب الأوسط.

فنهض الأمير أبو ثابت مغرّبًا، في 22 ربيع الثاني سنة 753 هـ، بما كان معه من بني عبد الواد وحلفائهم. وفي فاتح جمادى الأولى، تلاه أخوه السلطان أبو سعيد فيما بقي من عساكر زناتة وعرب بني عامر كافة، وأقاما معسكرهما بوادي إيسلي. وزحف أبو عنان المريني في جموع من زناتة والمصامدة وعرب المعقل وسويد، وعسكر بوادي القصب من سهل أنجاد. وأجمع بنو عبد الواد على مباغتة الجيش المريني وقت القائلة، في ثامن جمادى الأولى، فكان اللقاء شديد العنف، وانتهت المعركة بهزيمة بني عبد الواد بعد أن تراجع بنو عامر عن القتال. وقبض على السلطان أبي سعيد، في 11 جمادى الأولى، فأمر أبو عنان بقتله، وعاد إلى تلمسان، بينما نجا أبو ثابت ومن بقي معه من بني عبد الواد إلى تلمسان، ثم غادروها متوجهين إلى المناطق الشرقية، مصممين على مواصلة الحرب بها. واعترضهم علي بن راشد المغراوي في قومه بشلف،

فلم يثنهم عن سيرهم، وبسهل متيجة تحصّن منهم الثعالبة في جبل بني أبي خليل، بدعوة السلطان أبي عنان المريني. وفي تلك الأثناء، قدم ونزمار بن عريف السويدي في قومه، قاصدًا مطاردة الأمير أبي ثابت وأتباعه، فأغار هذا الأخير على الثعالبة، ثم قصد إلى مواجهة ونزمار بن عريف وقومه، فلم يقدم هؤلاء على لقائه، ولاذوا بالفرار. وعندئذ، جمع أبو ثابت مغراوة وكافة شِيَعهم الشرقية، وغَرّب قاصدًا عدوّه[71].

وكان أبو عنان قد أنهض وزيره فارس بن ميمون بن وادرار بجيش من بني مرين وحلفائهم من زناتة والعرب، للقضاء على الأمير أبي ثابت وإخضاع مَن كانوا يؤيدون حركته من بني عبد الواد. فلم يُحْجِمْ أبو ثابت عن لقاء الجيش المريني، بل أقدم عليه وتمّ اللقاء بإغيل ان توفلين من وادي شلف، في 21 رجب، فلم يُبَالِ الأمير أبو ثابت ورفاقه بكثرة عساكر الوزير المريني، وحمي الوطيس، «واحترب الفريقان مليا بما أشاب الوليد... فضرب ونزمار بن عريف بالعرب كافة عرض بني عبد الواد فردّهم على الأعقاب، فانهزموا»[72].

وأفلت أبو ثابت من المعركة مع جماعة من قومه، فلحق بمدينة الجزائر، وعاجله العدوُّ، فتوجه في جماعة قليلة من الأوفياء نحو الشرق، ومرُّوا بناحية تدلس فتعرّض لهم عجيسة من زواوة، بوادي نسَة، فاقتلع جميعهم، وانفرد أبو ثابت عن رجاله، ولم يَبْقَ معه إلا نفر قليل، منهم أبو زيان ابن أخيه أبي سعيد، وأبو حمو موسى ابن أخيه يوسف، والوزير يحيى بن داود بن علي بن مجن. وعندئذ أدرك أبو ثابت ورفاقه أن لا سبيل لمقاومة العدو، ولم يبق لهم إلا طلب النجاة إلى بلاد الحفصيين.

71. حول هذه الأحداث، انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 252–253 و ص 598–599؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 245–246؛ أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 153–154.

72. انظر: يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ص 246؛ أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 154–155.

وكان السلطان أبو عنان المريني قد أرسل إلى أبي عبد الله محمد بن يحيى بن أبي يحيى الحفصي راجيًا منه بَثّ العيون في طلبهم، فعثر عليهم بليزُو قرب بجاية، فخرج بهم الأمير أبو عبد الله متوجهًا نحو الغرب، ولقي السلطان أبا عنان في معسكره بظاهر المَدِيّة، فسلم له الأمير أبا ثابت ووزيره يحيى بن داود، فأودعهما السجن. وهناك قدم وفد الدواودة، فأكرمهم وأجزل العطاء من ثياب فاخرة ومال كثير، ووردت إليه بيعة عامل الزاب ابن مزني فأكرمهم ووصلهم. ثم عيّن العمّال في مناطق المغرب الأوسط، وعاد إلى تلمسان وهو يحمل في موكبه الأمير أبا ثابت ووزيره أسيرين، وبها أمر في 13 رمضان 753 هـ، بقتلهما قعصًا بالرماح[73]، واسترجع بنو مرين مُلك المغرب الأوسط. فكانت حركة الأميرين أبي سعيد وأخيه أبي ثابت، التي دامت حوالي أربع سنوات، بمثابة محاولة جريئة، لم يكتب لها النجاح. غير أنها تعبِّر أصدق تعبير عن حدّة التنافس القائم بين بني عبد الواد وبني مرين على زعامة زناتة، وتنبئ بتناقص قوّة الفصيلتين الزناتيتين، وعجزهما عن توحيد بلاد المغرب العربي، و التصدّي لحركة الاسترداد الأسبانية بالأندلس.

ويبدو أن حُلم توحيد أقطار المغرب الإسلامي، الذي كان حقيقة في عهد عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين، راود أبا عنان المريني بعد استيلائه على المغرب الأوسط. وذلك أنه اغتنم فرصة لقائه بأبي عبد الله الحفصي بالمدية، فأشار عليه بالتنازل عن إمارة بجاية مع تعويضه عنها بما شاء من بلاده، فما كان من الأمير أبي عبد الله إلا قبول هذا الاقتراح، تخوُّفًا من سوء عاقبة رفضه تلبية هذا الطلب، وتفضيلاً للحفاظ على العلاقات الطيبة التي كانت تربط بينهما، ونيل ما أمكن من الإقطاعات والامتيازات التي وعده بها السلطان المريني.

---

73. انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 253-254 و599-602؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 246-247؛ أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 154-156.

«وأمره السلطان أن يكتب بخطه إلى عامله على البلد بالنزول عنها وتمكين عمّال السلطان منها، ففعل، وعقد السلطان عليها لعمر بن علي الوطاسي»[74].

وبعد تنظيم شؤون المغرب الأوسط، والاستيلاء على إمارة بجاية، غادر أبو عنان معسكره بالمدية، وعاد إلى تلمسان في أوائل رمضان 753 هـ، وبها أمر بقتل الأمير أبي ثابت ووزيره، وأنزل «الأمير أبا عبد الله صاحب بجاية خير نزل، وفرش له في مجلسه تكرمة به»[75]، ثم احتفل في تلمسان بعيد الفطر، وأطال الإقامة بها، حيث إن اهتمامه بشؤون إفريقية كان يتطلب الاقتراب منها لمعالجة القضايا العاجلة.

ففي فاتح شهر ذي الحجة 753 هـ، ثار جماعة من أهل بجاية ينتمون إلى قبيلة صنهاجة ضد الحكم المريني، فقتلوا العامل عمر بن علي الوطاسي، وأقاموا الدعوة لأبي زيد الحفصي أمير قسنطينة. فاتهم السلطان أبو عنان الأمير أبا عبد الله الحفصي واعتقله. وأجمع مشيخة أهل بجاية على استنكار ثورة صنهاجة هذه، والتمسك بالبيعة للسلطان المريني، وراسلوه معبّرين عن وفائهم وطاعتهم. فحشد أبو عنان جيشًا من خمسة آلاف فارس بقيادة حاجبه أبي عبد الله محمد بن محمد بن أبي عمرو التميمي، وبعثه من تلمسان، بعد الاحتفال بعيد الأضحى، إلى بجاية. ولما اقترب منها، فرّ المتآمرون من صنهاجة، ولحقوا بقسنطينة، ثم توجهوا إلى تونس. ودخل الحاجب ابن أبي عمرو بالجيش إلى بجاية في أوائل محرم سنة 754 هـ، واحتل بقصبتها، فأعاد الأمن والسكينة بالمدينة، وأحسن إلى الأوفياء من خواصّ أهلها.

وفي أوائل ربيع الثاني قدمت وفود الدواودة إلى بجاية، معربين عن ولائهم، فأكرمهم الحاجب، واقتضى رهائن منهم على الطاعة. وأجزل الصلات ليوسف بن منصور بن مزني أمير الزاب، ثم توجّه هذا الأخير، في أول جمادى الآخرة، إلى تلمسان، رفقة يعقوب بن علي أمير البدو الدواودة ومَن معه من قومه، «فجلس السلطان للوفد، واعترض ما جنب له من الجياد والهدية...

74. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 601.

75. نفسه، ج7، ص 603.

ثم أسنى السلطان جوائز الوفد، واختصّ يوسف بن مزني ويعقوب بن علي بمزيد من البرّ والصّلة وخصوصيات من الكرامة، وائتمرهم في شأن إفريقية ومنازلة قسنطينة، وانصرفوا إلى مواطنهم لأول شعبان من سنة أربع وخمسين»[76].

ويلاحظ في هذا الصدد أن ما حدث من اتصالات وعلاقات وثيقة بين السلطان أبي عنان ويوسف بن مزني أمير الزاب وممثل الدواودة، إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على انعقاد تحالف بين طرفَيْن لكل واحد منهما مصالح وأهداف يسعى إلى تحقيقها. فكان الدواودة يهدفون إلى الحفاظ على مكانتهم بمناطق جنوب إفريقية، ويطمحون في المزيد من الإقطاعات، شأنهم في ذلك شأنُ غيرهم من قبائل العرب القوية مثل رياح وسليم وسويد وبني عامر. فكانت بيعة الدواودة والتزامهم بالطاعة للسلطان أبي عنان المريني تهدف بالدرجة الأولى إلى تفادي عدائه، وتنمّ عن اعتقادهم بانتصاره على السلطان الحفصي، وعن أملهم في الحظوة عنده ونيل ما أمكن من الامتيازات. أما السلطان أبو عنان المريني، فإنه كان، بعد أن «استضاف إلى مُلكه مُلكَ تلمسان، ومحا ما جدّدَه بنو عبد الواد من رسوم مُلكهم، وجمع كلمة زناتة»[77]، يخطط في مواصلة جهود أبيه الرامية إلى توحيد أقطار المغرب تحت سلطته، بالاستيلاء على باقي بلاد إفريقية. ومما يدل على تطلع أبي عنان إلى فتح إفريقية ما أبداه من حفاوة الاستقبال لأمير الزاب وأمير الدواودة، والتفاوض معهما« في شأن إفريقية ومنازلة قسنطينة»، وعقده «ليوسف بن مزني على الزاب وماوراءه من بلاد ريغة و واركلى»[78]، وتعيينه لحاجبه ابن أبي عمرو التميمي على بجاية، في شعبان 754 هـ، مع إسناد مهمة حرب قسنطينة إليه.

وكان السلطان الحفصي قد نصب الأمير تاشفين ابن السلطان أبي الحسن منافسًا لأبي عنان على العرش «لتفريق كلمة بني مرين»، وأرسل معه العساكر

76. نفسه، ج7، ص 605.

77. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 925.

78. نفسه.

إلى قسنطينة، فنهض الحاجب ابن أبي عمرو من بجاية، لإخضاع الثائرين، وبعث أبو زيد الحفصي أمير قسنطينة الحاجب نبيل بالعساكر، ومعه ميمون بن علي وشيعته من الدواودة، للقاء جيش الحاجب ابن أبي عمرو، فهزمهم هذا الأخير في جمادى الأولى 755 هـ، «ونازل قسنطينة حتى تفادوا منه بتمكينه من تاشفين ابن السلطان أبي الحسن المنصوب للأمر، فاقتادوه إليه وأشخصه إلى أخيه السلطان، وأوفد المولى أبو زيد ابنه على السلطان أبي عنان، فتقبل وفادته وشكر مراجعته، وانكفأ الحاجب ابن أبي عمرو إلى بجاية، وأقام بها إلى أن هلك في المحرم فاتح سنة ست وخمسين (وسبعمائة)»[79]، فدُفِنَ في مقبرة أبيه بتلمسان.

ويبدو أن عقد السلم الذي تم بين ابن أبي عمرو وأبي زيد الحفصي، ورفع بمقتضاه حصار المدينة، لم يثن من عزيمة السلطان أبي عنان في شأن بسط سلطته على سائر أنحاء إفريقية. فولى وزيره عبد الله بن علي بن سعيد على بجاية وما وراءها من بلاد إفريقية، إثر وفاة الحاجب ابن أبي عمرو، وتوجّه إليها في ربيع الأول من سنة 756 هـ واستقرّ بها. وفي سنة 757 هـ، أمر أبو عنان وزيره عبد الله بن علي بمنازلة قسنطينة، فنهض إليها وضيّقَ الحصار حولها، غير أن نبأ وفاة السلطان المريني انتشر في المنطقة، فأفرج الوزير عنها. وغادر الأمير أبو زيد الحفصي قسنطينة متوجهًا إلى تونس، وعازمًا على منازلتها، واستخلف أخاه أبا العباس على قسنطينة.

ثم عزل أبو عنان وزيره عبد الله بن علي، وعيّن مكانه شعيب بن ميمون. وبعد الاحتفال بعيد الأضحى، أخذ يستعدُ للنهوض إلى إفريقية. فأقام معسكره خارج فاس الجديد، واستجاش الجنود، وارتحل في شهر ربيع الأول من سنة 758 هـ إلى بجاية.

79. نفسه، ج7، ص 606–609؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص 132.

وتوجّه الوزير بمقدمة الجيش إلى قسنطينة، وضرب الحصار حولها. ثم قدم السلطان أبو عنان بباقي العساكر، فأحجم أهلها عن قتاله، وأذعنوا لطاعته، وطلب الأمير الحفصي الأمان، فبذله أبو عنان له، ثم بعثه في الأسطول إلى سبتة، فاعتقله بها. وولّى منصور بن الحاج مخلوف الياباني، من مشيخة بني مرين، على قسنطينة، في شعبان من سنة 758 هـ.

وقدم إلى معسكره بساحة قسنطينة لبيعته وفود توزر ونفطة وأولاد مهلهل أمراء الكعوب، واستحثه هؤلاء لفتح تونس، فوافقهم على ذلك، وبعث معهم العساكر برئاسة يحيى ابن رَحّو بن تاشفين، وأرسل أسطوله مددًا لهم برئاسة محمد بن يوسف الأبكم. فغادر السلطان الحفصي أبو إسحاق إبراهيم بن أبي يحيى وحاجبه ابن تافراجين تونس، مع العساكر والحلفاء من أولاد مهلهل، ولجؤوا إلى المهدية، وتحصنوا بها. واستولى الجيش المريني على تونس في شهر رمضان سنة 758 هـ. فاستقرّ يحيى بن رَحُو بقصبتها، وأقام بها دعوة السلطان أبي عنان[80].

والظاهر أن هذا الأخير تفطّن لخطورة الوضع الاجتماعي بإفريقية، حيث إن معظم قبائل العرب كانت قد خرجت عن طاعة السلطان الحفصي، ولم يقف بجانبه إلا أولاد مهلهل، ولم يَغِبْ عنه أن والده انهزم بالقيروان أمام عرب رياح، فارتأى ضرورة الحدّ من سطوتهم، وإخضاعهم لسلطته بكل ما يتطلبه ذلك من الوسائل، ليَأمَنَ من شرّهم، «وقبض أيدي العرب من رياح عن الإتاوة التي يسمونها الخفارة، فارتابوا، وطالبهم بالرهن، فأجمعوا على الخلاف، وأرهف لهم حدّه، وتبيّن يعقوب بن علي أميرهم مَكرَهُ، فخرج معهم ولحقوا جميعًا بالزاب، وارتحل في أثرهم»[81].

---

80 انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 840–842، وج7، ص 615–618

81 نفسه، ج6، ص 843، وج7، ص 618.

وهكذا، فقد أبو عنان ولاء يعقوب بن علي أمير الدواودة، وغيره من عرب إفريقية، ولم يجد آنذاك من الحلفاء الأوفياء إلا يوسف بن مزني أمير الزاب، فسار معه في مطاردة المخالفين إلى بسكرة، ثم طولقة، وخرّبَ حصونَ يعقوب بن علي، فلجؤوا إلى الصحراء، وتبعهم إلى فحص تبسّة، ثم رجع عنهم وتوجّهَ إلى قسنطينة، بعد أن كافأ ابن مُزْني أمير الزاب على مساعدته ووفائه. وعزم على الارتحال إلى تونس لاستكمال الاستيلاء على إفريقية، والقضاء على مقاومة السلطان أبي إسحاق والحاجب ابن تافراجين. غير أن الجنود رفضوا البقاء بإفريقية خشية أن يصيبهم بها ما أصابهم من قبل، ووافقهم الوزير فارس بن ميمون على العودة إلى المغرب، فانفضّ أغلبهم من حول أبي عنان، واضطرّ إلى الأمر بالعودة إلى عاصمة دولته فاس، فدخلها في فاتح ذي الحجة من سنة 758 هـ[82].

وكان لرجوع أبي عنان إلى بلاده، دون أن يحقق الأهداف التي رسمها لحركته إلى إفريقية، ودون أن تنهزم عساكره، أثر بالغ في نفسه. ونمي الخبر إليه، عندما رفض الجنود البقاء بإفريقية، أن الوزير فارس بن ميمون وغيره من مشيخة بني مرين قد تشاوروا في شأن قتله. فلما وصل إلى فاس، أمر بإلقاء القبض على فارس بن ميمون، وقتله. وألقي القبض على مشيخة بني مرين، فقتل بعضهم وأودع بعضهم السجن. وخشيَ على ضواحي ناحية قسنطينة من استيلاء يعقوب بن علي ومَنْ معه من الدواودة المخالفين عليها. فاستقدم سليمان بن داود من ثغور الأندلس، وأسند إليه منصب الوزارة، وأرسله في العساكر إلى إفريقية، فتوجّه إليها في ربيع الأول من سنة 759 هـ، وأقام معسكره بضاحية قسنطينة. وتوجّه السلطان إلى تلمسان، لتتبُّع الأحوال منها، وأرسل إلى يوسف بن مزني أمير الزاب في شأن مساندته في أحوال الدواودة، فقدم إليه من بسكرة، ورافقه في الحركة لمنازلة جبل أوراس، واقتضاء الجباية والمغارم من أهله، ومطاردة المخالفين من الدواودة.

82. نفسه، ج6، ص 843، و ج7، ص 618–619.

ثم عاد الوزير سليمان بن داود مغرّبًا، فلحق بالسلطان بتلمسان، وقدمت معه وفود الأوفياء من الدواودة، فأكرمهم أبو عنان، وفرض لهم العطاء بالزاب، وصرفهم إلى بلادهم. ووفد أحمد ابن مزني، ولد أمير الزاب «بهديته إلى السلطان من الخيل والرقيق والدرق، فتقبلها السلطان وأكرم وفادته وأنزله، واستصحبه إلى فاس ليريه أحوال كرامته، ويستبلغ في الاحتفاء به، واحتل بدار ملكه منتصف ذي القعدة من سنة تسع وخمسين (وسبعمئة)»[83].

وفي يوم عيد الأضحى، إثر صلاة العيد، أصيب أبو عنان بمرض منعه من القيام بوظائفه، واشتدّ به المرض فتوفي، ودفن في 27 من ذي الحجة سنة 759 هـ / 5 ديسمبر 1358 م. وقام الوزير الحسن بن عمر الفودودي بتنصيب السعيد، أحد أبناء أبي عنان، على العرش، وكان طفلاً في الخامسة من عمره. فاستبدّ الوزير بالأمر، وسعى إلى إبعاد خطر منافسة أبناء أبي عنان الآخرين، الأمر الذي شغله آنذاك عن معالجة شؤون بلاد إفريقية والمغرب الأوسط[84].

وقد تطوّرت الأوضاع السياسية بإفريقية بعد فشل حركة السلطان أبي عنان إليها وعودته إلى المغرب. وذلك أن الحاجب أبا محمد ابن تافراجين غادر المهدية قاصدًا منازلة تونس، فلما أشرف عليها ثار أهلها بالعامل المريني ومن كان معه من الجند، فنجا هؤلاء إلى الأسطول، ودخل الحاجب ابن تافراجين إلى تونس، ثم لحق به السلطان أبو إسحاق الحفصي، وأعاد مراسيم الملك بها. وفي تلك الأثناء، توجّه الأمير أبو زيد الحفصي بالجنود إلى قسنطينه، قاصدًا إجلاء بني مرين عنها، فنازلها أيامًا، وامتنعت عليه، فرجع إلى تونس. ومن جهة أخرى، فإن الأمراء الدواودة من رياح، الذين بقوا على ولائهم للحفصيين، عادوا من الصحراء بعد رجوع أبي عنان عنهم، والتحق بهم سقير بن عامر مع جماعة من قبيلة بني عامر. وكان هؤلاء قد امتنعوا من مبايعة السلطان أبي عنان، وغادروا أراضيهم بالمغرب الأوسط إثر الغزو المريني لتلمسان،

83 عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ص 621.

84 حول هذه الأحداث، انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 621–623.

سنة 753 هـ، والتجؤوا إلى إفريقية حيث اتصلوا بيعقوب بن علي من قبيلة رياح حلفاء السلطان الحفصي. وارتأى هؤلاء أن ينتهزوا فرصة فشل عساكر أبي عنان للقيام بهجمات على بقايا الجيش المريني بمناطق جنوب إفريقية والمغرب الأوسط، ليحصل للسلطان أبي عنان انشغال عن الحفصيين. فطلبوا من الحاجب ابن تافراجين أن يؤيد حركتهم، وأن يدعِّمها بأحد أمراء بني زيان، أبي حمُّو موسى بن يوسف، مع تجهيزه ببعض شارات المُلك. فأصلح الحاجب شأنه ودفعه، مع بعض الأوفياء من بني عبد الواد، إلى مصاحبة سقير بن عامر وقومه وعثمان بن سبَّاع وأتباعه من الدواودة، ونهضوا بجموعهم يريدون تلمسان، وأخذوا على القفر، ولقيهم أثناء طريقهم الخبر عن مهلك السلطان أبي عنان، فقويت عزائمهم على ارتجاع مُلكهم»[85].

ويتضح من هذا أن هذه الحركة كانت تهدف، بادئ ذي بدء، إلى شنِّ الغارات على حاميات بني مرين وحلفائهم في بعض مناطق جنوب إفريقية والمغرب الأوسط، ثم تحولت، بعد وفاة أبي عنان، إلى محاولة استرجاع ملك بني عبد الواد. والجدير بالملاحظة أن الدور الرئيسي كان فيها للعرب الهلاليين، بينما كانت أغلب العناصر التي اعتمد عليها السلطان أبو سعيد الزياني وأخوه أبو ثابت، سنة 753 هـ، تنتمي إلى قبائل زناتية من بني عبد الواد وبني توجين وبني راشد، مما يشكل تحوُّلًا هاما في انتماء «العصبية» التي يعتمد عليها السلطان.

وكان أبو حمُّو قد رافق الدواودة في تنقلاتهم عبر جنوب إفريقية عندما كانت عساكر أبي عنان تطاردهم، ثم بعد رجوع السلطان المريني عنهم، فتوجَّه معهم إلى ناحية وارقلة، ثم إلى جبل مصاب، فوادي زرقون، واعترضتهم سُوَيْد من حلفاء بني مرين بوادي ملال، فانتصروا عليها، وواصلوا مسيرتهم نحو سَبْخَة كبود. وفي تلك الأثناء، بلغهم، في سادس شهر محرم سنة 760هـ، خبر وفاة السلطان أبي عنان، فاستبشروا خيرًا،

85. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 255.

وعزم الدواودة على العودة إلى أراضيهم، ثم الالتحاق بالسلطان أبي إسحاق الحفصي بتونس، لمساعدته على استرجاع بجاية من أيدي بني مرين[86].

أما أبو حمُّو ورفاقه من بني عبد الواد وبني عامر، فإنهم واصلوا مسيرتهم، وقطعوا سبخة كبود في فاتح صفر 760 هـ ثم نفذوا إلى التلّ من ثنية فرتون، وارتحلوا إلى عين الحجر شرقي وادي يَسّر، من روافد وادي تافنا، وعبروا الوادي، ثم توجّهوا نحو تلمسان. ولما قربوا منها، تصدّت لهم الحامية المرينية بوادي الصفصيف، على مسافة 5 كلم من المدينة، فانتصروا عليها وولت منهزمة، واعتصمت بتلمسان (25 صفر 760 هـ).

ثم أقبل على أبي حمو بعض أهالي تلمسان، فأخبروه عن عوراتها ومخادعها، وأشاروا عليه باقتحامها من جهة أجادير. فأمر ابنَ برغوث بالتوجه نحو أجادير، عن طريق باب العقبة الواقع شرقي المدينة، على رأس بني عبد الواد وغيرهم من الزناتيين، بينما سار أبو حمو بالعرب من بني عامر نحو باب كشوطة في الجهة الغربية منها. وكانت هذه الخطة تهدف إلى شغل معظم الحامية المرينية، التي كان عدد جنودها لا يقلُّ عن ثلاثة آلاف رجل، في الجهة الغربية، ليتسنى لابن برغوث ورفاقه اقتحام المدينة من الجهة الشرقية بأجادير. فنجحت هذه الخطة، وانتهى الأمر باستسلام الحامية المرينية، واستيلاء أبي حمو وأنصاره على تلمسان، محققا آماله وآمال قبيلته وأهالي بلاده في الخلاص من الاحتلال المريني، وإحياء الدولة الزيانية، والجلوس على العرش الزياني (فاتح ربيع الأول سنة 760 هـ)[87].

86. انظر: مؤلف مجهول، زهر البستان (مخطوط)، ورقة 8ظ-9و؛ عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 626-627؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 22-24؛ عبد الحميد حاجيات، أبو حمو موسى الزياني حياته وآثاره، ص 83-87.

87. للمزيد من التفاصيل حول هذه الأحداث، انظر: زهر البستان، ورقة 12ظ؛ عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 255-256؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 24-30؛ أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 158-159؛ عبد الحميد حاجيات، المرجع السابق، ص 87-91.

4. المغرب الأوسط في عهد أبي حمُو الثاني

لما استولى أبو حمُو على تلمسان، استسلمت الحامية المرينية، وبايعه الأمير محمد ابن السلطان أبي عنان وكافله يغمراسن بن عثمان وأخوه عمر وغيرهم من أعيان المرينيين، واستقرّ في قصر الملوك الزيانيين. وكان إحياء الدولة الزيانية يتطلب مجهودات كبرى. وذلك أن المرينيين وحلفاءهم كانوا لا يزالون يحتلون وهران ومليانة والجزائر والمَدية وكثيرًا من نواحي المغرب الأوسط. وكان بيت المال في أسوإ حال، حيث إن أغلب المناطق كانت خارجة عن سلطة أبي حمو ولا تدفع شيئا من الجباية. ثم إن أبا حمو كان مضطرا إلى مكافأة أنصاره وحلفائه من بني عامر وغيرهم، فوزّع عليهم ما وجده في بيت المال، وأركبهم الخيل التي أخذها من فرسان بني مرين عند استسلامهم، وأقطعهم الأراضي. ثم حلّ عيد ذكرى المولد النبوي، فاستدعى للاحتفال به العلماء والشعراء والوجهاء والموظفين ونقباء الحرف، وأنشدت الأشعار لتمجيد المولد الشريف ومدح السلطان. وصار بعد ذلك الاحتفال بالمولد النبوي عيدًا يعنى أبو حمو بإحياء ليلته كلما كان حاضرًا بعاصمته[88].

وبعد أيام قليلة، وردت إليه بيعة وجدة وندرومة وهنين، وقدمت وفود مستغانيم وتمزغران والبطحاء وقلعة هوارة. أما المدن الأخرى فكانت أغلبها تحت سلطة بني مرين. وشرع أبو حمو بمحاولة لاسترجاع مدينة وهران، فأرسل وزيره ابن برغوث بجيش، في 28 ربيع الأول، فنازل وهران أيامًا، وفي 8 ربيع الثاني، فوجئ بخروج الحامية المرينية، فانفضّ الناس من حوله، فقبض عليه، وانهزم مَن بقي معه[89]. فكان لهذا الخبر صدى عميق بفاس.

88. انظر: زهر البستان، ورقة 15و–18ظ؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 40–49

89. انظر: يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 50؛ عبد الحميد حاجيات، المرجع السابق، ص93–94.

وعندئذ قام الوزير المريني بجمع العساكر، وبعثها بقيادة مسعود بن عبد الرحمن بن ماساي نحو تلمسان قصد الاستيلاء عليها وإعادتها تحت سلطة الدولة المرينية. ولما قرب الجيش المريني من العاصمة الزيانية، رأى السلطان أبو حمُو أن يغادرها، لقلة ما كان لديه من الجنود، ولحق بقبيلة بني عامر بالجنوب، في أوائل جمادى الأولى 760 هـ. وبعد ذلك بأيام قليلة، دخل ابن ماساي تلمسان، وأعاد بها السلطة المرينية.

أما أبو حمُو، فإنه توجه نحو الجنوب، وفي دَرَج لقي بني عامر، ثم أقام معسكره بتاملحت، وبعث إلى حلفائه المعقل، طالبًا منهم أن يشنوا الغارات على بني مرين، وأن يقطعوا الطريق التي تصل بين فاس وتلمسان. ونفذ المعقل هذا الأمر، فكان ردُّ فعل ابن ماساي أن بعث جيشا بقيادة ابن عمه عامر بن عبد الله بن ماساي، قائد الحامية المرينية بوهران. فلقي المعقل، وانهزم بنو مرين، وقتل القائدُ المريني، وعادت عساكره في أسوَإ حال إلى وجْدَة.

وكان لهذه الهزيمة وقع سَيِّئ على مَن كان بتلمسان من بني مرين، فشقُّوا عصا الطاعة، وأعلنوا خلع السعيد، واختلفت آراؤهم حول تعيين خلف له على العرش المريني، وظهر ما كانوا يخفونه من كره للحاجب الحسن بن عمر لاستبداده وتغلبه على الدولة. وذهب بعضهم إلى تنصيب يعيش بن أبي زيان بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني، «وفطن الوزير مسعود بن رحو لما دبروه، وكان في قلبه مرض من ذلك فاغتنمها، وبايع لمنصور بن سليمان بن منصور بن عبد الواحد بن يعقوب بن عبد الحق كبير الأعياص المنفرد بالتجلة، وارتحل به وبقومه من بني مرين إلى المغرب، وتجافى عن تلمسان وشأنها»[90]، ورأى منصور بن سليمان مسالمة أبي حمو، فوقع عقد صلح معه، وبعثه إليه مع أبيَ زكرياء يحيى بن موسى الجمّي. فأسرع أبو حمو إلى تلمسان، ودخلها في فاتح جمادى الآخرة سنة 760 هـ.

[90] عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 257.

ولما حلّ منصور بن سليمان بفاس البالي، وجد بها أبا يعقوب يوسف والد السلطان أبي حمو، وأبا تاشفين ابنه، فبعثهما إليه تقمُّنًا في مسرّته، فوصلا إلى تلمسان في 7 رجب، فاستعان بأبيه في مواصلة الجهود لإجلاء بني مريني عن المناطق الشرقية[91]. ونهض أبو يعقوب، والد أبي حمُو بالعساكر، في 4 شعبان، متوجها إلى البطحاء، ثم قصد إلى القائد المريني يحيى بن علي البطيوي، الذي كان قد انضمّ إليه المخالفون من توجين وسويد، واعتصم بمعقل جبل وانشريس، فاقتحمه أبو يعقوب وهزمهم، ولجأ القائد المريني وحلفاؤه إلى مليانة، وانضمّت إليه فرقة من حامية الجزائر المرينية، فقوي بذلك ساعده[92].

وفي منتصف شعبان دخل أبو سالم بن أبي الحسن المريني مدينة فاس الجديد، وبويع له بها، فبعث رسولا، في فاتح شوال، إلى أبي حمُو في شأن الصلح، وطالبًا منه أن يكفّ عاديَته على القوات المرينية المتمركزة في المنطقة الشرقية. وفي أواسط شوال، وصل إلى تلمسان عبد الله بن مسلم الزردالي قادمًا من ناحية دَرْعَة حيث كان واليًا للسلطان المريني، حاملا معه جباية تلك السنة، وراجعًا إلى وطن أجداده. فرحّب أبو حمُو بقدومه، وقلّده وزارته، وبعثه على رأس جيش قوي «لمظاهرة أبي يعقوب على تمهيد البلاد الشرقية وتطهيرها من الأعداء»[93]. وإثر ذلك بعث أبو سالم المريني رسولا آخر طالبًا إيقاف العمليات الحربية في المنطقة الشرقية، ومقترحًا عقد صلح في ذلك الشأن. فكان جواب أبي حمُو «بأنّا قد أرسلنا الوزير عبد الله بن مسلم لاقتضاء السلم الذي سألتموه لحصصكم من والدنا، إذ لم تُجْدِ المكاتبة في ذلك شيئًا»[94].

---

91. للمزيد من التفاصيل، انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 257-258؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 51-52 و59-60؛ عبد الحميد حاجيات، المرجع السابق، ص93-94.

92. انظر: زهر البستان، ورقة 27ظ؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 59-62؛ عبد الحميد حاجيات، المرجع السابق، ص 95.

93. يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 62.

94. نفسه، نفس الصفحة.

ويبدو من موقف أبي حمو هذا أنه لم يكن راغبًا في سلم عاجل، وأنه كان يرى أن استيلاء عساكره على مدن المناطق الشرقية، وإجلاء المرينيين عنها، قد يعزّز موقفه في حالة مفاوضات لإقرار السلم بين الدولتين لمَا قد ينتج عن ذلك من استيلاء على مدن المنطقة الشرقية، ولما قد يتوفر للسلطان الزياني، أثناء تلك العمليات من أسرى يُمكن تقديمهم للطرف المريني مقابل أسرى بني عبد الواد الموجودين آنذاك بالمغرب الأقصى.

وتابع أبو يعقوب والد السلطان أبي حمو سيره شرقا حتى وصل إلى بلاد توجين، فاستولى على المديّة في فاتح ذي القعدة، بينما توجه ابن مسلم إلى مليانة، فحاصرها إلى أن استسلم، القائد يحيى بن علي البطيوي، فدخلها في سابع ذي القعدة، وتم أسره وأسر سائر مَن كان معه من الجنود المرينيين[95]. ثم انضمّ أبو يعقوب إلى ابن مسلّم، واتجها معًا بعساكرهما إلى مدينة الجزائر، فضربا حولها الحصار. وكانت المدينة خاضعة للسلطة المرينية، وبها حامية قائدها شعيب ابن ميمون بن وادرار، فامتنعت عليهما، وأحْرقَ معسكرهما، فرفعا الحصار وعادا إلى مليانة. وعندئذ، بلغهما أمرٌ من السلطان أبي حمُو يستدعي الوزير ابن مسلم إلى تلمسان، فسار إليها حينًا، ودخلها في أيام الاحتفال بعيد الأضحى سنة 760 هـ[96].

وكان استدعاء الوزير ابن مسلم ناتجًا عن تأزُّم العلاقات بين أبي حمو والسلطان أبي سالم المريني، حيث إن هذا الأخير كان قد تمكن من التخلص من منافسيه على العرش، وصفا له الجوّ في بلاده، و«سما إلى امتداد ظله إلى أقصى تخوم زناتة، كما كان لأبيه وأخيه»[97]. والظاهر أن بقاء الحاميات المرينية بوهران ومليانة والمدية والجزائر إن دلّ على شيء فإنما يدلُ على طموح السلطان المريني إلى الاستيلاء على تلمسان وباقي مناطق المغرب الأوسط.

95. نفسه، ج2، ص 63.
96. نفسه، نفس الصفحة، عبد الحميد حاجيات، المرجع السابق، ص 97.
97. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 258.

وكان لما حدث من مماطلة أبي حمو في الاستجابة لعرض السلم الذي اقترحه أبو سالم المريني، ومواصلة العمليات ضد الحاميات المرينية بالمدية ومليانة والجزائر، ثم مغادرة عبد الله بن مسلم منطقة درعة بجبايتها والتحاقه بأبي حمُو، أثر بالغ في تفاقم التأزم بين الدولتين[98]. والظاهر أن بني مرين كان لهم حلفاء أوفياء بالمغرب الأوسط، مثل بني سويد ومغراوة وتوجين وبني راشد، وأن كثيرًا من مدن المغرب الأوسط ومناطقه لم تكن خاضعة لسلطة أبي حمُو، فكان من الضروري أن يبدأ أعماله باستكمال إخضاع سائر المناطق، من أجل تدعيم قوة دولته، وإنماء إمكانياتها المالية والدفاعية. ثم إن التحاق ابن مسلم بتلمسان قد أكسب أبا حمُو قوة لم يكن ينتظرها، وتدعيمًا ملحوظا لما كان يتوفر لديه من الإمكانيات، نظرًا لَما كان يمتاز به ابن مسلم من الخلال المحمودة، من شجاعة وكفاءة وحسن تدبير، مما جعل أبا حمو يعتمد عليه في تسيير شؤون الدولة. «فاستقام أمره، وجمع القلوب على طاعته، وجأجأ بالمعقل من مواطنهم الغربية، فأقبلوا إليه وعكفوا على خدمته، وأقطعهم بمواطن تلمسان، وآخَى بينهم وبين زُغْبَة، فعلا كعبُه واستفحل أمره، واستقامت رياسته»[99].

وفي أول سنة 761 هـ، راسل السلطان المريني أبا حمُو في شأن سراح أسرى بني مرين، فأجاب «أنهم أكفاء بني عبد الواد المثقفين عندكم من كائنة أنجاد، فإن رضيتم فداء اثنين من قبيلكم بواحد من قبيلنا فعلنا، فوجم لذلك، وشمخ بأنفه عنه البأو، فانحلت عرى السلم، وقامت على قدمها سوق الحرب، وجلبت إليها سماسرة الفتن بضائع الزور، وأقبل ليل الشتاء، فأصحر مَلِك المغرب فيه إلى تاوريرت بطليعة حرب... وفيها محمد بن عثمان ابن السلطان المرحوم أبي تاشفين»[100].

98. حول الوزير عبد الله بن مسلم والتحاقه بأبي حمو، انظر : عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 258-260.

99. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 260.

100. يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 64.

وأمام فشل المراسلات من أجل إيجاد حلٍّ سلمي، ازداد الوضع تفاقمًا بين الدولتين، وأصبح أبو سالم يتجه نحو اللجوء إلى الحرب. وبدأ بتحريك بعض حلفائه، فثار بالمنطقة الشرقية زيّان بن أبي يحيى الراشدي، في قومه بني راشد، داعيًا للأمير أبي زيان حفيد السلطان أبي تاشفين الأول، الملقب بالقُبّيّ. وكان هذا الأمير قد أخِذَ صغيرًا بعد مقتل جده السلطان أبي تاشفين الأول وأبيه أبي سعيد عثمان، عند اقتحام جيوش السلطان أبي الحسن المريني لتلمسان، واستيلائه عليها عنوة، سنة 737 هـ، ونشأ في قصور بني مرين بفاس. فرأى أبو سالم أن ينصبه منافسًا للسلطان أبي حمُّو موسى الثاني[101]، وظهر هذا الأخير بجبل بني يزناسن بتدعيم من السلطان المريني، وقد اجتمع حوله أتباعٌ لبني مرين من المعقل وبني يزناسن، في المنطقة الغربية. فوجّه أبو حمو، في فاتح ربيع الأول سنة 761 هـ، جيشا من شرقية عبد الواد، بقيادة ابنه أبي تاشفين والشيخ عمران بن موسى اللؤلؤي، إلى زيّان الراشدي، فلم يَقْوَ على مقاومة جيش السلطان، وفرّ إلى بلاد أولاد عريف من سُوَيْد[102]. وفي تلك الأثناء، قصد أبو زيان القبي جبل بني يزناسن بجموع من المعقل، فوجّه السلطان أبو حمو، في 12 ربيع الأول، الوزير عبد الله بن مسلم بعسكر من غربية عبد الواد والعرب للقاء أبي زيان القُبّيّ، فانهزم هذا الأخير شرّ هزيمة، وعاد إلى تاوريرت.

وفي منتصف سنة 761 هـ، أقام أبو سالم المريني معسكره بظاهر فاس، وبعث إلى مختلف المناطق في حشد الجنود. وبلغ نبأ استعداد أبي سالم للحرب إلى أبي حمُّو، فعزم على مغادرة تلمسان، وبدأ بتوجيه حلفائه من بني عامر والمعقل إلى المناطق الجنوبية، تحت قيادة الوزير ابن مسلم، في 4 جمادى الثانية، فنزلوا بأميسون. وفي 29 رجب، وصل أبو يعقوب والد السلطان أبي حمُّو إلى تلمسان، والتحق حينًا بالوزير ابن مسلم.

101 القبي يعني عظيم الرأس. انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 261.

102 انظر: يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 64-65.

وفي هذه الأثناء، عاد زيّان بن أبي يحيى الراشدي إلى ناحية قومه بدعوة السلطان المريني، فبعث أبو حمو جيشا بقيادة الشيخ أبي موسى عمران بن موسى لمحاربته، فهزمه هزيمة أكبر من الأولى وأجلاه عن المنطقة[103].

ومكث أبو حمّو في عاصمته حتى وصل إليه خبر ارتحال أبي سالم من فاس، وحلوله بتاوريرت، في الحدود بين القطرَيْن، بعد أن استكملت الجموع عدتها. فغادر تلمسان في 29 رجب واتجه جنوبًا إلى أميسون حيث انضم إلى الوزير ابن مسلم ووالده أبي يعقوب، بينما سار أبو سالم بعساكره إلى تلمسان، ودخلوها في 6 شعبان. وعندئذ خالفهم أبو حمو وجموعه إلى بلادهم، فدخلوا التل على ثنية بلزوز، واتجهوا إلى ناحية أجرسيف، فخرّبوا عمرانها، وانتسفوا مزارعها، الأمر الذي أقلق السلطان أبا سالم، وجعله يخشى أن يتجه الجيش الزياني إلى ناحية فاس، ويضرب الحصار حولها، فقرّرَ العودة إلى المغرب الأقصى، وأخلى مدينة تلمسان في 12 شعبان، بعد أن نصب عليها الأمير أبا زيان القبي مع كتيبة من مغراوة وبني توجين، «ودفع إليه أعطياتهم، وأنزله قصر أبيه بتلمسان»[104].

وبلغ أبا حمّو خبرُ إخلاء أبي سالم لتلمسان، فقفل راجعًا إليها، وبعث وزيره ابن مسلّم بمعسكر في مقدمته لطرد أبي زيان القبي وحلفائه منها، والاستيلاء عليها. فلم يسع هذا الأخير إلا إخلاء تلمسان في 4 رمضان، والالتحاق بأولاد عريف من سويد في جبل وانشريس[105].

وفي 8 رمضان، دخل أبو حمّو تلمسان، فبادر بتجهيز جيش من قومه لمطاردة أبي زيان القُبّيّ، ونهض به في 18 رمضان، ثم قضى عيد الفطر بتاسالة، ثم توجه إلى البطحاء، حيث التحق به بنو عامر وأولاد حسين من

103. انظر: يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 75–76.

104. انظر: زهر البستان، ورقة 38و – 39ظ؛ عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 260–261؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 76–77؛ الناصري السلاوي، الاستقصاء، ج4، ص 33.

105. انظر: زهر البستان، ورقة 40و.

المعقل، ثم قصد إلى منداس. وكان أنصار أبي زيان الفبي قد انقسموا إلى فرقتين، إحداهما تحت قيادة محمد بن عريف اعتصمت مع أبي زيان القبي بجبل وانشريس، والأخرى تحت قيادة أبي بكر بن عريف اتجهت نحو الصحراء بظعون قبيلة سويد. فحاصر أبو حمُّو معقل وانشريس، ثم اقتحم الجبل في أوائل ذي القعدة، غير أن أبا زيان القبي وأبا بكر بن عريف تمكنا من الفرار نحو الصحراء. ثم توجه أبو زيان إلى الحدود الغربية، واستجار بقبيلة ذوي عبيد الله من المعقل، بسهل أنجاد، قرب وجدة، فأجاروه[106].

وعندئذ، أرسل أبو حمو الوزير ابن مسلم في كتيبة إلى تلمسان، لما بلغه أن أبا سالم كان يجهز جيشا للنهوض به إليها، فوصلها في 23 ذي القعدة. وقصد أبو حمو ناحية شلف بالعساكر لطرد بني مرين منها. فبلغه نبأ فرار المرينيين من مليانة والمدية، ثم نهض إلى متيجة في ذي الحجة، فهزم الحامية المرينية بها واستولى عليها، وأخضعها لطاعته في 20 ذي القعدة. وكان أشياخ قبيلة مغراوة قد تحالفوا مع بني مرين، فطاردهم أبو حمو، واعتصموا بتنس، وكان على هذه المدينة القائد المريني عثمان بن أبي تجلاء، فنازلها أبو حمُّو ثلاثة أيام، ثم اقتحمها وفتحها عنوة في آخر سنة 761 هـ، وتمكن أشياخ مغراوة من الفرار إلى الجزائر، في حماية بني مرين[107].

وبعد أن استرجع السلطان أبو حمُّو ناحية شلف إلى طاعته، عاد إلى تلمسان، ودخلها في 2 صفر 762 هـ، فأرسل والده أبا يعقوب إلى المنطقة الشرقية لاستفتاح مدينة الجزائر، وبعث

الوزير ابن مسلّم إلى الحدود الغربية للإغارة على ذوي عبَيْد الله، فالتقى بهم في أوائل ربيع الأول بسهل أنجاد، فهزمهم وفرّق شملهم، وفرّ أبو زيان القبي إلى تاوريرت، حيث حظي بحماية بني مرين[108].

106. انظر: زهر البستان، ورقة 40 و 41و؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 80؛ عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 261.

107. انظر: زهر البستان، ورقة 42و-ظ.؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 82.

108. انظر: يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 83-84.

وإثر فشل محاولة أبي زيان القبي بإيعاز السلطان المريني، اتجهت أنظار أبي حمو وأبي سالم نحو إيجاد حلول سلمية لإنهاء الأزمة. وكانت المبادرة من أبي سالم الذي أرسل، في أواخر ربيع الأول 762 هـ، ونزمار بن عريف، شيخ سوَيْد بالمغرب الأقصى، عارضا على أبي حمو إجراء مفاوضات من أجل عقد الصلح بين الدولتين، ومخبرًا بأن السلطان المريني أمر بتثقيف أبي زيان القبي بتاوريرت، إظهارًا لحسن نواياه، ولاستعداده على إرضاء أبي حمو[109]. وإثر ذلك جرت مفاوضات بين الدولتين، أسفرت، في أوائل جمادى الثانية، عن اتفاق الطرفين على الحدود القديمة والشروط المألوفة. غير أن أبا سالم احتفظ بوهران، ورفض تسليمها لأبي حمو، رغم إلحاح رسله على ذلك، كما أن مدينة الجزائر كانت لا تزال بين أيدي بني مرين[110].

وبقي الخلاف حول تسليم مدينتي وهران والجزائر يكدِّر صفو العلاقات بين الدولتين. وكان أبو حمُو يقدِّر أهمّيّة الدور الحيوي الذي كانت تقوم به وهران والجزائر في مختلف المجالات، ولاسيما في المجال الاقتصادي. فراسل السلطان أبا سالم في شأنهما، وألح في طلب تسليمهما، لكن بدون جدوى، فتأزم الوضع من جديد بعد صلح دام أربعة أشهر[111].

وعندئذٍ، لم يجد أبو حمو سبيلا للحصول على مطلبه إلا اللجوء إلى القوة، فقرّر النهوض بجيشه إلى وهران فنازلها بضعة أيام، ثم اقتحمها وفتحها عنوة في 13شوال 762 هـ، بعد أن قاومته الحامية المرينية مقاومة شديدة، فأمر بهدم سور القصبة، وعاد إلى تلمسان[112].

109. نفسه، ص 89.

110. انظر: زهر البستان، ورقة 48و50-ظ، يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 89-90.

111. انظر: زهر البستان، ورقة 51و-ظ، يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 90-91.

112. انظر: زهر البستان، ورقة 51ظ52-ظ، يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 91.

وفي 19 شوال قدم إلى تلمسان ونزمار بن عريف في شأن تسوية الأزمة وإعادة الصلح بين الدولتين، وملتزمًا بإقناع أبي سالم بتسليم الجزائر لأبي حمو. والظاهر أن السلطان المريني كان يواجه آنذاك مشاكل داخلية، وأن عرشه كان مهددًا بما كان يحاك ضده من المؤامرات، مما كان يدعوه إلى عقد الصلح مع أبي حمو وتوجيه كل الجهود لمواجهة أعدائه. وفعلا، فإنه بعث إثر ذلك رسله إلى قائد الجزائر علي بن يعلى، وإلى أبي حمو، برسم تسليم الجزائر إلى السلطان الزياني. فبعث هذا الأخير إلى والده أبي يعقوب بمليانة، طالبًا منه أن يتوجه إلى الجزائر، وأن يتخذها مقرا لولايته على المناطق الشرقية، فسار إليها ودخلها في 8 ذي القعدة[113].

غير أن هذا الصلح لم ينقذ أبا سالم المريني من الأخطار التي كانت تهدّده، ولم تنجه من المؤامرات التي أدّت إلى خلعه في 19 ذي القعدة 762 هـ. وتلا ذلك اضطرابات وفتن بالمغرب الأقصى، فأمن أبو حمو من عادية بني مرين لمدة، واغتنم هذه الفرصة لتوجيه عنايته إلى المنطقة الشرقية، وإرساء نفوذ الدولة الزيانية بها على أسس متينة.

وكان أشياخ قبيلة مغراوة قد التجؤوا، عند فتح الجزائر، إلى بجاية، واستجاروا بأميرها أبي إسحاق إبراهيم ابن السلطان أبي يحيى الحفصي، فأجارهم. وكان قد سبق لأبي حمو أنه ساعد هذا الأخير على إجلاء بني مرين عن بجاية، فطالبه بتسليم من التجأ عنده من مغراوة، غير أن الأمير أبا إسحاق لم يلبّ طلبه. فأمر أبو حمو قوّاد المنطقة الشرقية باقتحام إمارة بجاية. فأغار عمر بن موسى المطهري، في أوائل جمادى الأولى، على تدلّس، وفتحها عنوة. وحاول الأمير أبو إسحاق الحفصي استرجاع تدلس، فضايقها مضايقة شديدة. فأنهض أبو حمو الوزير ابن مسلم، في 21 رجب، إلى المنطقة الشرقية للدفاع عن تدلس، والإغارة على إمارة بجاية، فاستولى على فحص حمزة، وجاس خلال الوادي الكبير[114].

113. انظر: زهر البستان، ورقة 54ظ-55ظ، يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص91-92.

114. انظر: زهر البستان، ورقة 76ظ-78و، يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص103.

والجدير بالملاحظة، أن السلطان أبا حمو اضطرّ، منذ تنصيبه على عرش أسلافه، إلى مواجهة الاحتلال المريني لكثير من مدن المغرب الأوسط، وأنه وُفِّقَ في استنقاذها بفضل ما بذله من جهود كبرى، خلال ما يزيد على ثلاثة أعوام، بمساعدة الوزير عبد الله بن مسلم، وما حظي به من تأييد لدى بني عامر من زغبة وأولاد حسَيْن من المعقل. ويلاحظ أيضا أن ما حققته جيوش أبي حمو من انتصار في الحدود الشرقية وبعض أنحاء إمارة بجاية الحفصية يرجع إلى ظروف ملائمة تتمثل أساسًا في انشغال بني مرين بمواجهة الفتن والاضطرابات الناجمة عن ضعف السلاطين المرينيين بعد وفاة أبي عنان، وتغلب الوزراء عليهم.

ونظرًا لتلك الأوضاع الصعبة، التي كانت تفرض على السلطان المريني الاعتماد على كل ما يملكه من جنود وحلفاء للحفاظ على عرشه، لجأ الوزير المريني عمر بن عبد الله إلى عرض صلح جديد لأبي حمو. وبعد تبادل السفارات بين الدولتين انعقد الصلح في 15رجب 763 هـ وبموجبه أطلق سراح بني عبد الواد الذين كانوا لا يزالون بفاس، إلا الأمير أبا زيان ابن السلطان أبي سعيد، ابن عمّ أبي حمو ومنافسه على العرش، فإنه أبْقِيَ في السجن[115].

وفي أوائل شعبان، رُزِئَ أبو حمو بوفاة والده أبي يعقوب بالجزائر، فحُمِلَ الفقيد إلى تلمسان، ودفن قرب باب إيلان. وإثْرَ ذلك، بنى أبو حمو حول قبره مدرسة وزاوية، وعيّن للتدريس في هذه المدرسة العالم الشهير أبا عبد الله الشريف. وفي تلك الأثناء، حدثت فتنة في صفوف حلفاء أبي حمو من بني عامر، نتيجة منافسة خالد بن عامر وأخيه شعيب على رئاسة القبيلة، بعد وفاة أخيهما سقير قبل ذلك بسنتين، وكان أبو حمو قد عيّن شعَيْبًا على بني عامر، الأمر الذي أغضب خالدًا، وجعله يتحيّن فرصة سانحة للقيام بحركة ضد السلطان الزياني، والخروج عن طاعته. فلما أرسل أبو حمو الجيش مع وزيره ابن مسلم إلى المنطقة الشرقية، رأى خالد بن عامر أن الظروف مساعدة

115. انظر: زهر البستان، ورقة 66ظ–69ظ؛ عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 263؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 101–102.

لخلوّ تلمسان من الجيش، فبايع الأمير أبا زيان ابن السلطان أبي سعيد، ونصبه منافسًا لأبي حمو على العرش، فقدم به من المنطقة الغربية[116]، قاصدًا تلمسان.

وعندئذ أدرك السلطان أبو حمُّو خطر حركة خالد بن عامر، فبعث فورًا إلى الوزير عبد الله بن مسلم، بالمنطقة الشرقية، يأمره بالعودة حينا إلى تلمسان. وبالإضافة إلى ذلك، بادر بجمع جيش من فرسان تلمسان وأحوازها، وأرسله بقيادة الشيخ عِمران بن موسى اللؤلؤي وابنه الأمير أبي تاشفين، لمواجهة الثوّار. ووقع اللقاء في منتصف شوال سنة 763 هـ، بجبل بني ورنيد، المصاقب جنوبًا للمدينة، فانهزم خالد بن عامر وجموعه، وتركوا كثيرًا من الغنائم والأسرى، والتجؤوا إلى الصحراء. وعاد الجيش المنتصر إلى مدينة تلمسان، فدخلها في يوم 20 شوال[117].

والظاهر أن السلطان أبا حمُّو كان يقدّر أهمية دور العرب في تشكيل عصبية (بالمفهوم الخلدوني) يمكن الاعتماد عليها في مواجهة مختلف الأخطار التي قد تهدّدُ عرشه، سواء الحروب الناجمة عن الصراع مع الدول المجاورة، أو الفتَن التي تحْدثها منافسة غيره من الأمراء الزيانيين. وذلك أن العصبية العبد الوادية التي قامت بالدور الرئيسي في تأسيس الدولة الزيانية أصبحت غير قادرة على التصدّي للأخطار التي تهدّد العرش. ويؤيد هذا الرأي أن فشل محاولة إحياء الدولة، علي يد الأميرَيْن أبي سعيد عثمان وأخيه أبي ثابت، يرجع أساسًا إلى اعتمادهما على عصبية زناتية يقوم فيها العنصر العبد الوادي بالدور الرئيسي، بينما يرجع نجاح محاولة أبي حمُّو الثاني إلى مساهمة عرب بني عامر الفعّالة في مواجهة بني مرين وحلفائهم.

116. لقد استطاع أبو زيان هذا أن يفر من سجنه بفاس، وتمكن من الالتحاق بقبيلة أولاد حسين من المعقل، ثم اتصل بخالد بن عامر. للمزيد من التفاصيل، انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 263؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 112؛ زهر البستان، ورقة 78و–ظ.

117. زهر البستان، ورقة 78 ظ – 79 ظ؛ عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 263؛ يحيى بن خلدون، ج2، ص 113.

فكان على السلطان الزياني أن يحرص على إبقاء هذه العصبية بجانبه، وأن يسهر على إنمائها وتدعيمها، وجعلها قادرة على الدفاع على عرشه، وإخضاع كل الثائرين عليه.

ويبدو أن هذه الاعتبارات هي التي دفعت السلطان أبا حمُو إلى مصانعة بني عامر، حيث إنه أرسل إليهم أموالا عديدة لإرضائهم، والحصول على تأييدهم في القضاء على فتنة الأمير أبي زيان بن أبي سعيد، «ثم بذل المال لخالد بن عامر على أن يُقصِيَه إلى بلاد رياح ففعل، وأوصله إلى بلاد الدواودة»[118]، حيث أجاره شيخهم يعقوب بن علي، ثم التحق ببجاية عند الأمير أبي إسحاق الحفصي، وطلب منه المساعدة.

وكانت الأوضاع السياسية بإفريقية آنذاك لا تخلو من الفتن والاضطرابات. فكان الأمير أبو عبد الله محمد بن أبي زكرياء ابن السلطان أبي يحيى ينافس عمّه أبا إسحاق على إمارة بجاية، ويسعى إلى كسب تأييد بعض قبائل عرب إفريقية لتحقيق هدفه. وقد أرسل، في شهر صفر سنة 764 هـ، حاجبه أبا زكرياء يحيى ابن خلدون، صاحب كتاب بغية الروّاد، إلى تلمسان، طالبًا مساعدة أبي حمو ضدّ أبي إسحاق الحفصي، فلقي يحيى ابن خلدون عند أبي حمو بعض الاستعداد لتلبية طلبه، ممّا شجّع الأمير أبا عبد الله على الوفادة بنفسه في 8 جمادى الثانية 764 هـ، مجدّدًا طلب المساعدة.

ويلاحظ، في هذا الصدد، أن الفتن الناجمة عن منافسة الأمراء على العرش، وما ينشأ عنها من اضطرابات وحروب، كانت ضاربة أطنابها في كل أقطار المغرب الإسلامي، وأن ملوك دول ذلك العصر كانوا عادةً يرحبون بالأمراء الذين يلتجئون إلى بلادهم، وكثيرًا ما يجيرون من استجار بهم، أو يساعدون من استنجد بهم، أو يساومون غيرهم من الملوك والأمراء في شأن تسليم أمير

118. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 263. انظر أيضًا: يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 113.

أو سجنه أو غير ذلك. ويُعَدُّ أبو حمو أشْهَرَ مَن اشتهر باللجوء إلى هذا النوع من الممارسات في سياسة الملوك[119].

ويبدو أن أبا إسحاق، أمير بجاية، كان على علم بمسعى منافسه الأمير أبي عبد الله الحفصي، وأنه أدرك أن ما حدث بينه وبين السلطان أبي حمُّو من صراع حول مدينة تدلس وما تلا ذلك من امتناع أبي إسحاق عن تسليم أشياخ مغراوة المخالفين لأبي حمو، وإجارة منافسه أبي زيان ابن السلطان أبي سعيد الزياني، ورفض طلب تسليمه، من شأنه أن يدعو أبا حمو إلى الاستجابة لطلب الأمير أبي عبد الله. فأرسل، في تلك الأثناء، وزيره إلى تلمسان، عارضًا عليه الصلح، وملتزمًا باعتقال أبي زيان، مقابل عدم استجابة طلب أبي عبد الله الحفصي. فرأى أبو حمو أن مصلحته، في تلك الظروف، تقتضي قبول عرض الصلح، والتخلص من منافسة الأمير أبي زيان باعتقاله في بجاية. فتم الاتفاق على عرض الأمير أبي إسحاق[120].

وكأنّ الأمير أبا زيان بن أبي سعيد أُخْبِرَ بما كان يُدبّر في شأنه، فلم تمرّ أيام قلائل حتى وصل إلى تلمسان نبأ فراره من بجاية، واستقراره بفحص حمزة، عند أبي الليل بن موسى شيخ بني يزيد، الذي بايعه، وأخذ يغير بقومه على نواحي المدية. فاضطرّ أبو حمو إلى إرسال وزيره ابن مسلم بالجيش، لمطاردتهم ومنازلتهم إلى أن أذعن الشيخ أبو الليل للطاعة، والتزم صرف أبي زيان عن بلاده، فانصرف هذا الأخير إلى تونس، في رمضان 764 هـ، واستراح أبو حمو من فتنته[121].

---

119 حول كتاب «واسطة السلوك في سياسة الملوك» لأبي حمو موسى الثاني، انظر: عبد الحميد حاجيات، المرجع السابق، ص 187–208.

120 انظر: زهر البستان، ورقة 86 و 87 و ورقة 92ظ-93ظ؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 132–133؛ عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 263–264.

121 انظر: زهر البستان، ورقة 90 و 93ظ؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 134–135؛ عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 263–264.

والجدير بالملاحظة أن التاريخ السياسي للدولة الزيانية أخذ يكتسي صبغة خاصة منذ بداية عهد السلطان أبي حمُّو موسى الثاني، تتسِمُ بتحوُّل خطير في نظام تعيين المَلك، يتمثل في تلاشي التقاليد المعهودة، وتطوُّر النظام السياسي من محتواه الاستشاري إلى طابع استبدادي، وحدوث تغيير في تشكيل العصبية (بالمفهوم الخلدوني) التي يعتمد عليها الملك في الدفاع عن العرش، ببروز عنصر العرب في هذا المجال، مما أدّى إلى قيام فتن ناجمة عن منافسة الأمراء على العرش. والجدير بالملاحظة أن هذه الظاهرة السياسية لم تكن خاصة بالدولة الزيانية، بل أصبحت تشمل سائر دول المغرب الإسلامي في أغلب فتراتها، وتعتبر من أهمّ ميزات هذه الفترة، وأحد العوامل الرئيسية لتدهور الأوضاع في هذه البلاد.

ومن نتائج الفتن التي كانت تحدث في أية دولة من دول المغرب الإسلامي أنها، في أغلب الأحيان، كانت لها انعكاسات على البلاد المجاورة، وتفسد العلاقات التي تصل بينها. فمن ذلك ما طرأ على علاقات المرينيين بالزيانيين إثر قيام أمراء بني مرين بسجلماسة بحركة ضد السلطان المتوكل على الله المريني، في أوائل سنة 765 هـ، بمساعدة السلطان أبي حمُّو الثاني. فكان ردُّ فعْل السلطان المريني أن أنهض أبا زيان القُبّيّ، حفيد أبي تاشفين الأول، لمنافسة أبي حمُّو الثاني على العرش الزياني، وأرسله مصحوبًا بابن برغوث، ومعزّزًا بعرب المعقل وبحِصّة مرينية، فنزلوا في ناحية ملوية. فنهض أبو حمو بالعساكر، في 23 رجب 765 هـ، لمواجهة منافسه، فلم يظفر به، وتبعه إلى جبل دبدو بدون جدوى، وهناك افترقت جموع أبي زيان القبي، فعادت الحصة المرينية إلى بلادها، وأصحر الآخرون. وعاد أبو حمو إلى تلمسان، فدخلها في 8 شعبان، وارتاب بخالد بن عامر، فتقبّض عليه، وأودعه السجن. ثم أرسل وزيره ابن مسلم بالجيش لمطاردة أبي زيان القبي وأتباعه، فتبعهم إلى ناحية المسيلة، فاستجاروا بعرب رياح. فحاول ابن مسلم إقناع رياح بالتخلي عن أبي زيان القبي، غير أنه مرض بالطاعون، في آخر ذي القعدة

سنة 765 هـ، فرجع به أفراد عشيرته، وتوفي في طريقه، «وأوصلوا شلوه إلى تلمسان فدفن بها»[122].

فكان لنبإ وفاة الوزير عبد الله بن مسلم أسوأ الأثر في نفوس الجنود، فانحاز الكثير منهم وخاصة فئة العرب، إلى جانب أبي زيان القبي. وبوفاة عبد الله بن مسلم، فقدَ أبو حمو أخلص مناصريه، وأمهر قائد لجيوشه. وأصبح موقف السلطان الزياني يدعو إلى القلق، إذ تألبت ضدّه قبائل العرب من أولاد حسين وسويد وبني عامر، وصارت تناصر منافسه أبا زيان. وأمام تدهور الوضع في منطقة شلف، قرّر أبو حمو، في 4 ذي الحجة 765 هـ، إرسال عثمان بن مسلم، أخي الوزير الفقيد، لتدارك الموقف، ثم بعث، في 8 ذي الحجة، لمساعدته جيشا آخر بقيادة ابنه الأمير أبي تاشفين. ثم نهض أبو حمو نفسه، في 11 ذي الحجة، لمواجهة المخالفين. وعندما قرب من البطحاء لقي جيوشه راجعة، فثناها عن وجهتها، وأقام معسكره بالبطحاء، بينما كان جيش أبي زيان القبي قد حلّ بإغيل إيزان، قريبًا منه.

وفي 25 ذي الحجة 765 هـ، وقعت معركة البطحاء، التي انهزم فيها جيش السلطان أبي حمو شرّ هزيمة، وغادر ساحة الحرب بعد أن جمع حرمه وأمواله، وقصد تلمسان يبغي النجاة، فدخلها في 28 ذي الحجة. أما أبو زيان القبي وأنصاره من أولاد حسين وسويد وبني عامر، فإنهم ساروا في أثر أبي حمو، عازمين على اقتحام تلمسان.

وكان خالد بن عامر، شيخ بني عامر، معتقلا بتلمسان بأمر من أبي حمو، فرأى السلطان الزياني إطلاقَ سراحه، وشرط عليه أن يصرف قومه عن تأييد أبي زيان. فلم يجد خالد أية صعوبة في الوفاء بما التزم به، إذ كان الشقاق قد دبّ في صفوف جيش أبي زيان، أي بين أولاد حسين وبني عامر.

122 عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 265. للمزيد من التفاصيل، انظر: يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 146.

ولما أقام أنصار أبي زيان القبي من أولاد حسين وسويد خيامهم بذراع الصابون من ظاهر تلمسان، في 24 محرم 766 هـ، نزل بنو عامر بوادي يسّر، ثم انصرفوا في اتجاه الصحراء، آخذين على ثنية فرتون، طريقهم المعتادة إلى الجنوب. وبانصراف بني عامر عن أبي زيان القبي، ضعف أمره، وانفضّ من حوله باقي أنصاره، والتحقت حاشيته من وجهاء بني عبد الواد بأبي حمو، بعد أن عفا عنهم، وعاد أبو زيان القبي، بعد فشل محاولته، إلى البلاد المرينية، مقيمًا بمراده، في كفالة ونزمار بن عريف، شيخ سويد[123].

والذي يستنتج من هذه الأحداث أن معركة البطحاء شهدت أولى هزيمة كبرى مُنيَ بها أبو حمو الثاني، ويمكن اعتبارُها نهاية مرحلة استقرار نسبي دام حوالي ستة أعوام، نجحت أثناءها محاولات السلطان الزياني لمواجهة بقايا الاستيلاء المريني، وتخليص مدن المغرب الأوسط من خطرها، واستطاع خلالها أن يعيد للدولة الزيانية بعض رونقها وقوتها. ثم إن قبائل العرب لم تكن آنذاك تشكل خطرًا كبيرًا بالنسبة لعرشه، إلى أن انهزمت جموعه بالبطحاء، فاتضح لعرب زغبة ما يمكن لهم أن يستفيدوه من خلال مساهمتهم في الحرب القائمة بين أبي حمو ومنافسيه من أسرته أو قبيلته، بالانحياز إلى جانبه أو بتأييد خصومه. وكان من العوامل التي شجعتهم على السير في هذا السبيل، ما ظهر أثناء معركة البطحاء من ضعف القيادة العسكرية لجيش أبي حمو، وقلة ثبات أنصاره من العرب في الحرب.

وقد نتج عن هزيمة أبي حمو بالبطحاء تضاؤلُ نفوذه في المنطقة الشرقية، وانضمام العرب المتمركزين بها إلى أبي زيان القبي، معربين بذلك عن ارتياحهم لفشل السلطان الزياني، وعازمين على العمل للقضاء على إمارته إذا امتنع عن إرضاء مطالبهم.

ولا شك أن أبا حمو قد أدرك الغرض من انحيازهم لمنافسه، فما كان منه إلا أن قام بتلبية رغباتهم، لتجنب خطرهم، والاستراحة من فتنتهم.

123. للمزيد من التفاصيل حول هذه الأحداث، انظر : عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص264–266؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 146–151؛ عبد الحميد حاجيات، المرجع السابق، ص 111–113.

وبعد أن تمكن أبو حمو من إحباط محاولة أبي زيان القبي، اعتقد أنه حسم مادة الخلاف في بلاده، وشرع يتطلع إلى منطقة الحدود الشرقية، ويفكر في معالجة شؤونها، ومدافعة هجوم أمير بجاية أبي عبد الله الحفصي عليها. وذلك أن الأمير أبا عبد الله كان قد استولى على بجاية سنة 765 هـ، ثم اغتنم فرصة هزيمة السلطان أبي حمو بالبطحاء للاستيلاء على تدلس، وإجلاء بني عبد الواد عنها[124]. فأرسل أبو حمو الوزير عِمران بن موسى، في أوائل سنة 766 هـ بالعساكر لاسترجاعها، ونازلها أيامًا، ثم عاد إلى تلمسان دون أن تسفر محاولته على أية نتيجة.

غير أن أبا عبد الله الحفصي تعرّض، في تلك الأثناء، إلى هجمات ابن عمه أبي العباس، أمير قسنطينة، الذي هزمه مرتين، الأولى بفَرْجيوَة، في آخر سنة 766 هـ، والثانية قرب سطيف، في أوائل سنة 767 هـ. وعندئذ لم يستطع أبو عبد الله أن يواجه الحروب في الجبهتين الشرقية والغربية، فرأى أن يحسّن علاقاته مع أحد الجانبين، وأن يستعين به على مقاومة الآخر[125].

وعزم الأمير أبو عبد الله على تحسين علاقاته مع السلطان أبي حمو، وتسوية الخلاف الذي نشأ بينهما في شأن تدلس، فتنازل له عنها، وأصهر له في إحدى بناته، وتمّ زفافها في أوائل ربيع الثاني سنة 767 هـ[126]. غير أن الصراع الذي كان قائمًا بينه وبين ابن عمه أبي العباس، أمير قسنطينة، ازداد تفاقمًا، فلم تتحسّن الأحوال في إمارة بجاية، ولم يفتأ الوضع بها يتدهور، الى أن أغار الأمير أبو العباس الحفصي على بجاية، فاستولى عليها في 20 شعبان 767 هـ، وتقبّض جنوده على الأمير أبي عبد الله، فقتلوه[127].

124 انظر : عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 267.

125 انظر : نفس المصدر، ج7، ص 267–268.

126 انظر : يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 159–160 و166؛ عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 268.

127 انظر : عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 858–859؛ نفس المؤلف، التعريف بابن خلدون، ص 105–106؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 182.

ويبدو أن السلطان أبا حمو رأى أن مصاهرته للفقيد تسمح له بالتدخل في شؤون إمارة بجاية، فجمع جيشا قويا ونهض إلى بجاية، في شوال 767 هـ، مظهرًا أنه يريد الثأر لصهره الأمير أبي عبد الله، وكان بعض أهالي بجاية قد كاتبوه آنذاك، ووعدوه بالمساعدة على افتتاحها[128]. ثم إن معظم جيش الأمير أبي العباس كان مستقرا بقسنطينة تحت قيادة مولاه البشير، فظهر لأبي حمو أن الفرصة سانحة، وأن الظروف ملائمة لنجاح محاولته.

أما أبو العباس الحفصي، فإنه عندما بلغه نبأ حركة أبي حمو في اتجاه بجاية، استقدم القائد بشيرًا بجيشه، وطلب منه أن يضمّ إليه الأمير أبا زيان ابن السلطان أبي سعيد الزياني، الذي كان آنذاك رهين السجن بقسنطينة. ونهض القائد بشير بجيشه، فأغذّ السير، ولحق بجيش أبي حمو قبل أن يصل إلى بجاية، فكان اللقاء بين الفريقين في 8 ذي الحجة سنة 767 هـ، وأظهر جيش القائد البشير مقاومة شديدة. فانصرف عنه أبو حمو، واتجه إلى بجاية فنازلها، وكان يظن أنه يفتحها بعد قليل بمساعدة أهلها الساخطين على الأمير أبي العباس.

غير أن أبا حمو لم يحرز على النصر الذي كان يأمله، بل أصبح جيشه بين نارَيْن. فتراجع حلفاؤه العرب، واختلّ نظام عساكره، وانقلب هجومه إلى هزيمة شنعاء، أسِرَ وقتِلَ فيها كثير من جنوده، وهام كثيرون على وجههم، والتحق الباقون بمنافسه أبي زيان. واضطرّ أبو حمو إلى النجاة بنفسه، تاركا للعدو حرمه والعديد من المال والعتاد[129].

وتُعَدُّ نكبة بجاية أكبر هزيمة عرفها أبو حمو في حياته، وقد نتج عنها أن تقوّى أبو زيان ابن عم أبي حمو ومنافسه، بما انضمّ إليه من الجيش المنهزم، وأعلن عرب المنطقة الشرقية تأييدهم له،

128. انظر : عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 270.

129. للمزيد من التفاصيل، انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 270-271؛ يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 182-183؛ عبد الحميد حاجيات، المرجع السابق، ص114-116.

وأصبح أبو زيان يحتلُّ لأول مرّة منزلة هامة في المغرب الأوسط، وصار بإمكانه أن يطالب بعرش أبيه، معتمدًا على أتباع كثيرين، وقوى لا يستهان بها. وأخذ عرب المغرب الأوسط يوجهون أنظارهم نحو أراضي التلّ الخصبة، ويرَوْن أن الفرصة قد سنحت لهم للاستيلاء على تلك الأراضي، وإنماء ماشيتهم وأموالهم، بعد أن عانَوْا من حياة الشظف والحرمان في المناطق الجنوبية.

وسرعان ما حظي الأمير أبو زيان بتأييد قبيلة حُصَيْن من زُغْبَة، التي كانت تقطن ناحية تيطَرّي الجبلية، وسئمت ثِقَل الجباية، فانتهزوا فرصة هزيمة أبي حمو وتضعضع جيشه للزحف إلى المديّة، في أول سنة 768 هـ، فحاصروها أياما، ثم استولوا عليها[130]. وأمام تفاقم الوضع، أمر السلطان أبو حمو بجمع العساكر، وأرسل الوزير ابن برغوث في جند زناتة من بني عبد الواد وتوجين وبني راشد، وبعث القائد عطية بن موسى في جند ناحية شلف، وأنهض الوزير عِمران ابن موسى بجند مدينة تلمسان. ثم أرسل ولده أبا تاشفين لاستجاشة عرب سُوَيد والديالم والعطاف، وسدّ الثنايا في وجه الثوار لمدافعتهم عن الأراضي الخاضعة للسلطان[131].

وأدرك أبو زيان وأتباعه خطر مواجهة هذه الجيوش، فغادروا المديّة، واعتصموا بجبل تيطرّي. فحاصرتهم في معقله مدة، غير أنها فوجئت، في إحدى ليالي أوائل ربيع الثاني 768 هـ، بهجوم الثوّار، فاضطرب أمرها وانهزمت أمامهم تاركة الأخبية والذخائر، فاعتصم عمران بن موسى بالمدية، وابن برغوث بمليانة، وتقهقر جيش أبي تاشفين «بمرحلة أو مرحلتين»[132]. وكان أبو حمو قد بعث جيشا آخر برئاسة عثمان بن مسلّم لمؤازرة الأمير أبي تاشفين، فالتحق بالثوّار وقصد جبل تيطري عبر جبل وانشريس، فقوي بذلك ساعد أبي زيان، ونهض بأتباعه إلى المدية فحاصرها.

130. انظر : عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 271-272، يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 184.

131. انظر : يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 185.

132. نفسه، ص 185-186.

وعندئذ غادر ابن برغوث مليانة، بعد أن وافته الأمداد من تلمسان، متوجهًا نحو المدية لصَدِّ أبي زيان عنها، غير أنه انهزم، في أواخر ربيع الثاني، أمام الثوّار، فتراجع مع عمران بن موسى نحو تلمسان، بعد أن أسلما لهم مليانة والمدية[133].

وكان لاستيلاء الأمير أبي زيان على المدية ومليانة وقع كبير في المنطقة الشرقية، فانضمت إلى الأمير أبي زيان سائر القبائل التي كانت قد سئمت طاعة العرش الزياني، وفي مقدمتها الثعالبة من المعقل بسهل متيجة. وتبعهم أهل مدينة الجزائر، في البيعة للأمير أبي زيان. فنهض أبو حمو بنفسه، في 27 جمادى الأولى 768 هـ، بما قدر على جمعه من الجنود، وبثّ رسله في قبائل العرب، يعرض عليهم الإقطاعات والأموال. ثم حاول، في شعبان 768هـ، كسب مشايعة أبي بكر بن عريف وخالد بن عامر، ولكن جهوده في هذا الشأن لم تنجح، فطاردهما قصد إرغامهما على طاعته وتأييده، وتبعهما إلى ناحية جبل جريجرة ووادي الدوم، فشنوا عليه الغارة وهزموه ونهبوا ذخائره، فعاد أدراجه إلى تلمسان[134].

ثم شايع بنو عامر وسويد والديالم والعطاف الأمير أبا زيان، وبدا أن انتصاره صار أمرًا هينا، فقصد تلمسان، وانحازت إلى جانبه مدن تنس ومستغانم ووهران، فأقام معسكره قرب البطحاء منتظرًا قدوم جيش السلطان الزياني، وعازمًا على القضاء عليه. وكان أبو حمو قد خرج من تلمسان بما توفر لديه من الجنود، في 6 ذي القعدة سنة 768 هـ، وانضاف إليه الأوفياء من حلفائه العرب، وقصد إلى البطحاء في محاولة يائسة للدفاع عن عرشه.

وعندما بلغ معسكر أبي زيان، انقضّ على مقدمة جيشه بغتة، فتراجعت مهزومة، وأحدث ذلك قلقا واضطرابًا وسط باقي جموع أبي زيان، فانفضوا من حوله،

133. نفسه، ص 194.

134. انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 272؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 194-196.

وغادروا ساحة الحرب، وانصرفوا إلى مناطقهم. وإثر هذا الانتصار المفاجئ، وفد شيوخ سويد والديالم والعطاف على السلطان أبي حمو، طالبين عفوه، ومعربين له عن إذعانهم لطاعته، وبعثت المدن بيعاتها إلا مدينة الجزائر[135].

وعندئذ، انقلب الوضع، فأصبح أبو حمو يطارد عدوه، ويواصل عملياته لاسترجاع نفوذه في المنطقة الشرقية. فتوجّه، في محرم 769 هـ، عبر ناحية شلف إلى بسيط مليانة، فاستولى عليها وأصلح أحوالها وحصّنها. وأبرم عقد حلف مع الدواودة من رياح، الذين كانوا في نزاع مع أبي العباس الحفصي، أمير قسنطينة وبجاية، «للحركة على الأمير أبي زيان، وبعدها إلى بجاية»[136]. ثم عاد إلى عاصمته، ودخلها في 15 ربيع الأول سنة 769 هـ، بينما اعتصم أبو زيان وحلفاؤه من حُصَيْن بجبل تيطرّي.

واعتقد أبو حمو أنّ تحالفه مع الدواودة، مع رجوع الديالم والعطاف وبعض سويد إلى الطاعة بعد انتصاره على أبي زيان وحلفائه بالبطحاء، يسمح له بمواصلة التصدي لمنافسه على العرش، ويقتضي تناول الأمور بالحزم من أجل القضاء على ثورته والتخلص من خطرها. فنهض بالجيش في 7 شعبان 769 هـ متوجهًا نحو المنطقة الشرقية، ثم عرّج إلى الجنوب، قاصدًا خالد بن عامر وأبا بكر بن عريف وقومهما، ففروا أمامه إلى الصحراء. وعندئذ رجع عنهم، وقصد مع حلفائه الدواودة جبل تيطرّي، حيث كان بنو عامر وسويد قد انضموا إلى منافسه أبي زيان. فحاول أبو حمو ضرب الحصار عليهم، إلا أن هؤلاء لم يمهلوه وهاجموه بعنف، في 15 شوال، فاختلّ جيشه وانهزم شرّ هزيمة، ولجأ بنفسه إلى تلمسان عن طريق الجنوب، وعاد الدواودة إلى بلادهم[137].

135. انظر : يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 196-198.

136. انظر : عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 273.

137. انظر : عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 273؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 202-206.

ومرة أخرى، سنحت الفرصة من جديد للأمير أبي زيان في الزحف إلى تلمسان، وضعف شأن السلطان أبي حمو الثاني، وقلّ أنصاره لمَا حدث من هزيمة حلفائه الدواودة وانصرافهم إلى أوطانهم، وتراجع جيشه، يتبعه أبو زيان وجموعه، متوغلين في البلاد إلى أن بلغوا مدينة سيرات، جنوب مستغانم. فلجأ أبو حمو، مرة أخرى، إلى الدهاء والوسائل السياسية، بعد أن فشلت المحاولات العسكرية، وعمل على إبعاد الأتباع عن أبي زيان، وفي مقدمتهم خالد بن عامر، فأرضاه بالإقطاعات والأموال، وبادر خالد بالانفصال عن أبي زيان والانحياز إلى أبي حمو، وانفضّ كثير من القبائل الأخرى من حول أبي زيان، فعاد في ذي الحجة 769 هـ إلى معتصَمه بالمنطقة الشرقية، والتزم أشياخ سويد إخراجه من القطر[138].

وفي أوائل سنة 770 هـ وفد محمد بن عريف السويدي على أبي حمو، فعفا عنه، وبعث معه الوزير عمران بن موسى «للحاق بأبي بكر بن عريف لاستقضاء الشرط الذي التزمه في أبي زيان»[139]. غير أن هذا الأخير عاد، في شوال سنة 770 هـ، إلى جبل تيطرّي، بمساعدة أبي بكر بن عريف وبعض أتباعه. وخشي أبو حمو، مرة أخرى، أن يستفحل أمره، فنهض في ذي القعدة سنة 770 هـ إلى المنطقة الشرقية، وبعث الوزير عمران بن موسى إلى أشياخ القبائل، وأمره أن يأتي بهم مذعنين للطاعة. ولما نزل أبو حمو بالبطحاء أتاه عمران بن موسى بمحمد بن عريف وسعد بن العباس الديالمي، فغضب السلطان الزياني لتمادي الكثير من عرب المنطقة الشرقية في مدّ يد المساعدة لمنافسه أبي زيان، ومن بينهم أبو بكر بن عريف، وعزم على انتهاج سياسة الشدة والحزم إزاء بني سويد وحلفائهم، بعد أن أخفقت سياسة اللين والمداهنة. وحثه على اتخاذ هذا الموقف خالد بن عامر، عدو سويد اللدود.

138. انظر : عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 274؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 207.

139. يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 207-208.

فنكب أبو حمو وزيره عمران بن موسى وأجازه إلى الأندلس، في ذي الحجة سنة 770 هـ، وأمر بسجن محمد بن عريف وسعد ابن العباس[140].

والجدير بالملاحظة أن هذا الإجراء، إن دلّ على شيء، فإنما يدلّ على الدور الهامّ الذي أصبح يلعبه بنو عامر في تسيير شؤون الدولة الزيانية، وعلى ما قد ينجُمُ عن ذلك من العواقب الوخيمة على العرش العبد الوادي. وذلك أن تحالف أبي حمو معهم كان يقتضي معاداة خصومهم، وبالدرجة الأولى قبيلة سويد، ولا شك أن هذه الوضعية أفقدت أبا حمو سلطته المطلقة وهيمنته على سائر قبائل القطر، فأصبح عبارة عن سلطان فئة، وخصم فئة أخرى ناصبته عداءها، وانحازت إلى جانب ابن عمه الأمير أبي زيان.

ويلاحظ أيضا أن العداء الذي كان قائمًا بين قبيلتي بني عامر وسويد قد جعلهما لا ترضيان بوجودهما معًا في أحد طرفي الصراع القائم بين السلطان الزياني وابن عمه. وقد سبقت الإشارة، مثلا، إلى دور بني عامر بعد معركة البطحاء، ومغادرتهم صفوف حلفاء أبي زيان، بعد أن آزروه وأيدوه، مما أدّى إلى تراجع جموعه وانفضاضهم من حوله. أما سويد، فإنها كانت أصعب انقيادًا من بني عامر وأشد حذرًا منهم. فبينما كان محمد بن عريف يذعن لطاعة أبي حمو، كان أخوه أبو بكر متماديًا في عصيانه. والظاهر أنه لم يثق بأبي حمو وخشي أن يقع في فخ، فلم يمتثل لأمر السلطان بالمثول أمامه، ولاسيما أن عدوه اللدود، خالد بن عامر، كان بجانب أبي حمو، يدلي برأيه في شتى المواقف، وكان السلطان يستشيره ولا يردُّ له طلبًا، ويعمل بنصائحه لإرضائه وكسب طاعته. فكان من الطبيعي أن يرتاب أبوبكر بن عريف من صدق وعود أبي حمو، وأن يخشى على نفسه إذا ما وفد عليه.

غير أن امتناع أبي بكر بن عريف من الاستجابة لاستدعاء أبي حمو قد أدّى إلى غضب السلطان الزياني على قبيلة سويد، وأغراه خالد بن عامر عليهم،

140 انظر : يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 222–223؛ عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 274.

فأغار أبو حمو على أراضي سويد في أوائل صفر سنة 771 هـ، وانتسف قلعة بني سلامة، وكانت أهمّ مقرّ لهم في المغرب الأوسط. فكان ذلك سبب مغادرة سويد لأراضيهم، وانصرافهم إلى المغرب الأقصى، حيث التحقوا بونزمار بن عريف وقومه بمقره من قصر مراده الذي اختطه في ناحية وادي ملوية[141]. ولم يهدأ لهم بال حتى نجحت مساعيهم إلى إفساد العلاقات بين الدولتين المرينية والزيانية. فكان ذلك من أهمّ العوامل التي أدّت إلى حركة السلطان عبد العزيز المريني إلى تلمسان، واستيلائه عليها في أوائل سنة 772 هـ.

وهنا تنتهي مرحلة أخرى من عهد أبي حمو الثاني، دامت أيضا حوالي ست سنوات، وامتازت بتلاشي نفوذ قبيلة بني عبد الواد، وسيطرة عناصر قبيلة زغبة على الموقف، سواء في شرق القطر أو في غربه. وأصبح الصراع القديم بين بني عامر وسويد يحتلّ الصدارة في الحياة السياسية. أما المنافسة بين الأمير أبي زيان والسلطان أبي حمو فإنها لم تستمرّ إلا باستمرار صراع بني عامر وسويد.

وفعلاً، فإنّ بني سويد عزموا على الثأر لما أصاب أهل قلعة بني سلامة منهم، والتحق أبو بكر بن عريف، مع قومه وحلفائه من الديالم والعطاف، بالمغرب الأقصى، مستغيثا بالسلطان عبد العزيز المريني. وكانت العلاقات بين هذا الأخير وأبي حمو قد اتجهت نحو التوتر، بعد خروج أولاد حسين والعمارنة والمنبّات من المعقل عن طاعة السلطان المريني، واستغاثتهم بأبي حمو، الذي أجارهم ولم يستجب لطلب ملك فاس في شأنهم. فبذل أشياخ سويد كل جهدهم في إقناع السلطان عبد العزيز، ورغّبوه في الاستيلاء على تلمسان والمغرب الأوسط، الأمر الذي يرفع من شأنه وشأن دولة بني مرين، من جهة، ويمكّن سويد من الثأر لقبيلتهم، ويسمح بفكّ إسار محمد بن عريف، من جهة أخرى. فوافقهم على ذلك، وأمر بحشد الجيوش من سائر أنحاء بلاده، وبعد قضاء عيد الأضحى لسنة 771 هـ، نهض بها متجهًا صوب تلمسان[142].

141. للمزيد من التفاصيل، انظر: عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 274.
142. انظر : عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 274–275.

وكان السلطان الزياني قد قام قبل ذلك، خلال سنة 771 هـ، بعمليات في اتجاه المنطقة الشرقية قصد استرجاع نفوذه بها. ولما بلغه خبر نهوض عبد العزيز المريني بجيشه من فاس، في أواخر سنة 771 هـ، كان أبو حمو معسكرًا بالبطحاء، فأغذّ السير نحو تلمسان، وبعث إلى قبائل المعقل من ذوي عبيد الله وأولاد حسين وغيرهم، يستنجدهم لمواجهة جيش السلطان المريني، «فصمُّوا عن إجابته ونزعوا إلى ملك المغرب، فأجمع رأيه على التحيز إلى بني عامر، وأجفل غرة المحرم سنة اثنتين وسبعين، واحتلّ السلطان عبد العزيز تلمسان في يوم عاشوراء بعدها»[143]. ثم سرّح وزيره أبا بكر بن غازي بن الكاس بالعساكر لمطاردة أبي حمو وحلفائه بني عامر، والتحق به ونزمار بن عريف مع قومه.

وكان أبو حمو قد اتجه مع حلفائه إلى الجنوب الشرقي من القطر، إلى أن حلوا ظاهر قرية الدوسن في ناحية الزاب. فحاول استمالة أولاد محمد من رياح، إلى جانبه، غير أن الجيش المريني لم يمهله، وتعرّض له هناك فجأة في أوائل ربيع الأول سنة 772 هـ، ففرّ بعض بني عامر، وانهزم أبو حمو ومَن بقي معه هزيمة كبرى، وانسحب السلطان الزياني عن ساحة القتال، تاركا معسكره وذخائره وأمواله، ومتجهًا نحو الجنوب، يبغي النجاة[144].

ومنذ ذلك الزمان، كانت المحنة الكبرى عبر الصحراء، والعناء الشديد في تلك المناطق الشاسعة، والمفاوز النائية، وعساكر بني مرين تتعقب السلطان الزياني وأهله وأتباعه الأوفياء، وتطارده في كل مكان. غير أنه تمكن من اتقاء شرّهم وشرّ قبيلة سويد، رغم ما بذله هؤلاء من جهود لمطاردته.

وفي أواسط سنة 773 هـ، اضطربت الأوضاع في بعض مناطق المغرب الأوسط، حيث إن حمزة بن علي بن راشد المغراوي ثار ضد بني مرين في

143. انظر : عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 276.

144. انظر : عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 277؛ يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 238-239.

ناحية شلف، وعاد أبو زيان بن السلطان أبي سعيد الزياني إلى جبل تيطرّي باستدعاء من قبيلة حُصَيْن، وصارت هذه القبيلة تغير على ناحية المدية. وأرسلت فرقة من ذوي عبَيْد الله ببيعتها إلى أبي حمو، وأخذت تغير على نواحي وجدة.

وعندئذ، رأى أبو حمو أن الظروف مساعدة للقيام بغارات على ناحية تلمسان، واغتنام الفرصة للاستيلاء عليها، فتوجه نحو الشمال قاصدًا التلّ، غير أن بني مرين داخلوا خالد بن عامر في شأن الالتحاق بهم، ووافق ذلك فتورًا في العلاقات بين أبي حمو وشيخ بني عامر، فانفصل هذا الأخير عن أبي حمو مع كثير من قومه، وحذا حذوهم الوزير عمران بن موسى وغيره من وزراء السلطان الزياني، منحازين إلى الجانب المريني. ولم يشأ أبو حمو أن يتراجع عن محاولته، بعد خديعة خالد بن عامر وبعض الوزراء، بل واصل السير، قاصدا مواجهة الجيش المريني، فكان اللقاء في 25 شوال 773 هـ بأوماكرًا، فانهزم شرّ هزيمة، وأفلت أبو حمو من المعركة مع ابنه أبي تاشفين وقليل من الأوفياء، تاركا للعدو ظعنه «بما اشتمل من مال وذخيرة وأهل وولد»[145]. ثم عاد أبو حمو إلى تجواله في القفر، فذاق الأمرّيْن، واستقرّ في آخر سنة 773 هـ بتيجورارين، في جنوب الصحراء مما يتاخم بلاد السودان، بعد أن ترك أبناءه في أحياء بني عامر.

وكان السلطان عبد العزيز المريني قد اتخذ تلمسان مقرًا له، وبها أصيب بداء خطير، توفي منه في 22 ربيع الثاني سنة 774 هـ[146]. فاضطربت أحوال العرش المريني، وانتقل رجال الدولة إلى فاس، تاركين على تلمسان أحد أمراء بني زيان، هو إبراهيم ابن السلطان أبي تاشفين. غير أن هذا الأخير لم يسيطر على الموقف، حيث إنه تعرض لمقاومة أحد موالي أبي حمو، يدعى

---

145 يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 256، انظر أيضا : عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 278–279 و688.

146 للمزيد من التفاصيل حول هذه الأحداث، انظر : يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 258 - 259؛ عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 698–699.

عطيّة ابن موسى، الذي عمل على طرده من تلمسان، وملك زمام الأمر بها باسم السلطان أبي حمو.

وسرعان ما بلغ الخبر أبا حمو الثاني في منفاه البعيد، فانفرجت عنه الشدة، ورحل عائدًا إلى عاصمته، فدخلها في 24 جمادى الأولى 774 هـ، بعد غيبة دامت حوالي سنتين، ذاق خلالها ما لم يذقه معظم الأمراء والسلاطين من المشقة والعناء[147]. وكانت الأوضاع في المنطقة الشرقية لا تزال مضطربة، حيث إن علي بن هارون كان قد انتصب أميرًا بناحية شلف بمساعدة بني مرين، بينما عاد الأمير أبو زيان من منفاه بوارقلة، قاصدًا أنصاره حصين بجبل تيطرّي، وعاملا على استرجاع نفوذه السابق في المنطقة الشرقية.

وكان ونزمار بن عريف قد نصح أخوَيْه أبا بكر ومحمد بالتحالف مع أبي حمو، واغتنام فرصة خديعة خالد بن عامر لإحلال سويد محلّ بني عامر في «مخزن» الدولة الزيانية. ووافق ذلك حنق أبي حمو على خالد بن عامر وقومه، فعمد إلى تغيير سياسته تجاه قبائل زغبة، وأصبح يعهد إلى سويد مهمة الدفاع على كيان دولته.

وبدأ أبو حمو بإرسال عطية بن موسى بالجيش إلى ناحية شلف في أواخر جمادى الأولى سنة 774 هـ وكان علي بن هارون قد تحالف مع خالد بن عامر وقومه وقبيلة توجين. وفي شهر رجب، شنوا هجومًا على جيش عطية بن موسى، وأرغموه على الالتجاء إلى تنس، فحاصروه بها، بينما توجه خالد بن عامر وأتباعه صوب تلمسان، قصد الاستيلاء عليها. فبعث أبو حمو ابنه أبا تاشفين، في شهر شوال 774 هـ، بجيش من قبيلة بني عبد الواد، معزّز بحلفائه الجدد من سويد، لمواجهة خالد بن عامر وقومه، فانهزم هؤلاء، وانصرفوا إلى الصحراء.

147 انظر : يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 270–274؛ عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 281.

ثم واصل أبو تاشفين سيره إلى تنس لنجدة عطية بن موسى، فرفع المخالفون من مغراوة الحصار واعتصموا بجبل بني بلسيت، فاقتحمه عليهم في ذي الحجة، وأوقع بهم، وفرّ الكثير منهم إلى متيجة[148].

وأطال أبو تاشفين إقامته بالمنطقة الشرقية، لمراقبة تحرُّكات بني عامر، في النواحي الجنوبية، والتصدّي لمحاولات قبيلة مغراوة، في ناحية شلف، ثم استقرّ أبو تاشفين بمازونة[149]. وفي غرّة شوال سنة 775 هـ، غادر السلطان أبو حمو تلمسان والتحق بابنه، ثم أقام معسكره في تيمزوغت، واستمرت مضايقته لمغراوة بمزيد من الشدة، إلى أن تمكن الأمير أبو تاشفين من اقتحام المعقل الذي اعتصم به علي بن هارون وقومه، في 3 ربيع الأول 776 هـ، والاستيلاء عليه، ففرّ علي بن هارون إلى بجاية، وركب البحر في اتجاه المغرب الأقصى[150].

ثم اتجهت أنظار السلطان أبي حمو إلى ما وراء ذلك من بلاد المنطقة الشرقية. وكان الأمير أبو زيان قد عاد إليها، وحظي من جديد بتأييد حُصَيْن والثعالبة، فرأى أبو حمو أن يلجأ إلى الوسائل السلمية، وأن يعرض على المخالفين ما يرضيهم من الأموال، فأرسل محمد بن عريف السويدي في هذا الشأن، وكللت مهمته بالنجاح، وأذعنت للطاعة الثعالبة وحصين، وقبل أبو زيان الانصراف إلى بلاد الدواودة على أن يدفع إليه أبو حمو مبلغا من المال. وعاد محمد بن عريف بأشياخ حصين والثعالبة وأعيان أهل المدية والجزائر، معربين عن طاعتهم «فتلقاهم بالرضى والبشر... وصرف الجميع بقرة العيون وشفاء الصدور»[151].

148. انظر : يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 279–280.
149. للمزيد من التفاصيل حول هذه الأحداث، انظر : يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 281–282، 285–286؛ عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 282.
150. انظر : يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 286، 308؛ عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 282.
151. يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 309؛ انظر أيضا : عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 282–283.

ثم أصلح السلطان أبو حمو شؤون المنطقة الشرقية، وعين قوّاد كورها وعمّالها، وحدّد حدودها، وأعاد الأمن بها. ثم عاد إلى تلمسان، فدخلها في 22 جمادى الأولى 776 هـ، بعد أن حقق، بفضل مساعدة قبيلة سويد، هذا الانتصار، واسترجع معظم ما كان له من النفوذ في المغرب الأوسط. ولم يرض بنو عامر بجلائهم عن أراضيهم لفائدة سويد، وبانتهاء نفوذهم في المملكة الزيانية التي ساهموا في إحيائها بعد الاستيلاء المريني، ودافعوا على كيانها مدة طويلة. فاستنجدوا بالسلطان المريني، غير أن مساعيهم لم تكلل بالنجاح. فلما يئسوا من ذلك، قرّر عبد الله بن سقير وقومه العودة إلى أوطانهم، والدفاع عنها بالقوة، واستمالوا إليهم أبا بكر بن عريف السويدي، وكان حاقدا على السلطان أبي حمو بعد أن عزل صديقه يوسف بن عامر بن عثمان عن إمارة وانشريس، فبايعوا الأمير أبا زيان، «وأوفدوا رجالاتهم عليه بمكانه من مجالات رياح، فوصل معهم ونصبوه للأمر»[152].

وفي محرم سنة 777 هـ، نهض أبو حمو بجيش يضمُّ قبيلة بني عبد الواد، مع محمد بن عريف وقومه، في اتجاه المخالفين، وأفاض المال في أتباع أبي زيان، فانفضوا من حوله، وعاد إلى بلاد الدواودة في ربيع الثاني 777 هـ، وأصحر أبو بكر بن عريف، ثم عرض عليه أبو حمو ما يرضيه من المال، ففاء إلى الطاعة[153].

أما عبد الله بن سقير، فرجع إلى المغرب الأقصى، والتحق بخالد بن عامر. ويبدو أن مكانة ونزمار بن عريف في البلاط المريني كانت عاملا هاما في تحسين العلاقات بين أبي حمو والسلطان المريني، وتقاعُد هذا الأخير عن الاستجابة لاستنجاد بني عامر به. وعندئذ، قرّر بنو عامر العودة إلى أراضيهم، ومناجزة الحرب لسويد وأبي حمو.

152. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 284.

153. انظر : يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 328-330؛ عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 284.

وعلمت سويد بنواياهم وتحرُّكهم في اتجاه المغرب الأوسط، فاستنفرت حلفاءها العطاف والسلطان أبا حمو، فأمر ابنه أبا تاشفين، الذي كان مستقرا آنذاك بجبل هوارة، بالاستعداد لصرختهم.

فنهض أبو تاشفين وضمّ جيشه إلى سويد، واتجه صوب بني عامر، الذين كانوا قد وصلوا إلى أعالي وادي مينا، وهناك دارت بين الفريقين معركة حامية الوطيس، في 3 ذي الحجة سنة 777 هـ، فانهزم بنو عامر، وقتل كثير من أبطالهم، كعبد الله بن سقير وأخيه ملوك والعباس بن موسى بن عامر وغيرهم. ونجا خالد بن عامر بنفسه، فلحق مع فلّ قومه بجبل راشد[154]. وبهذا قطع دابر بني عامر، وانتهى الحلف القديم بينهم وبين أبي حمو الثاني، وأصبح هذا الأخير ينتهج سياسة جديدة تتمثل في مصادقة قبيلة سويد، واستعمال نفوذها في المغرب الأوسط للحصول على طاعة قبائل المنطقة الشرقية، ونفوذها في المغرب الأقصى لإقامة السلم مع بني مرين. وإثر هذا الانتصار، عيّن أبو حمو ابنه المنتصر على مليانة وأعمالها، ومعه أخوه عمير تحت كفالته، وأخاهما أبا زيان على المدية وبلاد قبيلة حُصَيْن، وابنه يوسف ابن الزابية على تدلس.

وفي أول سنة 778 هـ، انتقض شيخ الثعالبة، سالم بن إبراهيم، على السلطان أبي حمو، وعقد حلفا مع خالد بن عامر وقومه، واجتمعوا على البيعة للأمير أبي زيان، وأقاموا له الدعوة بمدينة الجزائر، ثم توجهوا إلى مليانة وحاصروها، فامتنعت عليهم وعادوا إلى الجزائر، وفي تلك الأثناء أصيب خالد بن عامر بمرض، وتوفي بها.

ثم نهض أبو حمو بجيش لإخضاع قبيلة الثعالبة، وتوجه صوب سهل متيجة، فلاذوا إلى جبل تيطرّي واعتصموا به، فحاصرهم وضيّق عليهم إلى أن انقادوا لطاعته في أواخر رمضان من سنة 778 هـ، فاستجاب لمطالبهم على شريطة أن يفارقوا ابن عمه أبا زيان، ويصرفوه عن بلادهم[155].

---

154. انظر : يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 330-331؛ عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 284 - 286.

155. انظر : عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 280.

ولما انتهى أبو حمو من تهدئة المنطقة الشرقية، وعزم على العودة إلى تلمسان، عيّن الوزير السابق ابن برغوث واليًا على الجزائر، وعقد لابنه المنتصر على مليانة وأعمالها، وقرّر «نقل ابنه أبي زيان من المدية إلى ولاية وهران وأعمالها، بعدًا به عن العرب المجلبين للفتن»[156]. غير أن أبا تاشفين لم يرتض تعيين أخيه أبي زيان على وهران، فغضب لذلك وطلبها لنفسه من والده. فكان ذلك بداية منافسة شديدة على الحكم بين أبناء أبي حمو الثاني.

لقد كان لأبي حمو أبناء كثيرون، من نساء عديدات، أكبرهم سنا أبو تاشفين، الذي وُلدَ سنة 752 هـ بندرومة من امرأة قد تكون تنتمي إلى الأسرة الزيانية. ومن أبناء أبي حمو المنتصر وأبو زيان وعمر (المسمى أيضا عُمَيْر)، وكانوا إخوة لأم واحدة، تزوجها أبو حمو بمدينة ميلة، عندما أقام بها بين شوال 758 ورمضان 759 هـ. ومنهم يوسف ابن الزابية، أمه ابنة يحيى الزابي، تزوجها أبو حمو في أواخر سنة 759 هـ، بعد أن غادر ناحية ميلة، مارا بجبل عياض، حيث كان مقرُّ أبيها.

وكان أبو حمو قد عين أبا تاشفين وليّ العهد، وأشركه في الحكم بعد وفاة السلطان عبد العزيز المريني، حين عودته إلى تلمسان. إلا أن أبا حمو كان يعطف بصفة خاصة على المنتصر وأبا زيان وعمير، وربما كان يفضل أبا زيان لما امتاز به من تفوّق في العلم والأدب، وقد حفظ القرآن، وبمناسبة اختتامه له أقام أبو حمو حفلا مشهورًا في رجب 776 هـ[157]، ونظم أبو زيان الشعر مثل أبيه[158]. فكان يحظى مع أخويه بمجالسة والده ومناجاته، مما كان يثير غيرة أبي تاشفين وامتعاضه[159]. ولا شك أن تعيين أبي زيان على وهران قد زاد أبا تاشفين كرها وحنقا عليه، وتخوّفا على حقه في العرش الزياني، مما جعله يرفض ذلك التعيين، ويطلب من أبيه أن يعقد له على وهران عوض أخيه أبي زيان.

156 انظر: نفس المصدر، ج7، ص 291-292.
157 انظر: يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص 310.
158 انظر، مثلا: أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 220-227.
159 انظر: عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 291.

والظاهر أن أبا حمو وجد نفسه، آنذاك، في مأزق يصعب الخلاص منه دون أن يُغْضِب أحدَ ولديه. فلم يشأ أن يرجع عن قراره، كما أنه لم يُقدِمْ على رفض طلب أبي تاشفين، وإنما «أسعفه ظاهرًا، وعهد إلى كاتبه يحيى ابن خلدون بمماطلته في كتابتها حتى يرى المخلص من ذلك»[160]. غير أن أبا تاشفين سئم من المماطلة والانتظار، واعتقد أن يحيى ابن خلدون كان يعمل في صالح الأمير أبي زيان، فعزم على التخلص منه ودبّر مقتله، في إحدى ليالي رمضان سنة 780 هـ، بعد خروجه من القصر.

وعندما اكتشف أبو حمو الحقيقة في مقتل كاتبه، لم يسعه إلا الإغضاء، وإرضاء أبي تاشفين بتعيينه على وهران. وبعد ذلك بقليل، طلب أبو تاشفين من أبيه أن يضيف إليه ولاية الجزائر، فأقطعه إياها، واستناب أبو تاشفين فيها أخاه يوسف ابن الزابية[161]. وهكذا بدأ نجم أبي تاشفين يعلو في سماء المملكة الزيانية، وبدا منه من الحزم والشدة ما جعل والده يتفادى شرّه بإسعافه في جميع مطالبه، وتلبية كل رغباته، مما خفف من ثائرة ابنه، وأخمد نار غيظه.

وأخذت الأحداث تسير سيرها الطبيعي، بعد أن شمل المغرب الأوسط الهدوء والاستقرار، وتواصل تنظيم شؤون الدولة، وتحسين العلاقات مع مختلف القبائل، إلى أن تأزم الوضع في المغرب الأقصى سنة 784 هـ، وقام ضد السلطان أبي العباس المريني ابنُ عمه عبد الرحمن بن أبي يفلوسن، ينافسه في سجلماسة ومراكش، فتحالف أبو حمو مع هذا الأخير، وظاهره على خصمه، مما أثار غضب السلطان أبي العباس، وأدى إلى هجومه على تلمسان.

وذلك أن السلطان المريني حاصر ابن أبي يفلوسن بمراكش مدة طويلة، فاستنجد هذا الأخير بأبي حمو، وأرسل إليه ابن عمه أبا العشائر، رفقة يوسف بن علي بن غانم، شيخ أولاد حسين من المعقل، في ذلك.

160. نفس المصدر، ج7، ص 292.

161. نفس المصدر، ج7، ص 292-293.

ويبدو أن أبا حمو رأى أن انتصار أبي العباس المريني على منافسه، من شأنه أن يزيده قوة، ويجعله خطرًا على المملكة الزيانية، فأجاب طلب أمير مراكش، وبعث مع الرسولين ابنه أبا تاشفين بالعساكر، وتوجهوا، في أواسط سنة 785 هـ، إلى ناحية مكناسة لشنّ الغارة عليها، بينما أغار أبو حمو على ناحية تازا، قصد إرغام أبي العباس على الإفراج عن مراكش، فخرّب قصر السلطان بتازروت، قرب تازا، وضرب الحصار حول المدينة.

غير أن أبا العباس المريني اقتحم مراكش، في تلك الأثناء، واستولى عليها، وقضى على منافسه. فماكان من الأميرين أبي تاشفين وأبي العشائر إلا أن قفلا راجعَيْن إلى تلمسان، كما اضطر أبو حمو إلى رفع الحصار حول تازا، والعودة مسرعًا إلى تلمسان، بعد أن خرّب قصر ونزمار بن عريف السويدي بمرادة في ناحية بطوية، من أحواز تازا[162].

وتخريب قصر السلطان بتازروت، وقصر ونزمار بن عريف بمرادة، يدعو إلى التساؤل عن العوامل التي جعلت أبا حمو يقدم على هذا العمل.

وقد يكون ذلك التخريب عبارة عن ردِّ فعل وثأر لما أصابه من أذى أيام استيلاء عبد العزيز المريني على تلمسان. ويحتمل أن يكون أبو حمو قد ضمّ إلى جيشه فصائل من بني عامر، وأن هؤلاء أصرُّوا على تخريب قصر مرادة، لما كانوا يكنون من العداء لسويد، ولإفساد العلاقات بين السلطان الزياني وقبيلة سويد، والانتقام لموتاهم في ال[illegible]، التي لقوها سنة 777 هـ.

وعلى كل، فإن حركة أبي حمو في ناحية تازا قد أدّت إلى تأزُّم الوضع بينه وبين السلطان أبي العباس المريني. فما عاد هذا الأخير إلى عاصمته، بعد القضاء على فتنة منافسه في مراكش، حتى أخذ يُعِدُّ العُدّة للنهوض إلى تلمسان، انتقامًا لموقف أبي حمو العدائي.

162 انظر : عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 295.

ولما بلغ أبا حمو نبأ ما كان يدبّره السلطان المريني من استعدادات للزحف، استنجد بابن الأحمر. وكان لهذا الأخير نفوذ قوي على الدولة المرينية، فحث أبا العباس على مسالمة أبي حمو، وكان السلطان المريني يتظاهر بالأخذ بنصيحته. غير أنه لم يتأخر عن تنفيذ خطته، فهاجم المملكة الزيانية بغتة، واستولى على تلمسان بعد أن غادرها أبو حمو متوجهًا إلى البطحاء، ثم إلى حصن تاجَحْمُومَت، في أراضي بني أبي سعيد، بالمنطقة الشرقية.

ولما علم ابن الأحمر بحركة أبي العباس المريني إلى تلمسان غضب، واستاء لعدم أخذ هذا الأخير بنصيحته، وكان ردُّ فعله أن أقام منافسًا لأبي العباس على العرش المريني، يدعى موسى ابن السلطان أبي عنان، وزوّده بالجنود، وأجازه إلى سبتة في غرة ربيع الأول سنة 786 هـ. ولم يجد هذا المنافس أية صعوبة في التوجُّه إلى فاس، فحاصرها واستولى عليها في 19 ربيع الأول. ولما بلغ نبأ هذه الأحداث إلى السلطان أبي العباس بتلمسان، غادرها في الحين وسار إلى بلاده. وقبل خروجه من تلمسان، في آخر ربيع الأول، أمر بهدم قصور المدينة وقسم كبير من أسوارها بإيعاز من ونزمار بن عريف السويدي، انتقامًا لتخريب أبي حمو لقصر تازروت، وقصر مرادة[163].

وعندئذ، رجع أبو حمو إلى عاصمته، فتألم كثيرًا لما أصابها من من تخريب قصورها البديعة، وهدم أسوارها، مماذهب برونقها وجمالها، وأودى بحصانتها. فكان هذا الحادث الخطير ضربة قاسية، أصابت المملكة الزيانية، ونالت من عزها ومنعتها، ويمكن اعتباره بمثابة تاريخ فاصل بين عهد الازدهار والقوة، وعهد الانحطاط والضعف. وكانت النتيجة الحتمية لموقف أبي حمو المعادي لسويد، أن فقد تأييدها، مما جعل نفوذه يضعف شيئًا فشيئًا. والحقيقة أن قبيلة سويد كانت، منذ تغلبها على بني عامر، في سنة 777 هـ، تشكل قوة سياسية عظمى، لا يستقيم أمر السلطان إلا باستمالتها وإرضائها، ولا يسود الاستقرار السياسي في البلاد إلا بالحصول على تأييدها وطاعتها.

163. للمزيد من التفاصيل، انظر : عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 296-298؛ عبد الحميد حاجيات، المصدر السابق، ص 141-143.

والظاهر أن هذا التطور الذي طرأ على الوضع السياسي في المملكة الزيانية، وبخاصة بعد سنة 786 هـ، كان في صالح أبي تاشفين بن أبي حمو الثاني، الذي أصبح يتمتع بثقة سويد وتأييدها. ولا شك أن الأمير الشابّ أدرك آنذاك أن استمالة سويد إلى جانبه من شأنها أن تخدم مصالحه، وتعزّز موقفه، وتعضد صفوف أنصاره في الصراع الذي كان ناشئًا آنذاك بينه وبين بعض إخوته.

وهكذا أصبحت المملكة الزيانية تعيش في جوّ يسوده تقلّصُ نفوذ السلطان، وظهور الانقسام بين القوى السياسية في الدولة. فهناك حزب ولي العهد أبي تاشفين، وهناك حزب إخوته المنتصر وأبي زيان وعمير. ولم يشأ أبو حمو أن ينحاز ظاهرًا لأحد الفريقين، بل حاول إظهار التزامه للحياد، وصار كل واحد من الحزبَيْن يسْعَى إلى إنجاح مساعيه، وتقوية صفوف مؤيديه. ويبدو أن حزب الأمير أبي تاشفين كان أقوى بتلمسان والمنطقة الغربية، بينما كان الحزب الآخر مسيطرًا على المنطقة الشرقية.

وكان لأبي تاشفين عيون من بطانة السلطان، يخبرونه عمّا يجري عنده من الأحداث، ومن بينهم شخص يدعى موسى بن يخلف، سبق له أن اتصل بأبي حمو وابنه أبي تاشفين أيامَ اغترابهما بتيقورارين، وصار منذ ذلك العهد من المقرّبين لديهما، إلا أنه كان يخدم أبا تاشفين، ويطلعه على ما كان يدبّره والده من الأمور لتعزيز نفوذه المتلاشي.

وفي سنة 788 هـ، بلغ عداء أبناء أبي حمو أشدّه، وكأنّ هذا الأخير تمادى في عطفه على المنتصر وأبي زيان وعمير، الأمر الذي جعل أبا تاشفين يتّهمُهُ «بممالأة إخوته عليه، فشمّر لعقوقه وعداوته»[164]. وأصبح أبو حمو يعيش في ظروف لا تطاق، فبحث عن مخلص من خطر عقوق ولده الأكبر، فلم يجد أحسن وسيلة من مغادرة تلمسان، والاستقرار بمدينة الجزائر، وجعلها عاصمة جديدة لدولته، فيكون فيها قريبًا من أبنائه المفضّلين، وبعيدًا عن سيطرة أبي تاشفين.

164. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 298.

وأعلن أبو حمو النهوض إلى البطحاء، مُظهرًا محاولة الإصلاح بين العرب، «ومعتزمًا على لقاء ابنه المنتصر بمليانة، ليصل به جناحه، ويتخطّى إلى الجزائر، فيجعلها دار ملكه، بعد أن استخلف بتلمسان ابنه أبا تاشفين»[165]، وغادر السلطان الزياني تلمسان مشرّقا، إلا أنه لم يتمكّنْ من تحقيق مشروعه. وذلك أنّ موسى بن يخلف اطّلع على الأمر، فأخبر أبا تاشفين عن نوايا أبيه الحقيقية. فسار الأمير في أثره، ولحق به قرب البطحاء، وكاشفه ما بلغه من الخبر، فأنكر ذلك أبو حمو، ثم عاد معه إلى تلمسان ليُطَمْئِنَهُ.

وحينئذ زاد الوضع تأزُّمًا بين السلطان وابنه الأكبر، والغالب على الظن أنّ أبا تاشفين أصبح آنذاك صاحب السلطة الحقيقي، يسيِّر شؤون الدولة حسب مصالحه ومشيئته، ويراقب جميع تصرُّفات والده بواسطة العيون الذين بثهم حوله، فغدا أبو حمو كالسجين في عاصمته، لا يمارس من السلطة إلا بعض الوظائف الشكلية، مما يتصل بمنصب السلطان من استقبالات وعقد مجالس وإشراف على الحفلات الدينية.

وفي أواخر سنة 788 هـ، فكر أبو حمو في بعث أحمال من المال إلى ابنه المنتصر بمليانة، يودعها عنده ريثما يجد سبيلا لمغادرة تلمسان سرًا. وأرسل الأحمال مع أحد أصفيائه، يدعى علي بن عبد الرحمن بن الكليب، وعقد لابنه المنتصر على ولاية الجزائر، وبعث له رسالة في ذلك الشأن مع ابن الكليب، طلبًا منه أن يقيم بها إلى أن يخلص إليه[166].

ومرّة أخرى اطّلع أبو تاشفين على الخبر بواسطة جاسوسه موسى بن يخلف، فبعث في أثر ابن الكليب بعض خلصائه، فاعترضوا له في طريقه إلى مليانة وقتلوه، ثم عادوا إليه بالمال والرسالة إلى المنتصر. فتحقق أبو تاشفين من صِحّة الأمر، وثبت لديه انحياز والده إلى جانب إخوته وخصومه. فذهب إلى قصر السلطان وأراه الرسالة، ولامه لومًا عنيفا على ما قام به.

165. نفسه، ج7، ص 298.

166. انظر : عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 298-299.

ثم خلعه بعد ذلك بأيام، ووكّل عليه الحرس في قصره، ثم اعتقله بقصبة وهران، واستقصى ما كان معه من المال والذخيرة، وأمر باعتقال إخوته الذين كانوا مقيمين آنذاك بتلمسان[167].

ثم غادر تلمسان بجيش يضمُّ جموعًا من سويد وبني عامر، وقصد إخوته المنتصر وأبا زيان وعمير، وكان هؤلاء قد اعتصموا بجبل تيطرّي بعدما بلغهم نبأ خلع أبيهم، فاستولى على مليانة، وحاصرهم بمعتصمهم مدة. ثم ظهر له أن يتخلص من والده بتدبير قتله، فأرسل بعض رجال حاشيته لأجل ذلك، وضمّ إليهم ابنه أبا زيان، فقتلوا من كان معتقلا من أبناء السلطان، وساروا إلى وهران في أوائل سنة 789 هـ. ولما علم أبو حمو بقدومهم بنيّة قتله، أغلق باب القصر دونهم وصعد إلى أعلى القصر، وأخذ يستغيث بأهل المدينة.

ثم نزل من جدران القصر بحبل وصله من عمامته، فاجتمع الناس حوله، ومنحوه تأييدهم. فعاد إلى تلمسان، واستولى عليها بسهولة، إذ كانت أسوارها قد خرّبت من قبل، واستنفر بعض أشياخ بني عامر فأتوه، لصد هجوم ابنه وأحلافه سويد[168].

وعندما بلغ أبا تاشفين نبأ هذا الحادث، رفع الحصار عن جبل تيطرّي، وعاد فورًا بجيشه إلى تلمسان، خشية أن يستفحل أمرُ أبيه من جديد. ولم يقْوَ أبو حمو على مدافعته لقلة ما كان حوله من الأنصار، فالتجأ إلى مئذنة المسجد الجامع، وأخبر أبو تاشفين بذلك، فجاء إليه بنفسه واستنزله من المئذنة، ورقّ لحاله فبكى، وقبّل يده، ورجع به إلى القصر حيث اعتقله ببعض الغرف[169].

---

167. انظر : نفس المصدر، ج7، ص 299. أما التنسي، فإنه يذكر أن أبا حمو خلع نفسه لإطفاء السعايات التي جرت بينه وبين أبي تاشفين (أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 180).

168. انظر : عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 300–301 و 754.

169. انظر : نفس المصدر، ج7، ص 301 و 754–755.

ثم لجأ أبو حمو إلى الحيلة في الخلاص من معتقله، فطلب من أبي تاشفين، في أواخر سنة 789 هـ، أن يسرّحه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، ثم البقاء في أحد أقطار المشرق، فأسعفه في طلبه، واتفق مع بعض التجار القطلان الذين كانوا على أهبة السفر إلى الإسكندرية، على حمله في سفينتهم من ميناء وهران إلى الإسكندرية، وجعل له حُرّاسًا وكّل إليهم مراقبته أثناء السفر. وأقلعت السفينة قاصدة المشرق. ولما قرب المسافرون من بجاية داخل أبو حمو صاحب السفينة في أن ينزله بجاية، فوافقه على طلبه وأطلق سراحه، وأصبح الموكّلون به في طاعته. ونزل أبو حمو بجاية، فاستقبل بحفاوة من طرف أميرها الحفصي. ثم غادرها وقدم إلى ناحية متيجة، حيث أخذ يحشد العساكر ويستنفر العرب، وقصد بهم تلمسان، تاركا ابنه أبا زيان على ناحية شلف[170].

وعندئذ أصبحت الدولة الزيانية تعيش حربًا أهلية، حيث إن التهافت على الحكم أدّى إلى صراع مؤلم بين السلطان أبي حمو وولي عهده. وانحاز إلى جانب السلطان أقوام من عرب متيجة وشلف وبعض بني عامر، بينما كان أبو تاشفين مؤيدا من طرف حلفائه سويد وقبيلة بني عبد الواد «بما بذل فيهم من العطاء، وقسم من الأموال»[171].

وسلك أبو حمو وجموعه طريق الجنوب، متجهين نحو المنطقة الغربية، إلى أن بلغ قرية تامة الواقعة غربيّ تلمسان. وعزم أبو تاشفين على توجيه ضرباته إلى الجهتين الشرقية والغربية، للقضاء على منافسيه من إخوته وعلى أبيه، فأرسل جيشا إلى شلف بقيادة ابنه أبي زيان ووزيره محمد بن عبد الله بن مسلم، وسار هو بجيش آخر نحو أبيه.

170 انظر : عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 301–302 و 755.
171 نفسه، ج7، ص 302.

أما أبو زيان بن أبي تاشفين، فإنه انهزم أمام عمه أبي زيان، وقتل مع جماعة من بني عبد الواد كانوا قد رافقوه، منهم محمد بن عبد الله بن مسلم، فكانت ضربة قاسية أصابت أبا تاشفين في الصميم، وجعلت الصراع بين الفريقين يزداد خطورة وعنفا، ويتحول إلى عداء لا مجال لانتهائه إلا بانهيار أحدهما وانقراضه[172]. وأما أبو حمو، فإنه توجّه إلى وادي زا، واستنجد بالآلاف من عرب المعقل، فاستجابوا لطلبه وعاد بهم إلى تامة. وأقبل أبو تاشفين بجيشه، فعسكر قبالته. وأقام الفريقان على تلك الحال إلى أن بلغ أبا تاشفين خبرُ هزيمة ابنه ومقتله، فتأثر كثيرًا لذلك النبإ وقرّر الانسحاب إلى تلمسان، فعاد إليها وأبو حمو في أثره.

ولجأ أبو تاشفين إلى سياسة الإغراء بالأموال لكسب الأنصار، فبعث مولاه سعادة في طائفة من الجنود إلى أتباع أبي حمو من العرب، بمهمّة مداخلتهم في التخلي عن السلطان،" ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل، وهزم سعادة وقبض عليه. ولما وصل الخبر إلى تلمسان، انفضّ عن أبي تاشفين مَن كان يؤيده من بني عبد الواد، ولم يبق حوله إلا جماعة من سويد، فغادر تلمسان معهم، واتجهوا إلى مشاتيهم بالصحراء[173]. وعندئذ تمكّن أبو حمو من الاستيلاء على تلمسان، في رجب 790 هـ، واستدعى إليه أبناءه من المنطقة الشرقية فأتوه. أما ابنه أبو تاشفين، فإنه توجّه بعد ذلك، رفقة محمد بن عريف السويدي، إلى المغرب الأقصى، واستنجد بالسلطان أبي العباس المريني، فوعدهما بالمساعدة.

ومرّة أخرى، اتصل أبو حمو بحليفه ابن الأحمر، ملك غرناطة، ودعاه إلى التدخل في الأمر، بأن يطلب من السلطان المريني أن يُجيز أبا تاشفين إلى الأندلس، حيث يؤمَن شرُّه. فأرسل ابن الأحمر إلى أبي العباس المريني في هذا الشأن، وطلب منه إجازة أبي تاشفين إلى الأندلس، فلم يطاوعه أبو العباس في ذلك، وذكر أنه «استجار بابنه أبي فارس، واستذمّ به»[174].

172 نفسه، ج7، ص 302.
173 نفسه، ج7، ص 303 و 755.
174 نفسه، ج7، ص 304 و 756.

وكان أبو تاشفين قد لجأ إلى إغراء محمد بن يوسف بن علال، وزير أبي العباس المريني، بالأموال والوعود، ليحث سلطانه على مساعدته بالعساكر، حتى يتمكن من الانتصار على أبيه، والاستيلاء على تلمسان، والتزم أبو تاشفين بدفع مقدار كبير من المال للوزير، وبالدعاء للسلطان المريني في المنابر، ودفع إتاوة سنوية[175]. وتردّد السلطان المريني مدة في قبول هذا الاتفاق. فبذل الوزير ابن علال كل ما في وسعه لإقناعه، إلى أن وافق أبو العباس على ذلك، وأرسل العساكر، في أواخر سنة 791 هـ، بقيادة ابنه أبي فارس، لمساعدة الأمير أبي تاشفين في التغلب على أبيه[176].

ولما اتصل أبو حمو بخبر زحفهم إلى تلمسان، غادرها مع أتباعه بني عامر والخرّاج من قبيلة المعقل، وقصد جبل بني ورنيد، الواقع جنوب المدينة والمطِلّ عليها، وأقام من ورائه بمكان يدعى الغيران. وفي تلك الأثناء، قدم موسى بن يخلف إلى تلمسان، فاستولى عليها مقيمًا بها دعوة الأمير أبي تاشفين. فأرسل إليه أبو حمو ابنه عمير، فأسره بعد أن أسلمه سكّان المدينة، وحمله إلى أبيه، فأمر بتعذيبه وقتله.

ثم تمكّن حلفاء أبي تاشفين من معرفة مكان إقامة أبي حمو، فقصدوه وباغتوه في الغيران، في أول شهر ذي الحجة سنة 791 هـ، والتحَمَ القتال بين الفريقين، فلم يثبت أنصار أبي حمو أمام الجيش المريني، الذي كان يفوقهم عددًا وعدّة، وكبا بأبي حمو فرسُهُ فسقط على الأرض، وأدركه بعض أصحاب أبي تاشفين، فقتلوه قعصًا بالرماح، وجاؤوا برأسه إلى ابنه أبي تاشفين والوزير ابن علال[177].

---

175. نفسه، ج7، ص 305.

176. نفسه، ج7، ص 303–304.

177. نفسه، ج7، ص 304–305 و756؛ أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 180-181؛ الناصري، الاستقصاء، ج4، ص 76.

وهكذا كانت وفاة أبي حمو الثاني خاتمة هذه المأساة التي شهدت اصطدام السلطان الزياني بفلذة كبده وولي عهده، وتطاحنهما وتناحرهما، فلقي حتفه في جبال تلمسان، وقد بلغ من العمر 68 سنة، وفاضت روحه بين الصخور والأعشاب، بعد حياة ملأى بالأحداث، ذاق منها الحلو والمرّ، فلم يذهب بلبّه زخرفُها، ولم تقض عليه عواصفها. وبوفاة أبي حمو الثاني، انتهى عصر هامّ من عصور الدولة الزيانية، حاولت هذه أثناءه أن تستعيد عزتها وقوتها، غير أنها أخفقت في محاولتها هذه لأسباب عديدة.

لقد استطاع أبوحمو الثاني أن يبعث الدولة الزيانية بعد اندثارها، وأن يعيد لها جانبًا من مجدها وازدهارها، رغم تقلب الأوضاع في مناسبات عديدة، وتظافُر الأسباب لإزعاجه مرارًا عن عاصمته وحمْله على الاغتراب والتجوال في المناطق المقفرة النائية. إلا أنه لم يستسلم قط لليأس، وواجه صروف الدهر برباطة جأش وصبر وعزيمة. فكان عهده يمثل فترة حاسمة في تاريخ المغرب الأوسط، تعرّضت فيها الدولة الزيانية إلى أخطار جسيمة. فجاس بنو مرين خلالها مرارًا، وحاولوا إضافتها إلى مملكتهم، فلم يوفقوا في شيء من ذلك، لما كان يحدث في بلادهم من فتن تشغلهم عن تحقيق أمنيتهم، وتمكين سلطتهم.

كما أن عرب زغبة، من بني عامر وسويد وحُصَيْن وغيرهم، شكلوا عاملا رئيسيًا لتطور الأوضاع السياسية والاجتماعية، أثناء هذه الفترة، في المغرب الأوسط. فقاموا بدور هامّ في جميع الحوادث، وانطلق منهم قوم لإثارة الفتن، وإقامة منافس للسلطان الزياني، كما انحاز آخرون إلى جانب أبي حمو، يعضدون إمارته، ويحمون عرشه. فكأن الأوضاع السياسية استحالت إلى صراع بين فصائل عرب زغبة، حول امتلاك أراضي التلّ الخصبة وتهافتهم عليها. وكأن بني عبد الواد وغيرهم من قبائل زناتة، أصبحوا لا يقومون بالأدوار الرئيسية، ولا يصلون إلى أي غرض من الأغراض إلا بما يحصلون عليه من نصرة القبائل العربية وتأييدها.

وكان تحقيق مطامح أبي حمو الثاني في التوسع من الجهة الشرقية، يقتضي إنشاء جيش قوي، والحصول على أنصار أوفياء وقادة مهرة، مما لم يتوفر له إلا في السنوات الأولى من عهده. ولقد استقامت أمور دولته ما دام على رأس جيوشه الوزير الشجاع، عبد الله بن مسلم الزردالي. ولكن، بعد وفاة هذا الأخير في أواخر سنة 765 هـ، أخذت الأحوال تضطرب. وانتشرت الفوضى في الناحية الشرقية، ومُنِيَ أبو حمو بهزائم شديدة، أضعفته بصفة محسوسة، وجعلت بلاده تسير بخُطى حثيثة نحو الانحطاط والتدهور. ومما زاد في الطين بلة، ما قام بين أبنائه من منافسة على الحكم، وتهافت على السلطة. ولما تحولت تلك المنافسة إلى صراع عنيف بين أبي حمو وابنه أبي تاشفين، كان السلطان الزياني شيخا يتجاوز الستين عامًا، ولم يكن له آنذاك نفوذ واسع وأنصار أقوياء، فاختلّ أمره وانهار، وعادت تدخلات المرينيين تهدد من جديد كيان الدولة الزيانية.

5. الدولة الزيانية في عهد الانحطاط :

وبعد وفاة أبي حمو الثاني، دخل أبو تاشفين تلمسان في آخر سنة 791 هـ، وخلف أباه على العرش الزياني، وتأكدت تبعية الدولة الزيانية لملوك بني مرين. وبقي الجيش المريني مخيمًا بظاهر تلمسان، إلى أن دفع السلطان الجديد ما اشترطوا عليه من المال، وعندئذ أقلعوا عائدين إلى بلادهم. وأقام أبو تاشفين الثاني الدعوة للسلطان أبي العباس المريني، وأرسل له ما التزم بأدائه من إتاوة سنوية[178].

غير أن المنافسة التي كانت قائمة بينه وبين أخيه أبي زيان لم تنته بعدُ. وذلك أن أبا زيان، الذي كان أبو حمو قد عينه واليًا على مدينة الجزائر قبَيْل وفاته، ثار ضد أبي تاشفين في الناحية الشرقية، واتصل بعرب حُصَيْن وبني عامر، ودعاهم للأخذ بثأر أبيه، فوافقوه على ذلك، ونهضوا إلى تلمسان في رجب سنة 792 هـ فحاصروها أيامًا، غير أن أبا تاشفين لجأ إلى إغراء أشياخ العرب بالمال، فانفضوا من حول أبي زيان.

178 انظر : عبد الرحمن بن خلدون، ج7، ص 305.

ولم يرجع هذا الأخير عن عزمه، بل واجه جيش أبي تاشفين بما بقي معه من الأوفياء في شعبان 792 هـ، ولكنه انهزم أمامه، ونجا بنفسه إلى الجنوب، فلحق بعرب المعقل. ثم عاد لحصار تلمسان، في شهر شوال. فاستنجد أبو تاشفين بالسلطان المريني، فبعث له المدد، واضطرّ أبو زيان إلى رفع الحصار، والإفراج عن المدينة، والالتجاء إلى الصحراء. ثم توجه أبو زيان إلى المغرب الأقصى، وطلب المساعدة من السلطان المريني، فرحّب به ووعده بالاستجابة لطلبه عندما يحين الأوان[179].

وأقام أبو زيان مدة بفاس، إلى أن تغير أبو العباس المريني على أبي تاشفين، وأمدّ أبا زيان بالجنود والعتاد، وسمح له، في أوائل سنة 795 هـ، بالتوجه نحو تلمسان. فسار إليها بما اجتمع لديه من العساكر، وعندما بلغ مدينة تازا، وصله نبأ وفاة أبي تاشفين في 17 ربيع الثاني سنة 795، إثر مرض أصابه[180].

وعندئذ نهض السلطان أبو العباس المريني من فاس بجيشه، متوجهًا إلى تازا. وفي تلك الأثناء، قام بتلمسان أحد رجال الدولة الزيانية، يدعى أحمد بن العز، بتنصيب أبي ثابت يوسف ابن أبي تاشفين، خلفا لأبيه على العرش الزياني، تحت كفالته. غير أن محاولته باءت بالفشل، وذلك أن يوسف ابن الزابية قدم من مدينة الجزائر بحلفائه من بني عامر، واستولى على تلمسان، فقتل أحمد بن العز، والأمير أبا ثابت، بعد تنصيب دام أربعين يومًا. فغضب أبو العباس المريني لما قام به يوسف ابن الزابية من الإغارة على تلمسان وتملّكها. فأعاد أبا زيان إلى فاس، ووكّل به من يحرسه، وأرسل ابنه أبا فارس عبد العزيز إلى تلمسان لامتلاكها، فاحتلها وأقام فيها الدعوة المرينية، ثم نهض وزير أبيه صالح بن حمو إلى المنطقة الشرقية، فاستولى على مليانة والجزائر ودلس، وأصبحت معظم أنحاء المغرب الأوسط تحت سلطة الدولة المرينية.

---

179. انظر : نفس المصدر، ج7، ص 306.

180. انظر : أبوعبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 203. ويلاحظ أن عبد الرحمن بن خلدون يختلف معه في تحديد تأريخ هذه الأحداث، حيث إنه يجعل تاريخ وفاة أبي تاشفين الثاني في رمضان 795 هـ. انظر : عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 306-307.

أما يوسف بن الزابية، فإنه اعتصم في حصن تاجحمومت، فضرب الوزير المريني صالح بن حمو الحصار حوله.

وفي تلك الأثناء، مرض السلطان أبو العباس المريني، وهو مقيم بتازا، وتوفي في محرم سنة 796 هـ، فغادر ابنه أبو فارس عبد العزيز تلمسان، وأسرع إلى فاس ليتولى عرش أبيه.

وأطلق سراح الأمير أبي زيان بن أبي حمو الثاني، ووجهه إلى العاصمة الزيانية أميرًا عليها، وقائمًا بدعوة السلطان المريني فيها، فملكها.

وفي تلك الأثناء، كان أخوه يوسف ابن الزابية يستعدّ للزحف إلى تلمسان، ويتصل ببني عامر لمساعدته على مواجهة أبي زيان وحلفائه. فبادر هذا الأخير بمداخلة بني عامر، وأغراهم بالأموال، وطلب منهم أن يسلموا له أخاه يوسف، «فأجابوا إلى ذلك، وأسلموه إلى ثقات أبي زيان، وساروا به فاعترضهم بعض أحياء العرب ليستنقذوه منهم، فبادروا بقتله وحملوا رأسه إلى أخيه أبي زيان»[181]. وعندئذ صفا الجو لأبي زيان، واستتبّ له الأمر، وحاول أن يعيد للدولة الزيانية بعض رونقها وازدهارها. وكان محبا للعلم والعلماء، مشجّعًا للأدباء والعلماء، ويتذوّق الشعر وينظمه[182]. وذكر أبو عبد الله التنسي أنه نسخ بيده نسخا من القرآن ومن صحيح البخاري وكتاب الشفاء للقاضي عياض، وأنه «حبسها كلها بخزانته التي بمقدم الجامع الأعظم من تلمسان المحروسة، التي هي من مآثره الشريفة... لما أوقف عليها من الأوقاف»[183].

وفي سنة 801 هـ، ظهر الأمير أبو محمد عبد الله بن أبي حمو الثاني منافسًا لأخيه أبي زيان على العرش، ولجأ إلى طلب المساعدة من أبي فارس عبد العزيز المريني، ملتزمًا بالدعوة له، فحظي باستجابته لطلبه، وأمدّه بجيش توجّه به إلى تلمسان، وحاصر به المدينة. ولم يَقْوَ أبو زيان على مدافعته،

181. عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 308–309. وذكر التنسي أن يوسف ابن الزابية مات مسمومًا عند بني عامر. انظر : أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 210.

182. انظر : عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 1171–1175، أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 210–227.

183. أبو عبد الله التنسي، المصدرالسابق، ص 211.

بعد أن انفضّ أنصاره من حوله، فغادر تلمسان واتجه إلى المنطقة الشرقية، ومكث بها مدة، حاول خلالها أن يتصل بعرب تلك البلاد، ويستنجد بهم لاسترجاع عرش أجداده، ولكن بدون جدوى، إلى أن توفي سنة 805 هـ، «اغتاله محمد بن مسعود الوعزاني، بعد أن أظهر له الخدمة، وقتله في بيته، منتهكا منه أعظم الحرمة»[184].

أما الأمير أبو محمد عبد الله بن أبي حمو الثاني، فإنه ولي المُلك سنة 801 هـ وكان يتحلى بخصال حميدة، من حزم وشجاعة وجدّ وعدل وكفاءة، مما جعله محبوبًا عند الرعية. غير أن رجال الدولة لم يطمئنوا لما أبداه من استعداد لمباشرة تسيير شؤون الدولة بنفسه، وتمسُّكه بالنزاهة والإخلاص في تأدية المهامّ، فخافوه واعتبروه خطرًا على ما كان لهم من امتيازات ورغبات وأطماع، فقرّروا التخلّص منه، وطلبوا من السلطان المريني أن يساعدهم على خلعه وتعويضه بسلطان آخر، فاستجاب لطلبهم، وأمدّهم بالجنود، وتمّ تنفيذ هذه المؤامرة بنجاح في سنة 804 هـ، فألقِيَ القبض عليه، واعتقل بفاس، وولي مكانه أخوه أبو عبد الله محمد، المعروف بابن خولة، والملقب بالواثق بالله[185].

وكان ابن خولة يتحلى بالكرم والحِلم والوقار، فحظي بحب الرعية، وتأييد رجال الدولة، فكان عهدُه عهدَ استقرار وهدوء، تحت حماية بني مرين ورعايتهم، وشمل الرخاء البلاد، إلى أن توفي في ذي القعدة سنة 813 هـ فخلفه ابنه عبد الرحمن، غير أن الحظ لم يساعده، فلم يبق على العرش إلا حوالي شهرين. وذلك أن عمّه، السعيد بن أبي حمو الثاني، كان قد فرّ من السجن بفاس، في تلك الأثناء، والتفّ حوله بعض المغضبين والمغامرين، فاحتلّ تلمسان، وخلع سلطانها عبد الرحمن بن محمد بن خولة، في أواخر محرم سنة 814 هـ[186].

184 انظر : أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 228.

185 نفسه، ص 228–230.

186 نفسه، ص 230–234.

ويبدو أن السعيد لم يحسن التصرف في شؤون الدولة، حيث إنه أسرف في البذل والعطاء، وبالغ في الإنفاق، وأخذ يبذر الأموال بدون مراعاة مصلحة الدولة، الأمر الذي أدّى إلى فراغ بيت المال وإثقال الرعية بالضرائب، وأغضب الخاصة والعامة.

وبلغ سخط الناس إلى السلطان أبي العباس المريني، فأخرج من السجن أحد أبناء أبي حمو الثاني، يدعى أبا مالك عبد الواحد، وسيّره في عسكر لاحتلال تلمسان، فاستولى عليها في 16 رجب 814 هـ، وفرّ السعيد تاركًا العرش لأخيه[187].

وفي عهد أبي مالك عبد الواحد بن أبي حمو الثاني، استرجعت الدولة الزيانية بعض قوتها، وامتد نفوذها إلى سائر أنحاء المغرب الأوسط، بعد أن أخضع هذا السلطان مختلف القبائل والمدن لحكمه. وتحسنت الأحوال لما أبداه من مهارة في تدبير شؤون الدولة، ورغبة في الحفاظ على علاقات طيبة مع بني مرين. وتمثل بداية عهده نهاية عهد التدخلات المرينية الرامية إلى إبقاء نفوذهم في المغرب الأوسط. ويبدو أن الدولة المرينية قد ضعف شأنها آنذاك، مما سمح للسلطان عبد الواحد بمساعدة أحد أحفاد أبي عنان المريني بالعساكر والأموال للإغارة على فاس والاستيلاء عليها[188].

غير أن الخطر بدأ يأتي من الشرق، حيث إن العلاقات مع الحفصيين دخلت في فترة تأزّم استمرّت حوالي ستين سنة، تمكّن خلالها الحفصيون من بسط نفوذهم على المغرب الأوسط. وذلك أن الاستقرار الذي عرفته الدولة الحفصية منذ عهد أبي العباس أحمد (772-796 هـ)، جعل أبا فارس عبد العزيز الحفصي (796-837 هـ) يتربص للملوك الزيانيين، وينتظر الفرصة السانحة لبسط نفوذه على بلاد المغرب الأوسط. وفي منتصف سنة 827 هـ، قرّر النهوض بجيشه إلى تلمسان، بحجّة أن سيرة السلطان الزياني كانت غير محمودة.

187. نفسه، ص 234-235.

188. انظر: أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 240-241.

وحاول السلطان عبد الواحد التصدي للهجوم الحفصي، فأرسل ابنه للقاء الجيش الحفصي لكنه انهزم وعاد مفلولا، فلم يسع السلطان الزياني إلا الفرار بنفسه وذويه، والالتجاء إلى المغرب الأقصى.

ودخل أبو فارس الحفصي تلمسان في 13 جمادى الثانية سنة 827 هـ، فأقام بها مدة، ثم عقد للأمير أبي عبد الله محمد بن أبي تاشفين الثاني، المعروف بابن الحمراء، على المغرب الأوسط، ثم توجه إلى المغرب الأقصى، قصد إخضاع سلطانه. ولما قرب من فاس بمرحلتين أرسل إليه أبو العباس المريني هدية سنية، معلنا الدعوة له والاعتراف بسلطته، فقبل منه ذلك وعاد إلى بلاده[189].

أما السلطان محمد ابن الحمراء، فإنه دخل تلمسان في 16 جمادى الثانية سنة 827 هـ، وحسنت سيرته، فأحبته الرعية، وسرعان ما تأزّمت العلاقات بينه وبين السلطان الحفصي، فقطع الخطبة له وخلع طاعته. فأنهض أبو فارس جيشه، مرة أخرى، قصد إثبات سلطته على المغرب الأوسط، وأرسل صحبته أبا محمد عبد الواحد، السلطان الزياني السابق، الذي كان قد انتقل إلى تونس، بعد فشل محاولة الاستنجاد بالسلطان المريني، واتصل بأبي فارس الحفصي، وطلب مساعدته على استرجاع عرشه. فاستجاب لطلبه، وأرسل معه الجنود تحت رئاسة العلج جا الخير قائد قسنطينة. فلما اقتربوا من تلمسان، خرج محمد ابن الحمراء للقائهم، فكان النصر حليفه، وعاد فلّ الحفصيين إلى تونس[190].

أما عبد الواحد الزياني، فإنه استنجد بقبائل عرب المنطقة الغربية، وقدم بهم إلى تلمسان فنازلها.

189. نفسه، ص 241؛ الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص 125-126.
190. انظر: أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 243-244؛ ويذكر الزركشي (المصدر السابق، ص 127-128) أن هذا الحادث وقع في حدود سنة 832 هـ.

وعندئذ غادرها السلطان محمد ابن الحمراء، ملتجئا إلى الجبال المجاورة، ودخلها أبو مالك عبد الواحد، في رجب سنة 831 هـ، فتربّع من جديد على العرش الزياني[191].

غير أنه تعرّض لمنافسة ابن أخيه محمد ابن الحمراء، الذي أخذ يجوب المنطقة الغربية، ويتصل بقبائل العرب القاطنة بها، طالبًا منهم المساعدة لاسترجاع عرشه، وعارضا عليهم الوعود والأموال. ثم ارتحل إلى المنطقة الشرقية، وجاب جبال ناحية برشك وتنس. فلما اجتمع لديه جموع من الأتباع، قدم بهم إلى تلمسان، فحاصرها ثم احتلها في ليلة 4 ذي القعدة سنة833 هـ. وفي صباح اليوم التالي أتِيَ بعمه عبد الواحد، فأمر بقتله[192].

وما بلغ خبر تملُّك ابن الحمراء لتلمسان، ومقتل عبد الواحد إلى أبي فارس الحفصي حتى قرّر النهوض إلى تلمسان للأخذ بثأر حليفه المقتول. فجهز العساكر وسار بهم نحو تلمسان فحاصرها. ولما اشتدّ الحصار على المدينة، غادرها ابن الحمراء ليلا، في غرّة رجب 834 هـ، والتجأ إلى جبل بني يزناسن. «ولما أصبح أهل البلد فتحوا الباب ودخلها (السلطان الحفصي) بمن معه، وبعث القائد نبيل ابن أبي قطاية في عسكر إلى الجبل، وحاصرهم إلى أن طلبوا منه الأمان على أن يمكنوه من الأمير محمد (ابن الحمراء) فأنزلوه إلى المولى السلطان فعفا عنهم وقبض عليه»، ثم حمله معه إلى تونس، واعتقله بقصبتها إلى أن توفي سنة 840 هـ[193].

191. انظر : الزركشي، المصدر السابق، ص 128، ويذكر أبو عبد الله التنسي (المصدر السابق، ص244–245) أن العلاقات بين ابن الحمراء والسلطان الحفصي تأزمت، فنهض هذا الأخير بجيشه إلى تلمسان ومعه عبد الواحد الزياني، فحاصرها واحتلها بعد أن غادرها ابن الحمراء.

192. انظر: أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 244–245؛ الزركشي، المصدر السابق، ص129.

193 انظر: الزركشي، المصدر السابق، ص129، أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص246.

وقبل أن يغادر أبو فارس الحفصي تلمسان، رأى أن يولي على مملكتها الأمير أبا العباس أحمد بن أبي حمو الثاني، فعقد له عليها.

وكان أبو العباس أحمد هذا يتصف بخصال حميدة، من عدل وحسن تدبير، وعطف على الفقراء، وتشجيع للعلم والعلماء، فعُرِفَ بالعاقل. وبعد ثلاث سنوات من بداية عهده، تعرضت بلاد إفريقية لغزو النصارى، الذين استولوا على جزيرة جربة سنة 837 هـ. فاغتنم أحمد العاقل الفرصة، وأبطل الدعوة للسلطان الحفصي، فاغتاظ أبو فارس ونهض بجيشه قاصدًا الاستيلاء على تلمسان. فلما بلغ ناحية وانشريس مرض، فتوفي يوم عيد الأضحى سنة 837 هـ، فعاد الجيش إلى تونس[194].

وكان عهد أحمد العاقل، الذي دام حوالي 32 سنة، عهد استقرار نسبي ورخاء، كثر فيه الإقبال على طلب العلم، وحظي العلماء والصلحاء بعناية السلطان، وبخاصة الشيخ الزاهد أبو علي الحسن بن مخلوف أبركان، فكان يكثر من زيارته، وبنى مدرسة بزاويته، «وأوقف عليها أوقافا جليلة»[195]، و اهتم بإصلاح أحوال الأوقاف التي كانت تستغل لفائدة المشاريع الدينية والاجتماعية والتعليمية.

هذا ولم يسلم السلطان أحمد العاقل من منافسة أقاربه على العرش، شأنه في ذلك شأن سائر ملوك تلمسان في هذه الفترة. فمنهم أخوه أبو يحيى بن أبي حمو الثاني، الذي ثار عليه في سنة 838 هـ، وملك مدينة وهران بعد فشل محاولته في اتجاه تلمسان، واستمرّ تملكه لمدينة وهران 14سنة، ثمّ فتحها جيش أحمد العاقل سنة 852 هـ، ففرّ الأمير أبو يحيى إلى المنطقة الشرقية، فنزل بجاية، ثم توجه إلى تونس وبها توفي في أوائل سنة 855 هـ[196].

194. انظر : الزركشي، المصدر السابق، ص 130–131.

195. أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 248.

196. نفسه، ص 249.

وفي أواخر سنة 841 هـ، ثار عليه الأمير أبو زيان محمد بن أبي ثابت يوسف بن أبي تاشفين الثاني، بالمنطقة الشرقية، وحاصر الجزائر بضعة أشهر، ثم احتلها في 19 رجب 842 هـ. واستولى ابنه أبو عبد الله محمد على متيجة والمدية ومليانة وتنس، وأصبحت معظم أنحاء المنطقة الشرقية خاضعة لسلطتهما. غير أن أهل الجزائر غدروا بأبي زيان وقتلوه في 2 شوال سنة 843 هـ، وبقيت المدن الأخرى تحت سلطة ابنه الأمير أبي عبد الله محمد[197].

وفي ليلة 27 رمضان من سنة 850 هـ، ثار الأمير أحمد بن الناصر بن أبي حمو الثاني بتلمسان، واجتمع حوله جماعة من الأنصار، ولكن حركتهم لم تلق تأييد الجمهور، وباءت بالفشل، وألقي القبض على الثائر، فأمر السلطان أحمد العاقل بقتله. وإثر ذلك، أمر ببناء السور الشاهق المحيط بالمشوار[198].

وفي سنة 866 هـ، نهض الأمير أبو عبد الله محمد الزياني من مليانة، واستولى على قلعة بني راشد ومستغانم ووهران، ثم نازل تلمسان، واستولى عليها في غرة جمادى الأولى، فاستجار أحمد العاقل بضريح الولي الصالح أبي مدين شعيب بالعُبّاد. ولما أتيَ به إلى الأمير أبي عبد الله محمد منّ عليه وأجازه إلى الأندلس. وعندئذ بويع له بالمُلك، ولقّب بالمتوكل على الله[199].

ولما بلغ خبر هذه الأحداث السلطان أبا عمرو عثمان الحفصي، جهز جيشا قويا من عرب إفريقية، ونهض إلى تلمسان في 7 شوال سنة 866 هـ. ولما حلّ بناحية بني راشد، قدم إليه وفد من بني عبد الواد وعرب سويد و بني عامر، معربين عن الطاعة، فتقبلهم وأحسن إليهم.

197. نفسه، ص 249-251.

198. انظر : أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 253.

199. انظر : الزركشي، المصدر السابق، ص 152؛ أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 254.

ثم قدم عليه الولي الصالح أبو العباس أحمد بن الحسن، والفقيه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم العقباني، وأبو الحسن علي بن حمو بن أبي تاشفين، خال السلطان، بعقد شهود على السلطان المتوكل على الله الزياني، بأن جميع ما يفعلونه جائز عليه، والتزموا له بالبيعة والطاعة. ثم عادوا إلى تلمسان، وانصرف السلطان إلى تونس في 17 صفر سنة 867 هـ، فدخلها في 18 جمادى الأولى[200].

وبعد ذلك ببضعة أشهر عاد أحمد العاقل إلى المغرب الأوسط، وحصل على تأييد جماعة من العرب والبربر، فحاصر تلمسان مدة أربعة عشر يومًا، وقتل أثناء لقاء بين جموعه وجيش المتوكل على الله، في 13 ذي الحجة سنة 867 هـ، فأمر المتوكل على الله بدفنه في العبّاد. واستمر حصار تلمسان أياما بقيادة الأمير محمد بن عبد الرحمن بن أبي عنان بن أبي تاشفين، ثم يئس المخالفون من نجاح هذه الحركة، وارتحلوا وتفرقت جموعهم[201].

وفي أواسط سنة 870 هـ، وفد جماعة أشياخ بني عامر وسويد وغيرهم على السلطان الحفصي، وطلبوا منه أن يخلع المتوكل على الله، لما أبداه من استبداد ونكث للبيعة، وممالأة للدواودة الخارجين عن طاعة سلطان تونس. فأرسل معهم الأمير أبا زيان بن عبد الواحد بن أبي حمو الثاني، وجهّزه بالعساكر والأخبية والأموال. وبعد ذلك بأيام، نهض السلطان الحفصي بجيوشه متوجها إلى تلمسان فحاصرها، وضرب أسوارها بآلات الحرب. وعندئذ أذعن المتوكل للطاعة، وجدّد البيعة، وزوّج بنته للأمير الحفصي أبي زكرياء بن المسعود دون خطبة. ورجع الملك الحفصي إلى تونس، في 9 شعبان سنة 871 هـ، بعد أن تأكد من امتداد نفوذه إلى سائر أنحاء المغرب الأوسط[202].

200. انظر : الزركشي، المصدر السابق، ص 152-153.
201. أبو عبد الله التنسي، المصدر السابق، ص 257.
202. انظر : الزركشي، المصدر السابق، ص 157-158.

وهكذا، فإن الدولة الزيانية لم تستطع، طوال ما يقرب من ستين سنة، أن تتخلص من السيطرة الحفصية، التي ما فتئت تلعب دورًا رئيسيًا في تاريخ دولة بني زيان، أثناء هذه الفترة.

ولم تخفّ وطأتها إلا في عهد أحمد العاقل. غير أن هذا التدخل الحفصي كان آخر تدخل لهم في المغرب الأوسط، إذ أن الدولة الحفصية أصبحت بعد ذلك تواجه هجمات النصارى، من أسبان وغيرهم، على سواحل بلادها، مما شغلهم عن شؤون المغرب الأوسط.

وبعد ذلك بقليل، توفي المتوكل على الله الزياني في سنة 873 هـ، فخلفه ابنه أبو تاشفين، غير أنه خلع من طرف أخيه أبي عبد الله محمد الثابتي، بعد حوالي أربعين يومًا. وفي أيام محمد الثابتي ظهر خطر هجمات النصارى على سائر بلاد المغرب، فأصبح الشغل الشاغل بالنسبة لدوله الثلاث.

6. خطر الغزو الأجنبي وانهيار الدولة الزيانية

في عهد محمد الثابتي تزايد ضعف شأن الملوك الزيانيين، وأخذت بعض المدن، مثل تنس والجزائر وتدلس، تستقلُّ عن السلطة المركزية. كما أن كثيرًا من قبائل العرب خلعت طاعة السلطان، وأصبحت تنضمُّ إلى أعدائه كلما هجموا على أراضيه. وفي سنة 897 هـ /1492 م، استولى الأسبان على غرناطة، وقضوا بذلك على آخر دولة إسلامية بالأندلس. وكان قد قدم منها أبو عبد الله محمد بن سعد الزغل، من أمراء بني الأحمر، فنزل وهران ثم تلمسان، واستقبله محمد الثابتي بحفاوة وإكرام، وتوفي أبو عبد الله الزغل بتلمسان بعد ذلك بسنوات قليلة. كما هاجر عدد كبير من الأندلسيين إلى بلاد المغرب، فتبعهم النصارى إليه، وأخذوا يغيرون على سواحله، يحاولون الاستيلاء على الموانئ، والإكثار من القتل والنهب والسبي.

وفي سنة 906هـ/1501 م، هاجم البرتغاليون المرسى الكبير ووهران، ولكنهم أخفقوا في محاولتهم هذه، وفشل هجومهم. وكان البرتغاليون قد احتلوا كثيرًا من موانئ المغرب الأقصى، مما جعلهم يستحوذون على قسم كبير من تجارة السودان. ثم تعرّض ميناء المرسى الكبير، سنة 910 هـ /1505 م، إلى هجوم الأسبان. فقاتلهم أهله بكل ما أوتوا من قوة وإمكانيات، ولكنهم غلبوا على أمرهم، فالتجأوا إلى وهران.

وكان السلطان محمد الثابتي، عندما وصله خبر الهجوم، قد أسرع بإرسال جيش لحماية المرسى الكبير، فاعترضه الأسبان بمسّرقين وهزموه، ونهبوا أمتعته كلها. فتأثر السلطان الزياني لذلك كثيرًا، وحزن حزنا شديدًا، وتكدّر صفوُ عيشه. وتوفي بعد ذلك بقليل، فخلفه ابنه أبو عبد الله محمد الخامس[203].

ثم تفاقم الوضع السياسي، في عهد محمد الخامس، واشتدّ خطر النصارى الأسبان. وفي سنة 914 هـ / 1509 م، استولى الأسبان على وهران. ثم احتلوا بجاية سنة 915 هـ / 1510 م، وانتهكوا الحرمات في المدينتين، فخشيت المدن الأخرى سطوتهم، وقدمت تدلّس والجزائر وتنس طاعتها لهم[204].

وعندئذ رأى السلطان محمد الخامس أن يفاوض الأسبان ويصالحهم. فوفد على ملك قشتالة بإسبانيا، سنة 918 هـ / 1512 م، وقدم له هدايا سنية، وعقد معه صلحًا التزم فيه بالتبعية له، وبدفع ضريبة سنوية، وتموين حامية وهران الأسبانية بما تحتاج إليه من المؤن، والمساهمة في الدفاع عن ممتلكات إسبانيا بجانب جيوشها[205].

وفي سنة 920 هـ / 1514 م، استولى بابا عروج على مدينة جيجل، مبتدئا جهاده البطولي ضدّ الأسبان. ثم احتلّ الجزائر، بطلب من أهلها، ومليانة والمدية وتنس.

203. انظر: أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، الجزائر، ش.و.ن.ت.، 1968، ص 96–102.

204. نفسه، ص 110–125.

205. انظر: Laroui, L'histoire du Maghreb, un essai de synthèse, p. 222.

وأصبح العثمانيون يشكّلون قوة يحسب لها حسابها بجانب الأسبان، في المغرب الأوسط. وتوفي محمد الخامس سنة 922 هـ / 516 م، فخلفه أخوه أبو حمو الثالث المدعوّ بلقب أبي قلمون.

ورأى السلطان أبو حمو الثالث أن يركِّز سياسته على مبدإ مسالمة الأسبان ومصالحتهم، متبعًا في ذلك أخاه محمد الخامس، وملتزمًا بمثل ما التزم به هذا من الشروط. غير أن أهل تلمسان لم يرضوا بذلك، فاستقدموا بابا عروج، ومكّنوه من المدينة في سنة 923 هـ / 1517 م، فخلع بابا عروج أبا حمو الثالث، ونصب على العرش ابن أخيه أبا زيان الثالث المسعود. وعندئذ استنجد أبو حمو الثالث بحلفائه الأسبان بوهران، فلبّوا طلبه، وحاصروا بابا عروج بتلمسان، في سنة 924 هـ / 1518 م، ثم هزموه وقتلوه، واستولوا على تلمسان، وأعادوا أبا حمو الثالث على العرش الزياني[206].

وفي عهده ركز الأسبان على مواجهة خطر الوجود العثماني بسواحل شمال إفريقيا، والمبادرة بالقضاء عليه قبل أن يستفحل أمره، وأن يحقق توحيد هذه البلاد. فلجؤوا إلى مسالمة ملوك تلمسان، واكتفوا بعقد الصلح الذي أمضاه معهم أبو حمو الثالث، والمتضمن تبعية هذا الأخير لهم، والتزامه بدفع ضريبة سنوية. وعندما توفي السلطان الزياني أبو حمو الثالث، في سنة 934 هـ /1528 م، كان نفوذ الزيانيين قد تقلّص وتضاءل بشكل ملحوظ.

ثم خلفه أخوه أبو محمد عبد الله الثاني بن محمد الثابتي. وفي عهده قوي النفوذ العثماني، واستولى خير الدين، في 19 رمضان 935 هـ / 27 مايو 1529 م، على البنيون، وهو الحصن المشيّد على صخرة مقابلة لمرسى الجزائر، من يد الأسبان. فاشتدّ الصراع بين العثمانيين والأسبان في مملكة الحفصيين حول عاصمتهم تونس وبعض مدنها الكبرى مثل عنابة وقسنطينة وبجاية.

206. للمزيد من التفاصيل، انظر : أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 186-193.

وتزعم العثمانيون مقاومةَ الغزو الأسباني، مما جعلهم يحظون بتأييد أغلبية الأهالي وانضمامها تحت لوائهم. وحينئذ، اضطرّ السلطان الزياني عبد الله الثاني إلى إجراء اتفاق سرِّيّ مع خير الدين تحت ضغط أهالي مملكته. وصادف ذلك قيام اضطرابات بإسبانيا، فانشغل عنه الأسبان، ولم يتعرّض لأذاهم إلى أن توفي سنة 947 هـ / 1540 م[207].

وكان عبد الله الثاني قد ترك ولدَيْن، أكبرهما أبو عبد الله محمد، والأصغر أبو زيان أحمد. فخلف أبو عبدالله محمد السادس أباه، وانتهج سياسة مسالمة الأسبان والتبعية لهم. وفي عهده حدث فشل محاولة غزو كارلس الخامس لمدينة الجزائر، في رجب 948 هـ / 23-10 إلى 03-11 1541 م[208]. ثم ثار أبو زيان، سنة 949 هـ / 1542 م، على أخيه، بتشجيع من الأتراك والعلماء، وخلعه، وانتصب مكانه على العرش الزياني.

فاستجار محمد السادس بالأسبان، ووضع نفسه تحت حمايتهم. فأمدّه الملك كارلس الخامس بجيش، وأرسله إلى تلمسان، في أوائل سنة 950 هـ / 1543 م، غير أن الجيش الأسباني انهزم شرّ هزيمة بمكان يدعى شعبة اللحم، قرب مدينة عين تموشنت، وقتل معظم جنوده. وعندئذ صمّم الأسبان على الثأر لقتلاهم، فأغاروا على تلمسان، في ذي الحجة 950 هـ / مارس 1544، واحتلوها وقتلوا وسبوا معظم أهلها، ونهبوا وخرّبوا كثيرًا من عمرانها، وأعادوا محمدًا السادس على العرش الزياني[209].

ففرّ أخوه أبو زيان الثالث إلى صحراء أنجاد، وتبعه الأسبان، وهزموه قرب وادي ملوية.

---

207. يوجد بعض الاختلاف في الدراسات التاريخية حول هذه الفترة، في تاريخ وفاة أبي حمو الثالث، وتاريخ أحداث عهد عبد الله الثاني. انظر : أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 210-247؛ مولاي بلحميسي، نهاية دولة بني زيان، مجلة الأصالة، عدد 26، ص 34-36؛ A. Laroui, op. cit., pp. 232 et 365.

208. انظر: أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 280-299.

209. نفسه، ص 308-312.

ثم جمع أبو زيان كثيرًا من الأنصار، وتوجه بهم، في سنة 951 هـ / 1544 م، نحو تلمسان، فخرج محمد السادس إليه وهزمه. ولما عاد السلطان الزياني إلى عاصمته، أغلق أهلها الأبواب دونه وطردوه، واستقدموا أخاه أبا زيان، وأعادوه على العرش.

فتوجه محمد السادس إلى وهرانَ لطلب المساعدة من حلفائه الأسبان، ولكنه قتل في طريقه إليها. وتحالف أبو زيان الثالث مع الأتراك، معلنا تبعيته لهم ومعاداته للأسبان[210].

وفي تلك الأثناء، ازداد الصراع بين الخلافة العثمانية والأمبراطورية الأسبانية تفاقمًا، واتسعت منطقة الحروب بين الدولتين، وأصبحت الدولة الجزائرية الفتية تحتل مكانة ملحوظة في مواجهة الغزو الأسباني لسواحل شمال إفريقيا. وحاول الأسبان المحتلون لوهران أن يوسعوا نفوذهم إلى المناطق الغربية بالمغرب الأوسط، مستعملين كل الوسائل لكسب تحالف وتبعية القبائل المجاورة، مثل بني عامر وفليتة وبني راشد، فوفقت محاولاتهم نسبيًا. أما السلطان أبو زيان الثالث فيبدو أنه أدرك خطورة موقفه من الحرب القائمة بين الدولتين، وشعر أن تقلص نفوذه، وضآلة إمكاناته المالية، وندرة قوته العسكرية، لم تكن تسمح له بالوقوف إلى جانب أحد الطرفين ومعاداة الطرف الآخر دون أن يعرّض عرشه للزوال، وارتأى أن أنجع السبل لتجنب عداء كلا الطرفين يكمن في مسالمتهما معًا، وربما مال إلى إبرام عقد تحالف سري مع الأسبان لتفادي إغارتهم على تلمسان وخلعه والتنكيل بأهلها. وعلى كل، فإن تقاعده عن الانضمام إلى الأتراك لمواجهة الغزو الأسباني قد أغضب أهل تلمسان، وجعلهم يستقدمون حسان آغا ابن خير الدين بربروس لخلع أبي زيان. وفي أواسط شعبان 952 هـ / أكتوبر 1545 م، قدم حسان آغا إلى العاصمة الزيانية، واستولى عليها وخلع أبا زيان، ونصب مكانه أخاه الحسن[211].

210. نفسه، ص 312–313.

211. نفسه، ص 321–22.

وفي تلك الأثناء، كان خير الدين بربروس، الذي عينه السلطان العثماني سليمان القانوني أميرًا عاما (قابودان باشا) على الأسطول العثماني، يواجه بالتحالف مع مملكة فرنسا، أساطيل إسبانيا وحلفائها، ويحقق انتصارات عديدة عليهم.

غير أن وفاته بإسطنبول، في شهر ربيع الأول سنة 954 / مايو 1547، قد أحدثت حزنا شديدا واضطرابًا في نفوس الخاصة والعامة بالجزائر. وكان الأسبان قد حشدوا جيشا قويا، وتأهّبوا لإرساله إلى تلمسان، قصد الاستيلاء عليها وخلع السلطان الحسن بن عبد الله الثاني، وإعادة حليفهم أبي زيان الثالث على العرش الزياني.

وبلغ خبر تلك التحضيرات إلى حسان آغا، فغادر الجزائر بجيش قوي، متجها نحو الغرب، في أوائل رجب سنة 954 هـ / أغسطس 1547، وعازمًا على التصدي للجيش الأسباني، ومنعه من الهجوم على تلمسان. والتقى الجيشان على مسافة 25 كلم جنوب وهران، وعندما كان الطرفان يستعدّان لخوض المعركة، بلغ نبأ وفاة خير الدين بربروس، وما أحدثه من الهلع والحزن في نفوس أهل الجزائر، لابنه حسان آغا، فاضطر إلى الانسحاب بجيشه والعودة في اتجاه الجزائر لإعادة الاطمئنان إلى أهلها، خشية أن تؤول الأوضاع إلى ما لا تحمد عقباه.

وعندئذ رأى القائد الأسباني أن يقتفيَ أثر الجيش الجزائري، معتقدًا أن وفاة خير الدين بربروس قد حطمت معنويات الجنود، وقاصدا جعل انسحاب حسان آغا وجيشه هزيمة كبرى تسمح له بالاستيلاء على مدينة مستغانم. ولما حلّ الجيش الجزائري بهذه المدينة، التفّ أهلها المجاهدون حوله، وأعربوا عن تصميمهم على مقاومة الغزاة والاستماتة في الدفاع عن المدينة. ولما وصل الأسبان أمامها، بعد استيلائهم على مزغران، واجهوا مقاومة بلغت منتهى الصمود والبسالة. وبعد قتال دام ثلاثة أيام، وصلت حامية تلمسان العثمانية إلى مستغانم، مع مَن انضمّ إليها من العرب، فقويت بهم صفوف المسلمين،

وباءت كل محاولات الأسبان بالفشل، وانتهت المعركة بانسحابهم وعودتهم إلى وهران بخيبة الأمل، وقد استولى على نفوسهم الرعب والهلع، وصاروا لا همّ لهم إلا الفرار والنجاة بالنفس[212].

وكان أبو زيان الثالث قد اغتنم فرصة غياب الحامية العثمانية عن تلمسان، فقدم إليها مع حلفائه العرب، ودخلها في أوائل رجب سنة 954 هـ / أغسطس 1547 م، وانتصب مرة أخرى على العرش، تحت حماية الأسبان. والظاهر أن حسان آغا لم يبادر آنذاك بتنظيم حركة إلى تلمسان لخلع أبي زيان الثالث، وإعادتها تحت النفوذ العثماني، وأنه انشغل عن ذلك بتوجيه كل الجهود والإمكانيات نحو إصلاح شؤون الدولة الجزائرية الفتية، وتعزيز قوتها بتحقيق توحيد سائر مناطق الجزائر الشرقية والوسطى، ومواصلة التصدي للغزو الأسباني لسواحل البلاد.

وفي تلك الأثناء، تطورت الأوضاع بالمغرب الأقصى، نتيجة عجز بني وطاس عن مواجهة الغزو الأجنبي، وانهيار دولتهم، وقيام الدولة السعدية على أنقاضها، وتوجيه جهودها لتحرير البلاد من الاحتلال الأجنبي، وتوحيدها تحت سلطتهم. وبعد استيلاء أبي عبد الله محمد الشيخ السعدي على مراكش، سنة 951 هـ / 1544 م، وعلى مكناسة، سنة 955 هـ / 1548 م، ثم فاس، سنة 956 هـ / 1549 م، نهض بالجيش متوجهًا إلى تلمسان، فضرب حولها الحصار مدة تسعة أشهر، قتل أثناءها ابنه محمد الحران، واستولى عليها في 23 جمادى الأولى 957 هـ / 1550 م، «ونفى الترك عنها، وانتشر حكمه في أعمالها إلى وادي شلف»[213]. أما أبو زيان الثالث، فإنه التجأ إلى وهران، وبها توفي بعد ذلك بقليل.

وفي تلك الأثناء، كان حسان بن خير الدين قد أعدّ جيشا لاستخلاص مدينة وهران من الاحتلال الأسباني، وبينما كان ذلك الجيش قد غادر الجزائر

212 نفسه، ص 322–324.

213 الناصري السلاوي، الاستقصا، ج5، ص 25؛ حول هذه الأحداث انظر أيضا : أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 325–328.

تحت قيادة حسان قورصو، في اتجاه المناطق الغربية، إذ فوجئ بنبأ استيلاء السعديين على تلمسان، وامتداد زحفهم إلى وادي شلف. فتحول اتجاه الجيش إلى هذه الناحية، والتقى هناك الجيشان. وانتهت المعركة بانهزام السعديين، وتراجع جيشهم نحو الغرب.

ويبدو أن أبا عبد الله الشيخ السعدي وجه أنظاره نحو المغرب الأوسط لأنه اعتبر الأتراك أجانب من هذا الإقليم ودخلاء فيه، وأنه كان يخشى أن يهددوا بلاد المغرب الأقصى بعد القضاء على الدولة الزيانية، التي أصبحت في طور الاحتضار، «فرأى الشيخ من الرأي وإظهار القوة في الحرب أن يبدأهم قبل أن يبدأوه»[214]. ويبدو أن أبا عبد الله الشريف السعدي قد ازداد قلقه وتخوفه من خطر توسُّع العثمانيين في اتجاه المغرب الأقصى، فأرسل جيشا آخر تحت قيادة ابنه الشريف عبد القادر. ثم حدث اللقاء بين جموع السعديين والجيش الجزائري في الحدود الفاصلة بين المغربين الأوسط والأقصى، ودارت بينهما معركة حامية الوطيس، انتهت بمقتل الشريف عبد القادر وهزيمة السعديين، ورجوعهم إلى بلادهم.

وعندئذ توجه حسان قورصو بجيشه صوب تلمسان، حيث أعاد الأمير الحسن بن عبد الله الثاني على العرش الزياني، وترك بالمشوَار حامية عثمانية يبلغ عدد جنودها 1.500 رجل، وعيَّن عليها القائد سفطة، وخوَّله زمام الحكم، وتسيير شؤون المنطقة. وبقي السلطان الحسن لا يملك من الأمر شيئا، ولا همَّ له إلا قضاء أوقاته في اللهو والملذات، مما أغضب أهل تلمسان ومجلس العلماء، الذي أعلن خلعه سنة 962 هـ / 1554 م[215]. وعندئذ أعلن صالح رايس، بايلار باي الجزائر، انقراض الدولة الزيانية، وتمّ بذلك توحيد تراب الدولة الجزائرية.

---

214 الناصري السلاوي، المصدر السابق، ج5، ص 25؛ انظر أيضا: أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 327–329.

215 انظر: أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 329.

الفهرس

تاريخ الجزائر في العصر الوسيط

الفتح الإسلامي وعصر الولاة

الدولة الرستمية

الجزائر من سقوط الدولة الرستمية الى تأسيس الدولة الحمادية

ثالثا – حركات المعارضة ضدّ الحكم الفاطمي في المغرب الأوسط

رابعا – النظام الإداري والمالي والعسكري

خامسا – علاقات الدولة الفاطمية بالأندلس و صقيلية

الجزائر في عهد دولة الموحدين

الدولة الحمادية

الطرق التجارية في عهد الدولة الحمادية

دولة المرابطين بالمغرب الأوسط سياسيا وحضاريا

الجزائر في عهد بني زيان
(التاريخ السياسي)